عبير جمال الدين

الطبعة الثانية

رواية

يوم من غلبي

دار البشير

الطبعة الثانية:
1440 هـ / 2018 م

اسم الكتـــاب: يوم من غُلبي
المــؤلــــف: عبير جمال الدّين
موضوع الكتاب: أدب ساخر
عدد الصفحات: 304 صفحة
عدد المـــلازم: 19 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 22635 / 2018
الترقيم الدولي: 1 - 724 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

دار البشير للثقافة والعلوم

عبير جمال الدّين

يوم من غُلبي

رواية

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهداء

إلى روح زوجي الحبيب الغالي

لم أنسَ دعمَك ومساندتك الرائعة لي، ولن أنسى ثقتك في قلمي وقت أن شكَّك فيه بعضُهم، ودومًا سأتذكّر دفعك بي إلى الأمام.

الحياة بدونك يا عبد الرؤوف فقدت معناها، وببعضٍ منك (مريم وليلى) أعيش، ولأجلهما أتمسَّك بالحياة، حتى يحقّقا ما كنّا نتمنّاه لهما..

رحمكَ الله يا توأمَ الرّوح.

دار البشير للثقافة والعلوم

المقدّمة

لن تعرفَ حقيقةَ ما يدور مِن حولك في الحياة إلّا
إذا توقّفت قليلًا كلّ فترة، بحثًا عن نفسك التّائهة
وسط الأشياء الكثيرة المحيطة بك.
ولن تعيشَ في سلامٍ وراحة بال، ما لم ترسلْ إلى
العالم الخارجي من داخل نفسك سلامًا لتشاركه
بجزءٍ منك.
ولن تستمتعَ بوجودك، ما لم تمتّع مَن حولك في
الحياة بنصيبِك من المتعة.
ابحثْ عن راحة الآخرين أثناءَ بحثك عن راحتك،
وكنْ جزءًا من نسيج الحياة
ولا تكنْ نسيجًا من جزءٍ في الحياة!

عبير جمال الدين

دار البشير للثقافة والعلوم

كلاكيت أوّل مرّة

(إيناس ماهر)

يغمر الحجرة ضوءٌ باهر، أسحب نفسي من تحت الغطاء، ورأسي تَئِنُّ من صداعٍ شديدٍ، أركِّز بصري في اتّجاه باب الغرفة،.... ....

أجلس في محاولةٍ لاستجماع ما الوقت الآن؟ وما الزّمن الذي أعيشه حاليًا؟! فقد نمتُ نومًا عميقًا، أنظر إلى الساعة لا أستطيع رؤية شيء، ومازالت غشاوةُ النوم تغطّي عيني... ....

لقد كانت الشّمس حانيةً على غير عادتها في هذا الوقت من العام، فأرسلت بعضًا منها، فتسلّل داخل بيتي من خلال نوافذه الزّجاجية؛ فامتلأ المكان بنورها وبدفئها، وببريقِ انعكاساتها المتلألئ، فحملتُ قهوتي السّوداء المنعشة، وقد غمرتني رائحتُها النفّاذة المحبَّبة إلى قلبي، وتوجّهتُ- مستبشرةً ببداية اليوم الرائع- إلى حجرةِ المعيشة، فالمنزل في حالة هدوءٍ وصمت

وسكون، أغبط نفسي عليه! فهذا أمرٌ لا يتكرّر في بيتي إلّا فيما ندَرَ ندرة الثّلج في الصيف!

فتحتُ درجَ المكتبِ وأحضرتُ بعضًا من أوراقي، وصورًا للأولاد ولزوجي، وقد احْتواهم بحنان، ألبوم صورٍ عتيق قد ورثته عن جدّتي، ثمّ وضعت كلّ ما أحمله على الأريكة بجواري، وجلستُ أحتسي القهوة، وأنا أستمتع بطعمها المرِّ المميز، وطفقت أَتَصَفَّحُ الأوراق والصّور في هدوءٍ وسكينة، لم يقطعها إلّا دخول «هنية الشّغالة» وهي غاضبة وثائرة ثورةً عارمة (كالعادة)، وكأنّ هناك غزوًا فضائيًّا على منزلنا وهي تستدعي الكلّ لمواجهته، وبدأت بي، وهي تحثُّني على مشاركتها الجهاد المقدّس من وجهة نظرها!

تُتَهْتِهُ في الكلام من فرط الانْفعال، وتقول لي بلهفة ونَفَسٍ متهدِّج، وبلهجتها الرّيفية التي لم تستطعِ التّخلص من بعض حروفها:

– يا مدام لبنى إلحجي واحد واجف جودام العمارة مكان ما حضرتك بتركني عربيتك، والراجل بجوله إمشي من هنا، جعد يزعّج لي ويجولّي بصوت تاخين جاوي:

– هو الشّارع ده بتاعكم، يلّا يا بتّ إنتِ إدخلي جوّه، إمشي من جدّامي، أنا أركن في المكان اللّي يعجبني، هو إنتِ متعرفيش أنا مين؟

ثمّ تردفُ قائلة:

– يا مدام أنا معرفش هو مين، بسّ يعني لو هو حتى شيخ الغفر حدانا ميجفش هنا في مكان عربيتك، دي الأصول صح؟

أقول بلا مبالاة في محاولةٍ للحفاظ على رباطة جأشي، فلا أريد إفسادَ اليوم بالجدال معها: – «هنية»، الشارع مش بتاعنا، وأي حدّ يقدر يركن فيه، المهمّ محدّش يركن مكان «الرامب» بتاع العمارة، غير كده مش مهمّ، يركن في أي مكان!

تهزّ رأسها غير مقتنعةٍ بما قلته لها، وتكمل حديثها وهي لا تزال منفعلة:

– مهو يا مدام الرّاجل جافل الرانج كمان، ومحدّش عارف يطلع أو ينزل عليه، أصل العربية بتاعته كبيرة جدًّا، علشان بينجل عفش، وعلى فكرة دي نجل المنوفية!

أقول لها:

– ماله نقل المنوفية بكونها عربيّة نقل كبيرة إنتِ عندك مشكلة مع المنوفية؟ ثمّ أُردف:

– طيّب سيبيه لأنّه أكيد مضطرّ يقف هنا، وكده كده هو قاعد جوّ العربية، لو حدّ احتاج الرانج أأقصد الرّامب هيطلع، روحي شوفي وراكي إيه وبطّلي دوشة!

تقف متردّدة وكأنّها تريد أن تقول شيئًا، ثمّ تتحرّك في اتّجاه باب الحجرة تكلّم نفسها، ثمّ تعود مرّة أخرى، وتقول:

- يا مدام، هو في حاجة كده حصلت دلوقت، وأنا عاوزة أجولهالك بسّ خايفة منك جوي!

أتركُ ما في يدي وأقول لها:

- اتفضّلي قولي، عملتِ إيه عــ الصّبح!

تفرك يدَها وتقول:

- طبْ يا مدام لبنى حلّفتك بسيدي أبو الريش ما تنزعجي وتسامحيني.

ثمّ تقول بصوت يكاد يكون همسًا:

- أنا مجدرتش أمسك نفسي من الضّيج، ودلجت على اللّي واجفين تحت ميّة، ودخلت بسرعة.

أقوم من مكاني وأنا أهزّ رأسي نافيةً ما قد سمعته منها، فأقول لنفسي:

- لا.. لا يمكن يا لبنى تكوني سمعتِ صحّ، قرّبي واسمعي منها يمكن تكوني سمعتِ حاجة غلط، لا يمكن تكون دلقت ميّة على الناس! أستفسرُ منها مرّة أخرى:

- إنتِ يا «هنية» دلقتِ ميّه على النّاس اللّي تحت؟ دلقتِ ميّه على السّواق؟!!

تهزّ رأسها بالموافقة، وتقول:

– كنت عاوزه أبرَّد ناري يا مدام، حرج دمّي الجدع المحروج ده!

أقتربُ منها وأقف أمامها أتفحّصها، وأنا لا أدري ما أنا فاعلة بها، وأشعر أنّ أحدهم قد هوى بمطرقةٍ كبيرة على رأسي، فتتراقص أمامي وحولي طيورٌ كثيرة، أراها تُخرج لي لسانها لتغيظني، أستردّ وعيي من هذا الشعور وأقول لها:

– دلقتِ ميّه على سواق العربيّة يا «هنية»؟! تفتكري مُمكن يعمل إيه دلوقتِ فيكِ وفينا؟!! وطبعًا «يوسف» مش موجود، وكمان البيه البوّاب في أيّ مكان في الدنيا، غير إنّه يكون قدّام العمارة، والأهمّ إنّه أكيد السّواق هيبهدلنا، وعنده حقّ! إيه رأيّ سيادتك دلوقتِ، تخيّلي معايا مُمكن يحصل إيه؟

تقول لي بثقةٍ وقوّة:

– لا.. لا متخافيش، هو مشفنيش والبوّاب موجود تحت واجف، اطمّني يا مدام، هيهيهي والميّه اندلجت عليه هو كمان، بسّ مش هيعرفوا مين اللّي دلجها! أصلي أنا جريت بسرعة! ميلحجوش يشوفوا مين اللّي دلج الميّه!

أصرخ فيها قائلة:

– إنتِ جنسك إيه؟ معجونة من ميّة عفاريت، هو في حدّ من العمارة ساكن في الجهة دي غيرنا! بتستهبلي يا بنت إنتِ!!

أُهدّدها بقسوة، ويخرج صوتي حادًّا غاضبًا:

– طيّب اسمعي، لو السّواق طلع ورنّ الجرس هسلّمك له، ويا ربّ يخلَّص عليكِ أو يخلّي البوليس ياخدك ويقبض عليكِ، ووقتها هارتاح من شَرِّك ونكدك ده! إنتِ إيه، حرام عليكِ، كلّ يوم أذيّة بشكل جديد!

تبكي وكأنّها طفلة صغيرة لتستعطفني وتقول:

– وحياة سيدي أبو الريش يا مدام ماتفتحيش الباب ومتدخّليهوش، والله يا مدام هابجى كويّسة، ومش هاعمل كده تاني، سامحيني! وتمسح عيونها بأطراف أصابعها، ثمّ تقول:

– وحياة سيدي أبو الريش، حلّفتك بيه يا مدام؛ متسلّمنيش للرّاجل.

أمسك بطرف «التي شيرت» الذي ترتديه، وأقول لها:

– كام مرّة أقولّك يا «هنية» متحلفيش بأبو الريش ده؟! متحلفيش غير بربّنا فاهمة واللّا لأ؟ وبعدين جايّة عاملة مظلومة وعاوزاني أزعّق للرّاجل، وأمسك فيه وانتِ بهدلْتيه بالميّه! عارفه يا «هنية» لو قرّبتِ منّي النّهارده هاروّحك البلد علشان تعبت منّك.

أقذف كلامي في وجهها، وأبتعدُ عنها لأعود إلى أريكتي ظنًّا منّي أنّها قد غادرتني! وما أنْ أجلس وأرفع رأسي، حتى أجدها

واقفة أمامي تنظر لي نظرة يملؤها الخبث، وتلمع عيونُها وهي تبتستم وتقول بحزم:

- خلاص يا مدام «لبنى» إتَّفجنا، والله حرّمت، آخر مرّة، بسّ متخلّيهوش يجبض عليّا، أجصد يسلّمني للبوليس.

وتفرك يدَها، وتعبيراتُ وجهها تدلّ على رضاها عن نفسها! فأقول لها وأنا أشتعل غيظًا من إصرارها على الكلام والنقاش:

- غوري من هنا يلّا حرقتِ دمّي، وأنا كنت قاعده في الهدوء والسّكينة حواليّا!

وكأنّني قد قلت تعويذة سحريّة، فأجدها فجأة بدلًا من مغادرتي تقترب منّي، ويكأنّها تحوَّلت لشخصٍ آخر، تتلفّت حولها، فبدا لي أنّها تبحث عن شيء ما، ثمّ تسألني مندهشةً وهي تحدق في وجهي:

- مدام، هي «سكينة» بنت خالتي كانت هنا؟ طيّب ليه أنا مشفتهاش، والله حرام عليكِ إنك متخلّينيش أشوفها! ده أنا ليّا ياما مشفتهاش، طيّب هي خلّفت واللّا لسّه معندهاش عيال؟ وسمْنِت واللّا لسّه نحْفانة؟ ثمّ ترفع صوتها:

- يا مدااااام إنتِ مش بتردّي عليّا ليه؟

أنظر إليها نظرةً خالية من أيّ تعبير، وأنشغل بأوراقي في محاولةٍ للسيطرة على انفعالاتي، كي لا أضطرّ لقذفها بكوبِ القهوة، وفي

أعماقي ألوم نفسي لأنني استقدمتُ هذه الكارثة لبيتي وتورّطت فيها.

تناديني مرّة أخرى:

– يا مدام...

فبدأت أسمع دقّات قلبي معلنةً أنّ ضغطي قد ارتفع بشدّة، فتردف وكأنّها جهاز إلكتروني خَرِب:

– يا مدام، هي سكينة فين؟ ما تردّي عليّا! ليه انتِ ساكتة كده؟ هو انتِ مش عارفه إنّي بتضايج من طريجتك دي! ليه مبتعبّرنيش؟ يا مدام طيّب هو انتِ مش هتزعّجي للسَّواج علشان جافل على الرانج؟

أفقد السيطرةَ على نفسي، وأشعر بغليانٍ في صدري، فأقذفها بالريموت فتتلقَّفه وتبعده عن صدرها، وهي تقول:

– ليه كده يا مدام، ده لو كان انكسرْ كان الأستاذ «يوسف» زعَّجلك.

ثمّ تقلبِ شفتيها، وتردف قائلةً وهي ترى على وجهي علامات نفادِ الصّبر:– خلاص هاغور أهو، أنا ماشية!

وتضع الرّيموت، وتنظر إليَّ بطرف عينيها مخافةَ أن أقذفها بشيء آخر، ثمّ تذهب مسرعةً تتلفَّت خلفها وهي تتمتم بكلماتٍ ساخطة لعدم ردّي على تساؤلاتها من جهة، ومن جهةٍ أخرى عدم استجابتي لمحاولات شحني واستفزازي كي أقوم بتكدير ذلك السّائق؛ لأنه

تطاول عليها، وقال لها:

- إمشي غوري إنتِ متعرفيش أنا مين!

ولم تكتفِ بما فعلته معه.

وفجأة يعتريني شعورٌ بعدم الراحة والقلق، فقرّرت اللحاق بها، فرأيتها متّجهةً إلى المطبخ وهي تبرطم، وخرجتُ أنا إلى الشرفة لأنظر آثار فعلتِها، فرأيت العمّال يحملون الصّالون الجديد الذي اشترته جارتنا، وهُم منهمكون في الحوارات، بعيدًا عمَّا اقترفته «هنية» في حقّهم، أحمدُ الله أنّ الموضوع (عدَّى على خير) وأعود إلى حجرة المعيشة مرّة أخرى آملةً في بعض الهدوء، أجلس على الأريكة ثمّ أسندُ ظهري إلى ظهرها، وأرفع قدمي على المنضدة أمامي، وأغمض عيني قليلًا، فقدْ نالني من تصرّفاتها توترًا شديدًا، ثمّ أتذكّر هَيْئَتَهَا وهي منفعلة ومتحمّسة بصورةٍ مبالَغ فيها، يساورني قلقٌ أنّ اليوم سيكون ممتلئًا بالمُشاغبات، طالما لم تصلْ «هنية» لمبتغاها، أو لأنّها قد قرّرت أن تجعله مختلفًا بتصرّفاتها الطائشة كالعادة! أغفو رُغمًا عنّي من فرط توتّري وكأنّ جهازي العصبي أراد أن يمنحني فسحةً من السكون.

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ الأوّل

الكتكوتُ الشركسي

استيقظت على صوتِ صرخاتٍ عالية تنمُّ عن آلامٍ شديدة، فجلست في مكاني فزعةً أنتفض، وكادَ قلبي يتوقّف من الخوف الذي اعتراني جرَّاء الاستيقاظ- فجأة- على هذا الصّوت المُخيف، لأوّل وهلةٍ لم أتبيَّن ما الذي يحدث؟ ومِن أين يأتي ذلك الصّراخ المدوّي؟ صدقًا لم أتعرَّف على صاحبه، رغم أنّه بدا لي أنّه صوتٌ معروفٌ، بيدَ أنّي كنت- ومازلت- أتخبَّط في ظلال النّوم، أحاول أن أخرجَ منها..

وما هي إلّا ثوانٍ معدودة، واشتعل الصّراخ مرّة أخرى، ولكنْ بصورة جنونية، وبشكلٍ مختلف عن الصّوت السّابق، فعرفتُ في الحال مصدره؛ إنّه آتٍ من الشّارع، ثمّ أدركت بعد قليلٍ مَنْ صاحبةُ ذلك الصّوت النائح؛ إنّها زوجة البواب، تساءلت في نفسي:

-لماذا تصرخ هكذا؟

ثمّ التقطت سريعًا ثوبَ الصّلاة، وخرجت إلى الشرفة، فرأيت جدّتي ملقاةً على الأرض، تبكي وتتأوَّه من شدّة الألم، ولكنّ صوتُها

ضعيفٌ جدًّا، لقد كان أنينُها يقطع نياطَ قلبي الْمُلتاع عليها، ووجدت حولها أبي وأمّي والبواب وزوجته! وبعضَ الجيران، والمارّة!

وضعت عليَّ ملابسي سريعًا، ثمّ هُرِعْتُ فزعةً إليها، لقد سقطتْ أمامَ باب العمارة؛ ذلك لأنّها لم تستطعِ النزول من على الرّصيف العالي، فزلّت قدمُها ووقعت، ورغم أنَّ أبي كان قد أقام منذ فترة مطلعًا خصيصًا للكراسي المتحرّكة ولكبار السّن، ولكنْ كالعادة قام أحدُ المغفّلين بوضع سيارته أمام المطلع، أو كما يُقال عليه «رامب» ولم يعبأ بكوْن هذا المكان مخصّصًا لبشرٍ لديهم ظروف خاصّة.

اشتعل قلبي غيظًا وأنا أرى «نونة» حبيبتي تبكي وتصرخ من الألم، حاولنا أنْ نهدّئها، ونهوِّن عليها أثناء انتظار سيارة الإسعاف التي جاءت بسرعة على غيرِ العادة! لكنّ الألم كان فوق احتمالها، وبعد أن تحرّكت سيارة الإسعاف بجدتي، صعدتُ إلى شقتنا، فانتعلت حِذاءً خفيفًا ثمّ أخذتُ حقيبة يدي واتّجهت إلى الباب مسرعةً كي ألحقَ بها، وفجأة تذكَّرت صاحبَ السيارة الذي تسبّب في إصابتها، فشعرت أنّني لن يهدأ لي بالٌ حتى آخذَ بثأري منه، وقرّرتُ ألّا يمرَّ هذا الموقف هكذا دون ردّ فعل يؤلم هذا الأحمقَ ألمًا لن ينساه، أحضرت (علبة إسبراي) ونزلت مسرعةً وقمتُ برشّ الزّجاج الأمامي والخلفي، وأيضًا الجانبي للسيّارة! ثمّ وقفت

بجوارها أنتظر صاحبَها أن يعود لأصبَّ عليه جامَ غضبي، لكن للأسف لم يأتِ، فتركتُ له ورقةً كتبت فيها:

- إنتَ عندك رجْلين تقدر تستخدمهم لو ركَنْت عربيتك بعيد، لكنْ غيرك ما يملكش وسيلة إلّا «الرامب» ده، إذا كرّرت الرّكن هنا تاني هاخلّي الإسبراي يبقى على كلّ عربيتك مش الإزاز بسّ!

***

وفي المشفى، آلمتني صورتُها وهي ترقد بلا حيلة، وقد جُهِّزَتْ للدخول إلى العمليّات، فهي ستخضع لجراحةٍ ستكون- مِن وجهة نظر الأطباء- خطيرةً في عمرها هذا، فسقوطها أحدثَ كسرًا بعظمة الفخذِ، ولا بدَّ من إجراء جراحة دقيقة وعاجلة، قضت جدّتي وقتًا طويلًا في حجرة العمليات، شعرت أنّه دهرٌ، وكاد الخوف عليها يفتكُ بعقلي، الذي لا يتصوّر أنّها قد ترحل عني ولا أراها مجددًا، جلست حزينةً مشوّشةَ الفكر والبال، فداهمتني ذكرياتي معها، وحوارتنا التي كانت لا تنتهي أبدًا، فيما يخصّ البشر والعلاقات الإنسانية، ورأيّها المميّز في الحياة بشكل عام.

لقد كانت جدّتي من المؤيّدين بشدّة لمقولة «الإنسان كائن اجتماعي بطبعه» وكنت من أشدّ النّاس رفضًا لهذه المقولة، فكانت تغضبُ منّي، وتقول لي بنفاد صبر:

– «الجنّة من غير ناس ما تنداس» إنتِ فاكرة نفسك من طينة غير طينة الخلق كلّهم؟! هتتعبي جدًّا في حياتك يا «لبنى» وافتكري كلامي ده.

فكنتُ أدافع عن وجهة نظري بهدوء، وأقول:

– يا تيتة، وأنا أضمن منين نوعيّة الناس اللّي مفروض الجنّة من غيرهم ما تنداس.

أخرج من ذكرياتي على صوت أمّي الحزين الباكي وهي تقول لي:

– «لبنى» حبيبتي، «نونة» خرجت من أوضة العمليّات خلاص، يلّا قومي.

مكثت جدتي في المشفى أسبوعيْن، وبمجرد أن نُقِلَتْ إلى حجرة عادية، أصررتُ أن أكونَ أنا المرافقةَ لها، ورفضت أنْ يبيت معها أحدٌ غيري، وكانت فرصةً من وجهة نظري لأطمئنّ عليها عن قرب، فأنا لنْ يهدأ لي بالٌ وهي بعيدة عني، ثمّ أيضًا إذا ما استيقظتْ أثناءَ الليل وشعرتْ هي بالزّهق وجدتْني بجوارها لنكمل أحاديثنا الشّيقة، التي لا أَمَلُّ منها أبدًا.

وبعد أنْ تعافت قليلًا، تركت المشفى وانتقلتْ إلى البيت، وأصبح من الصّعب عليها أن تتحرّك بسهولة أو دون مساعدة نتيجة الكسرِ الذي سبَّبَ لها صعوبةً في التنفّس، لوجود جلطاتٍ صغيرة،

تسافر من أوردة رجْلِها لشريان الرّئة، على حدّ قوْل الطبيب، فكنت أذهب إليها لأخفّفَ عنها وطأَةَ المرض، فنختلفُ كالعادة، ومن كثرة جدَالي معها كانت تقول لي بزهق:

- والله إنتِ أبوكِ وأمّك دلّعوكِ، وهتفضلي بسبب أفكارك الخايبة دي قاعدة لنا زيّ البيت الوقْف! نفسي أعرف إنتِ طالعة زيّ الكتكوت الشركسي كده ازّاي؟!

أسألها باندهاش:

-يعني إيه كتكوت شركسي؟

تقول لي بمنتهى اللامبالاة والهدوء:

- كتكوت منتوفِ الشّعر، ملوش هيئة ولا شكْل! ولمّا تشوفيه متعرفيش إلّا إنك تضحكي على منْظره! علشان كده دايمًا لوحده، بسّ إنتِ أمّك وأبوك ناس عشريّين، وبيحبّوا خلق الله كلّهم، إنتِ ازّاي كده؟! يا «لبنى» إفهمي، محدّش يعرف يعيش لوحده.

كانت مناوشات جدّتي أحيانًا تكون- دون قصدٍ منها- سببًا في إيغار صدْر أمّي (وهيّا والله مش مستحملاني أصلًا) وكان يحلو لي مشاغبتها بقولي:

- يا نونة، إنتِ أصلًا من أيّام «محمد علي» والي مصر المحروسة، ما لِك بقى بأيّامنا!

تنظرُ لي بقرفٍ وضيق وكأنّني ناموسة تسعى لقرصها، ثمّ تقول:

– لا يا حيلة مامتك وباباكِ، أنا من أيّام الفراعنة، يلّا انجرّي من هنا يا بنت، إمشي من قدّامي. ثمّ تكلّم نفسَها، ويبدو على ملامحها السّخط، وتشاور بغضب، ثم تشيح بوجهها بعيدًا عنّي وهى تقول:

– صحيح بنت مجنونة وهربانة من السّرايا الصّفرا، أنا مش عارفة همّا سايبينها عليّا كده ليه!

أقتربُ منها بحركةٍ تمثيلية وأحتضنها، ثمّ أداعبُ شعرَها القطني الأنيق، وأقول لها:

– طيّب يا نونة أنا أعمل إيه! إنتِ حبيبتي وروحي.

تقول لي بنبرات حنونة مميّزة:

– إنتِ اللّي حبيبتي. ثمّ تبتسم بخبثٍ لا تحترفُه، فيظهر في عيونِها الطيبة الحانية أنّها تردّ لي المجاملة السّابقة! ويفتر ثغرُها عن ابتسامة خاليةٍ من الأسنان؛ لأنّها غير راضية عن طقم الأسْنان الجديد، وترفض وضعَه في فمها؛ ذلك لأنّ البيه الدكتور– على حدّ وصفها– ميكانيكي معرفْش يعمل الطّقم كويّس! ثمّ تقول:

– خلاص أنا كده إتثبّت في مكاني! وأكلت من بكَشِك يا بنت أحلام.

فتنطلق منّي ضحكةٌ مجلجلة، تهزّ أركان حجرتها، وكأنّ ماردًا جبارًا خرج من القمقم، فتفزع منّي وتقوم بقرصي من ذراعي! فهي

لم تتوقّع ضحكتي الكوميدية المُرعبة هذه!

❋❋❋

نعمات هانم جدّتي لأمّي، سيدة رائعة ومميّزة، ولا نظيرَ لها في الدنيا- من وجهة نظري- لم تستطعِ الأمراضُ أو الشيخوخة، ولا تلك الحادثة اللعينة، أن تهزمها أو تحدَّ من قدْرتها على العطاء؛ ساخرة وكوميدية، حنون، معطاءة، مرحة، ومتهكمة أغلب الوقت على كلّ المحيطين بها! فهي صاحبة ردودٍ سريعة مثل الطلقات الأوتوماتيكية، وصوتٍ قويٍّ واضحٍ رغم سنّها الكبير.

مع مرور الأيام، حرصت على ألّا أزعجها كثيرًا، ولا أثيرها لأيّ سبب، فقد أصبحت هشّة لا تحتمل أيّ مشاغبات، حتى لو كانت مشاغبات لطيفة! وتمرّ الأيام والسنوات الجميلة التي قضتها جدّتي معنا سريعًا، ثمّ في يومٍ شديد القسوة على قلبي وقلب أمّي التي لأوّل مرّة أراها منهارةً تمامًا.. ترحلُ جدتي وتأخذ معها أسرارَنا الصغيرة، ومشاغباتِنا الممتعة، وحنانَها نادرَ الوجود! وبموتها فقدتُ أهمّ دعم، وأطيب حضنٍ كان دائمًا في انتظاري لأرتميَ فيه، وأحتميَ به من إخفاقات الحياة المتلاحقة، والتي لا تبرحني أبدًا.

❋❋❋

أفتح عيني فأنتبهُ أنّني قد ذهبتُ في رحلة قصيرة مع ذكرياتي

ولم أستطعِ النّوم رغم إغلاقي لعيني، وأنظرُ حولي فأجدُ قهوتي قد أصبحت دافئة، والأوراقَ والصّورَ بجواري كما هي، ممّا يؤكّد ظنّي أنّني لم أَنَمْ؛ بل استجلبتْ نفسي كلّ ذكرياتي مع جدّتي؛ فموقف «هنيّة» من صاحب السيارة النّقل، أثار ذاكرتي وأيقظ اشتياقي لها! لقد كانت معلّمتي دون أن تمسك العصا، صدقًا أحنّ إليها، خاصّة أنّ الضغوط من حولي تزداد بشكلٍ رهيب، أكاد أُجنَّ! (وأنا أصلًا أُعْتَبَرُ في المستوى الأخير للوصول إلى درجة الجنون، وعلى وشكِ اجتيازه بنجاحٍ ساحق لأصلَ إلى المورستان رأسًا).

***

الفصلُ الثّاني

بوز البرّاد

بعد الزّواج، طاردني وألحّ عليَّ هاجسُ البحث عن فكرة جديّة للحصول على حلّ يخفّف من توتّري، ولكنّه أيضًا يجب أن يتماشى مع شخصيتي غير الصّدامية أحيانًا، والسّلبية معظم الوقت؛ هربًا من المواجهة وتبعاتها، فقرّرت أن أستخدم نظريةً كنت قد عرفتُها من خلال بعض المُنتديات، كان أحدُ الأعضاء يتحدّث بسخريةٍ عن تلك النّظرية التي كان يستخدمها الحكام قديمًا في مساعدة الشعوب للتخلّص من همومهم، وفي الوقت نفسه يضمنوا بها عدمَ قيام شعوبهم بأيّ ردّ فعل يعرِّض الدّول لاضطراباتٍ قد يقوم بها هؤلاء المطحونون إذا ما ثاروا!

لقد أصبحت أقلّ قدرةً واحتمالًا لصعوبات الحياة، ومع استمرار الضغوط اليومية وعدم قدرتي على المواجهة، كي أتخلّص من همومي الجاثمة على صدري؛ تملّكني شعورٌ غريبٌ كأنّني قطة صغيرة سقطتْ بالخطأ في جُحر للفئران، فأصبحت مأسورة لديهم، وغصبًا عنها عجزتْ عن الخروج من هذا الجُحر، رغم كوْنها قطة،

ومن المنْطقي أن لا يرهبَها الفئران، لكنّهم أصحاب العدد الأكبر، (فالمثل يقول: الكثرة تغلبُ الشّجاعة)، فلن تستطيعَ أن تفعل شيئًا حيالَ هذا العدد، كما أنّها أيضًا لن تتمكّن من التّعايش معهم، بالإضافة لذلك، فأنا أشعرُ أنّ عائلتي بالنسبة لي هي جُحر الفئران!

ورغمَ أنّني أحيانًا أرى نفسي (خسارة فيهم)، وأنّ حياتي بدونهم ستكون الأفضل، ولو عادتْ بيَ الأيام لظللتُ دونَ زواج قولًا واحدًا، ورحمت نفسي ورحمتهم من هذه المعاناة، ولكنْ إحقاقًا للحقّ، (والكذب خيبة) أنا أحيانًا أنتقم لنفسي، وأفعل فيهم ما يفعله المفاعلُ النّووي الخَرِب في البشر الأبرياء! لذا وبسبب كلّ هذه المشاعر الثائرة داخلي كبركان هائج؛ كان- ولا بدَّ- عليَّ من القيام بعمل مُنتظم يخفّف من الضّغط المستمر، ولا يوجد أفضل من البوْح في حالة الشخصية التي لا تريدُ حلولًا قاطعة، فقط تريد بعض المسكنات لا غير.

***

ومع دخول الدّراسة، تتزايد المسئوليات، وتتفاقم المشاكل، فالمطلوب كثيرٌ وثقيل لأحملَه وحدي، ومع تقدّم العمر يكون الأمرُ أكثر تعقيدًا، لقد حاولت التملّص من الأعباء التي تُرهقني وتستنزف طاقاتي فلم أستطعْ فعلَ ذلك؛ دروس، وتمارين، وأطبّاء تخاطب،

وعلاقات اجتماعية مضطرّة لها، وصِلَة رحِم، لي ولزوجي، يا الله! كمْ هو مريع شعورُك بأنّك تسقط في حفرةٍ عميقة، ولا يوجد مَن يُخرجك منها! فلم يكنْ أمامي حلّ إلّا اللّجوء لقليلٍ من الفضفضة، ولكن مع مَن أفضفض؟ فأمّي لم تكن لتصدّق يومًا إحساسي بالظّلم أو الاضطهاد، وكانت دائمًا تقول لي:

- إنتِ يا «لبنى» دماغك فاضية؟! ليه العالم هيستقصدِك إنتِ بالتحديد، يا بنتي لسانك ده هو السّبب، يعني مبتحبّيش تتعاملي مع الناس ولا طايقاهم، وكمان مبيسْلموش من لسانك، كلّ كلامك من تحْت لتحت، يا شيخة هو انتِ فاكره الناس عبيطة؟ الناس فاهمة وبيضّايقوا منّك.

للأسف أكتشف أنّي وحيدة، فلا صديقة ولا زوج ولا ابنة تستمع إليَّ، ولكنْ سبحان مَن يرزقنا بغير حولٍ منّا ولا قوّة، لقد رزقت بصدِيق رائع يتقبّل كلّ كلامي ولا يعترض عليه، فيمنحني الرّاحة، ويترك لي مساحة أعبّر فيها عن نفسي وأقول كلّ شيء حتى لو كان مبالغًا فيه أو غير صحيح لأنّها وجهة نظري وحدي، صديقي دفتر يوميّاتي، فأنا أدوِّن فيه كلّ معاناتي وآرائي وتعليقاتي على الأحداث، وأكتب تفاصيلَ الأيام المميّزة؛ الصاخب منها والسعيد، حتى بالذكريات القديمة التي تقتحم رأسي في ذلك

اليوم أثناء الكتابة، أقوم بتدْوينها، والأيام الحزينة أو المُرَّة، وأضع لها أسماء، ولقد أطلقت اسمَ نظرية «بوز البرّاد» عليه.

ويكمنُ سرّ قوّة نظرية «بوز البرّاد»، أنّ الشّاكي سيظلّ يشكو دون أيّ تصرفٍ أو خطوةٍ لإصلاح ما يرفضه ويعاني منه، وبالتّأكيد هذه النّظرية تنفع كلّ زمان وكلّ مكان.

***

دفعني الحنينُ لأخرجَ دفتري، فأنا منذُ فترة لم أدوِّن فيه أي شيء، فقد جرفتني زحمةُ الحياة، فنسيت أنْ أسجّل ما حدث لي منذ فترةٍ طويلة، ولكن بعد أحداث أمس قرّرت أن أكتب تفاصيلَها والمواقفَ والحوارات التي قامت بيني وبين «أدهم» لتقصيره في الدّراسة، واستهتاره بمواعيد دروسه، وانفعاله الزّائد عن الحدّ في أي نقاشٍ يدور بيننا، وتجاوزه المهين، خاصّة بعد تدخّل صاحبة الحُسن والدّلال، السيّدة الأولى في جمهورية حياتي الزّوجية، والزوجة الفعليّة لـ«يوسف»- زوجي- وأمّه الحقيقية.

فقد قامت حماتي بزيارتنا زيارةً خاطفة، لكنّها عميقة الأثر! ناصرت «أدهم» وجعلتْه يخرج عن آداب التّعامل معي، وأيضًا تفضّلت عليَّ وأسعدتني برأيها (المتعجْرف) في هيئتي وفي بيتي وتنظيمي لحياتي، ومعاملتي السّيئة مع الشّغالة (والله ما هارُدّ)

ومعاملتي القميئة لزوجي وأولادي، لقد أوغرت صدري وقتَها لدرجة أنّني فكّرت أنْ أقوم بالتبليغ عنها بأنّها إرهابيّة لعلّي أتخلّص منها ومن شرّها، فنمتُ في تلك الليلة بعد رحيلها مقهورةً، خاصّة أنّ «يوسف» قال لي محاولًا تطييب خاطري:

– متزعليش منها، معلش يا «لبنى»، هي بتنصَحك؛ ما هي زيّ مامتك! مش كلّ حاجة تعملي منها موضوع.

وقتها راودتني الرّغبة بالردّ عليه «بسخافة» قائلة له:

– ماما مين، ماما في عينك، أنا أمّي ستّ السّتات، هو أمك دي حد يحتملها!

لكنّني ابتلعت لساني وسكتّ خوفًا من نفسي الغاضبة، ولأنّ «يوسف» اعتاد معاملة أمّي باحترام، فالتزمتُ الصّمت وأنا أشتعل غيظًا وغضبًا وقهرًا!

وبعد أن تركني «يوسف» وذهب إلى العمل، والأولاد كانوا نيامًا، قرّرت أن أستخرجَ دفتر يوميّاتي من مكمنِه القابع في «بلاكار» حجرتي، داخل كرتونة صغيرة مع بعض الصور القديمة لي وأنا في المدرسة، وأخرى في الجامعة، وصور الخطوبة والفرح، فأنا أضعُه بعيدًا عن أيدي أولادي الصّغار «بسنت» و»رمضان»، وحتي لا يعرف «يوسف» رأيي السّلبي فيمَن حولي فيهاجمني عندما يعجزُ

عن إيجاد حلولٍ لشكواي؛ فهو يراني مخلوقةً عصبيّة المزاج، ولكنه لا يدرك أنّه هو وأولاده وحماتي سببٌ في ذلك.

ناديت على «هنية»، فلم تسمعني، فناديت عليها بصوتٍ أعلى مرّة أخرى، فلم تستجبْ، ولمَّا يئستُ منها قرّرت أن أذهبَ أنا إليها! وفوْر أن خرجت من باب الحجرة كدتُ أصطدم بها، فتراجعتُ للخلف قليلًا وأنا أشعرُ بقليلٍ من الفزع، فلم أتوقّع رؤيتها وأنا التي ناديت عليها مرارًا وتكرارًا فلم تجبْني، أمّا هي فتسمَّرت في مكانها، وقالت لي بصوتٍ ملهوف:

- يا مدام هوّ حضرتك اللّي بتندهي، واللّا ده صوت جارتنا- الستّ أمّ فريدة- واصل لغاية عندنا؟!

وقبل أن أردّ عليها، تقتربُ من وجهي بطريقة كوميدية جعلتني أبتسم، وجعلت تتفحّصني بتركيزٍ مبالَغ فيه، ثمّ ابتعدتْ فجأة، وباغتتني بسؤال غريب:

- صحيح هو مال عينيك يا مدام، شكلها مضعضع كده؟

أردّ عليها بهدوء:

- مضعضع إيه! مآهي عينيَّ سليمة قدّامك أهي يا مهبولة!

تستمرّ في النظر إلى عيني وتقول:

- لا مش كويّسة يا مدام، هوّ تحتها أسمر كده ليه؟

ثمّ تضع أصبعَ يدِها على جبينها فيبدو عليها أنّها تفكّر بعمق، ثمّ تقوم بتضييق عينيها وهي تقول لي بصوتٍ مُنخفض يكاد يكون هامسًا:

- هوّ الأستاذ «يوسف» لا سمح الله مدّ إيدُه عليكِ!؟

ثمّ تستطرد، ودون أن تنتظر ردّي:

- وانتِ يا مدام ازّاي يعني تسكوتيله! هو يعني ينفع كده؟! وهو الروفيع الجوليل ده يغلبك كده وانتِ اللّي لا مؤاخذة يعني تفصّلي منه ييجي عشرة! إزّاي متعرفيش تتصرّفي معاه، يا عيب الشّوم يا ولاد! أهو ده اللّي ناجص!!

أضعُ يدي على فمها وأقول لها: - اخرسي! تعرفي تخرسي..

تنظر إليَّ بتحدٍّ وتقول:

- أخرس ازّاي! ده حدانا في البلد لو راجل عمل كِدِه الستّ تجتله!

فقلت لها وأنا أحاول أتحكّم في نفسي، وكي لا يتعكّر يومي فتكفيني ليلتي الماضية: - مدّ إيده على مين يا «هنيّة»؟! يا همّي التقيل ومراري؟!

تنظر في الأرض ولا تواجهني، فأُرْدِفُ قائلةً:

- ولّما انتِ عارفة إنّه قليّل، وإنّي أفصَّل منه ييجي عشرة! بتتكلّمي معايا بعبط كده ليه؟! مش خايفة إنّي أقوم أقعد عليكِ بالغلط مثلًا، مثلًا وأنا مش قاصدة، فأفرمك ويطلع لسانك من بؤّك ويدلدل، هاه؟! تحبّي أعمل فيكِ كده؟

وأتّجه ناحيتها فتتراجع للخلف، وأقول لها:

- ما تردّي ياللّي تنضربي في لسانك الطّويل ده! بلد مين اللّي الستّ لّما تنضرب تقتل جوزها، إنتِ يا بنت التلفزيون خرّب دماغك؟! هو انتُم عندكم ستّ تعرف تفتح بؤّها في جوزها! إنتِ هترسميهم عليًّا؟! بصّي.. أنا مش ناقصاكِ، وبعدين أمّ فريدة مين يا خبلانة اللّي هتنده عليكِ؟! هتعمل بخيبتك إيه؟

ثمّ أصرخ فيها قائلةً: - روحي هاتي السّلم من بلكونة المطبخ.

فترتجفُ من صراخي، ولكنّها تتغافل عن كلّ تعليقاتي السابقة، وتردّ عليّ فقط فيما يخصّ طلبي السلم، وتقول:

- يا مدام هوّ السّلم ده هيستحملك، أجصد يعني السّلم ضعيف، يووو أجصد يا مدام مُمكن تجعي من فوجه تنكسر رجبتك، مش جصدي.. أنا بهيمة سامحيني يا مدام، يعني مُمكن تجعي تتفشْفشي علشان انتِ لا مؤاخذة مجلبظة شويّتين، أجصد يعني، خلاص بلاش.

أستمعُ إلى كلامها المُندفع من فمها مثل المياه المتدفّقة من الصنبور الخَرِب، وأردّ عليها وأنا مُمسكةٌ بتلابيبها بعد أن جذبتها إليَّ، وقلت:

- يلّي تنكسر رقبتك، مين اللّي هيقع تنكسر رقبتها، روحي هاتي السّلم. ثمّ أقول لها بصوتٍ كلّه غيظ:

- وهوّ انتِ مش بتشوفي الفيل بيطلع على السّلم في السّيرك؟

هاه.. مش بتشوفيه؟! لمّا الفيل مُمكن يطلع على السّلم! أنا هيبقي صعب عليّا إنّي أطلعه؟ هو أنا قد الفيل؟!

تضحك وتقهقه، وكأنّي قلت لها نكتة، وتخبّئ وجهَها بين كفّيها، ثمّ ترفعه وتنظر إليَّ، ثمّ تضحك مرّة أخرى، وكلماتُها لا تكاد أحرفُها تبين من بين ضحكتها وهي تقول:

- يا مدام ميصحّش كده، ليه بتجولي على نفسك فيل، حضرتك مش بجابوظّة كده جَدّ الفيل، لا طبعًا يعني أجلّ شوية. ثمّ تضحك كالأطفال وتقهقه، وتضع يدَها على فمها، فجأة أشعرُ بحرارة الغضب تشتعلُ في جسدي، ثمّ ينتابني شعورٌ طفوليٌّ بالغيظ، لقد نالت منّي هذه الصغيرة فقلتُ لها:

- «هنية»، الفيل له فايدة أحْسن من السحليّة اللّي واقفة قدّامي، يلّا إجري بسرعة هاتي السّلم.

تتركني مسرعةً لإحضار السّلم وهي لا تتوقّف عن (البرطمة):

- إيه ده.. هوّ أنا عملتلها حاجة!!

ثمّ تعود حاملة السّلم وتضعه على الحائط، وتقول لي:

- السّلم أهو، حضرتك لسّه عاوزه ترْكبيه برضَك؟! عيدي التّفكير يا مدام.

ينتابني إحساسٌ أنّ هناك هجومًا كاسحًا من النّمل يقرص رأسي ويفرمها، ثمّ يتّجه إلى شراييني فينهشها! وأشعرُ برغبةٍ ملحّة في وضع رأسي تحت الماء، فأنا لم أنمْ جيدًا، وقلقةٌ على «أدهم»، وحماتي أهانَتني، وزوجي تابع الموقفَ كلّه في صمت كالعادة، وبتّ مُصابة بإحباطٍ وانكسار، ثمّ تأتي هذه المخبولة لتكمل عليَّ؟! أنظر بعيدًا عنها، وأحاول أن أتنفّس بهدوء، ثمّ أقول لها:

- أرْكبه؟ وأعيد التّفكير! سؤال بسيط، إنتِ جبتِ أعيد التفكير دي مِن فين؟!

تضحَك بملء فيها، وتقول لي:

- عادي يا مدام، هو العلام محصور عليكم يا مصراويّة؟ ثمّ ترفع رأسها بثقة، وتقول:

- شُفْتها في التلافزون في برنامج المسابجات بتاع الستّ نجلاء بدر اللّي بتيجي على جناة (الاه مي سي) واللّا استنّي يا مدام.. تجريبًا جناة (الحياء) مش فاكرة صراحة علشان مكنش جذّابة! هي واحدة منهم الاتنين.

أستمعُ للفصاحة والطّلاقة في الكلام وتحويلها لكلمة قناة إلى كلمة جناة و»الإم بي سي» إلى «الاه مي سي» وجذّابة بدلْ كذّابة، وكأنّها مترجم إلكتروني يقف أمامي بثقة!فتعتريني في لحظاتٍ رغبةٌ

عارمة للهروب من هذا البيت، فتلك الفتاة تأخذ نوباتجية تكْديري عندما يكون الأولاد خارجَ خدمة «التّكدير الأسري» سواء بالنوم أو بالدّراسة.

أحاول أن أتمالك، وأستغفرَ ربي، ثمّ أشيرُ إليها وقد تخلّصت من وسواس نفسي فيما يخصّها، وأقول لها:

– آه هارْكبه، وانتِ اللّي هتمسيكوهولي كمان. ثمّ صرختُ فيها مرّة أخرى، فانتفضتْ من صوتي كعصفورٍ سقط به عشّه الصغير، ثمّ هزّت رأسها بالإيجاب، ولكنّها لم تتحرك، فقلت لها:

– قرّبي.. واقفة بعيد ليه؟ يلّا تعالي هاتي السّلم وامْسكيه خلّيني أخلص وأنزّل الكرتونة من الدولاب.

تنظر إليَّ بلا مبالاة، ولا تتحرّك من مكانها، وتظلّ مُمسكة بالسّلم، فأكلّمها بصوتٍ يدلّ على أنّي أوشكت على الانفجار:

– إنتِ يا بنتْ هاتي السّلم، وتعالي إسْنديه علشان مقعش.

فتقول لي:

– بلاش انتِ يا مدام، أنا خايفة عليكِ، هاطلع أنا، أنا أخفّ منّك، أنا أنحف منّك بكتير، ومن ساعة ما جيت عندكم وأنا عمّالة انحف وبجيت ضعيفة! إنتم ليه مش بتخلّوني آكل كويّس يا مدام، دا حتى حرام عليكم الظّلم ده!

أردّ عليها ردًّا قاطعًا وقد فقدت أعصابي:

- نحفانة! وبجيتي ضعيفة، طيّب يلّا اخفي من قدّامي، امشي انجرّي من هنا، مش عاوزاكِ حتى تمسكي السّلم، يلّا امشي! يلّا، أنا جبت آخري خلاص، وطالما مش عاجبينك وناس ظالمين، امشي لمّي هدومك علشان هتروّحي حالًا، اجري هاتي التّليفون أنا هاكلّم طلعت ييجي يروّحك.

تصرخُ وتقفز في مكانها وتقول:

- كنت بهزّر معاكِ يا مدام، ده أنا بجيت عجلة، متزعليش من هزاري، يعني بشدّ طرف الكلام معاكِ زيّ ما انتِ ما بتجولي للأستاذ «يوسف».

أهزّ رأسي غير مصدّقة ما تقوله، وأكتم الضّحكة في نفسي، فقد بدّلت حالي بهذه الكلمة بعد أن أوشكت على قتْلها:

- بتشدّي طرف الكلام معايا! أفهم من كده إنّك تقصدي إنّك عاوزه تتجاذبي أطراف الحديث معايا؟ إنتِ عاوزه تتكلّمي معايا، هو انتِ بتسكتي خالص؟

تصرخ وتقفز في مكانها:

- أيوه يا مدام هوّ ده، تتجاسبي دي، بسّ خلّيها تشدّ أسهل علشان مش بعرف أجولها.

أجلسُ على أقرب مقعدٍ، وأضع رأسي بين يدي، ثمّ أقول لها:

- عاوزه ترغي معايا دلوقتِ يا «هنية» وتتجاذبي أطراف الحديث؟ يا «هنية» أنا مشْ عاوزه حاجة، أنا تعبت منّك، امشي من هنا، أنا هاقف وحدي، يلّا.

ترفض أنْ تتركني، ثمّ تضعُ لي السّلم على الدولاب وتقف تمصمص شفتيها وتتمتم: ربّنا يسترها، والمدام متنكسرش، ده البيت ياهوي يا ابا مُمكن يتهدّ من وجوعها؟!

أصرخُ فيها:

- اخْرجي برّا يا مخبولة، مش ناقصني روْشِتك دي، ابعِدي عنْ وشّي، أنا ما صدقت إنّ البيت هادي هتطلعيلي انتِ؟!

ترفض الانْصياع لأوامري، وتقف على مسافةٍ قريبة منّي، فأتجاهلها وأصعد على السّلم، فتأتي وتمسك به، فأشعرُ بخوفها عليَّ، وألمح اهتمامًا في قلقِ عيونها عليّ، فأبتسمُ في نفسي، ثمّ أحضر الكرتونة وأعطيها إليها، فتحملها وتبتعدُ عنّي تاركةً السّلم، فأقول لها ساخرةً منها:

- ها.. وقعت وانكسرتْ رجبتي! يا لمضة انتِ!

تضحكُ بطفولية، وتهزّ رأسها وتقول:

- الحمدُ لله يا مدام، عدّت على خير، بسّ يلَّا انزلي بجى أحسن الشّيطان شاطر.

أنزلُ مسرعة، وأقول لها وأنا أكادُ أفتك بها بسبب كلماتها التي تلقيها في وجهي كأنّها تتخلّص من نفايات تضايقها:

- الشّيطان شاطر ليه؟! هو أنا كنت بتصوّر بالمايوه؟ واللّا بشرب خمرة جوّه البلاكار، واللّا كنت بخبّي مخدرات في الدولاب! ولا يمكن ظبطّتيني وأنا واقفة آخد مع الدّولاب سيلفي من ورا جوزي؟!

ردّي يا بَلوة! يلّي خرّبتيلي يومي بغلاستك دي وجبتيلى صداع ودوخة!!

ترتبكُ وتحاول أن تداري حَرَجَها أمامي، أخيرًا شعرت أنّها تجاوزت حدّها معي، ثمّ تقول لي:

- خلاص يا مدام، أنا أجصد يعني إنّه يوزِّك تطلعي تاني وبعدين تنكبّي على وشّك، فخلاص معلهش خدي الكرتونة أهي، وأنا هاخد السّلم أودّيه المطبخ.

***

أخذتُ منها الكرتونة، ثم جلست على السرير، واستغرقني البحثُ في أوراقي، وجعلت أقلِّبُ فيها، فوجدت مواقفَ كثيرة مُزعجة، صحيح أنّ اجترارها مؤلم جدًّا، لكن في الوقت نفسِه القراءة تذكِرة، كي لا نكرّر أخطاءَنا مرّة أخرى، فقلَّبت في الدفتر، فوجدت أحداثًا كثيرة بطلتُها الرئيسية «حماتي»، ثمّ عاملة المنزل التي تأتي البيت وهي تظنّ نفسَها مفتش مُرسَل من وزارة الصحة،

أو وزارة التموين، وحارس العقار؛ ذلك الشّخص الذي يقف «يوسف» بيني وبينه حائلًا، ويقسم عليَّ ألّا أقترب منه خوفًا عليه مِن جنوني! و»حمايا» العزيز الذي يشاهد معاناتي صامتًا، والكثير والكثير، فتأكّدت أنّني كنت محقّة عندما قرّرت أن أستخدم دفتر «بوز البرّاد» لأدوِّنَ رسائلَ لن أرسلها لهم، فقط أُنفِّس عن ضيق صدري منهم، وقد يُكتب لي

(أن أرسلها لهم يومًا ما).

فتحتُ الدفتر، وبدأت القراءةَ، وتصفُّحَ ذكرياتي بشكلٍ سريع، ورأيتُ تاريخ آخر تدْوينة، ثمّ طلبت من «هنية» أن تتركني وتذهب لتقومَ بتنظيف المنزل، وأكّدت عليها ألّا تزعجني، فوافقت على مضَض، لكنّها لم تتحرّك قبل أن تسألني بفضول غريب:

– هوّ إيه اللّي في الصندوج ده يا مدام؟ عاوزاني أساعدك وأنجله في أوضة التّلافزون؟

– لا..

أردّ عليها وأشاور بيدي فقط، فتنصاع لإشاراتي، وكالعادة تبرطم بالكلام وهي في طريقِها خارج الحجرة! وتقول:

– يعني هو الصندوج هينجص منه حتّة لو نجلته لها، حاجة عجيبة! المدام ساعات بتعمل حاجات بجد عجيبة، هات الصبر يارب.

الفصلُ الثّالث

عماد حمدي

بعد أنْ غادرتني «هنية»، وضعت دفترَ يوميّاتي جانبًا، وبدأت أستخرج من الكرْتونة ألبومات الصّور. استفتحت بصور المدْرسة والجامعة، وصوري في العمل والرّحلات، ثمّ فجأة استوْقفتني صورةٌ كنت قد التَقَطتُهَا لأمّي في أحد الأماكن العامّة، والتي تقابلنا فيها مع أحدِ العرسان وأمّه، ولأنّ المكان كان ساحرًا، قمتُ بالتّصوير فيه، ولا أدري لماذا هذه الصّورة بالتحديد أعادت إليَّ مشاعري الغاضبة من الرّجال، ورغم أنّني الآن متزوجة وأحبّ زوجي جدًّا، ولديَّ أبناء أعشقهم، ولا أرى طعمًا للحياة بدونهم، لكنّني كنت- ومازلت- أحسدُ الرجال لكوْنهم رجالًا، لأنّهم يتمتّعون بحقوق لا أتمتّع بها، وفي أعماقِ أعماقي أرغبها وأتمنّاها بشدّة، على سبيل المثال لا الحصر؛ يستطيع الرّجل البقاء بلا زواج، ومن دون تقريع أو همْزٍ أو لمزٍ لكوْنه أصبح عانسًا لا يرغبه أحد!

(على مزاجه ده راجل)، هذه الجُملة كانت تتسبّب لي في مشاكلَ بيني وبين أهلي، وأيضًا يستطيع السّفر والعمل في أماكنَ بعيدة،

حرّيّة الاختيار لديه واسعة، (أيّام شبابي كانت الحياة غير الحياة الآن) ولأنّني عشت حياتي كلّها فتاة طبيعية- من وجهة نظري- لا أفكّر في الزواج، ولا أشعرُ بأهميّته، فلم يتملّكني يومًا إحساسٌ بالنقصِ أو أيّ شيء من هذا القبيل، ولم تَعْتَرِني تلك اللّهفة التي تظهرها بعضُ الفتيات للارتباط، ولم أكنْ من نوعيّة الفتيات التي تأكل الحسرةُ قلوبَهنّ إذا تزوّجت الأصغر والأقلّ منهنّ جَمالًا، (كلّ ده مليزمْنيش، أنا فرحانة بنفسي كده) فلا داعي لأتنازل عن حريّتي، حتى لو كنت «بنت مش راجل» كما كانت تخبرني أمّي، لقد كادت أمّي تجَنّ بسبب إعلاني أكثر من مرّة أنّني لن أتزوّج، وأصابها الهمُّ من هذا التّصريح، وأُصيبت بالتوتر والقلق، وأصبح زواجي هاجسًا لا يفارقها، لدرجة أنّها كانت تسأل المعارف الذين تعتبر علاقتنا معهم سطحية جدًّا، ولا يجوز الجهرُ أمامهم بهذا الوضع، لقد كانت نظراتهم تمزِّق كبريائي، فهُم يشفقون عليَّ من تأخّر زواجي، ولا يعرفون أنّني أرفض الزّواج نهائيًا، وأحيانًا كانت تهمسُ برغبتها في تزويجي للأصدقاء وبعض الغرباء إذا ما فُتحت سيرة تأخّر زواج البنات! حتى «أمّ سامح» بائعة الفراخ، سألتها لي عريسًا! لم أكنْ أدرك أنّ الموضوع أصبح مَرضيًّا، حتى كان اليوم الذي طلبت منّي أمّي أنْ أمرَّ على محلّ الدّواجن بعد الانتهاء من عملي لأحضر لها

الدّجاج الذي أوصتْ به «أمّ سامح» لغياب الصبي الذي يحضر الطّلبات إلى البيت، فمررتُ على «أمّ سامح» التي استقبلتني بحفاوة مبالَغ فيها، وقالت:

- أهلًا أهلًا بعروستنا.

تلفتُّ حولي أبحثُ عن عروستها هذه! لأنّه لا يوجد في المحلّ سواي، فابتسمت لها وأنا مُندهشة من اللّقب، وما ألبث أنْ أنتبه إلى أنّه لفظ يطلقه البُسطاء على البنات، فأقول لها: - أنا كويّسة الحمد لله، إنتِ كويّسة يا «أمّ سامح»؟

تقتربُ منّي ورائحة الدّم تفوح منها، فهي قد انتهتْ للتوّ من ذبح وتنظيف الدجاج الذي طلبته منها أمّي، تبتسم ابتسامة المنتصر وتقول لي:

- يا «لبنى» يا بنتي عندي ليكِ عريس لُقطة، نقاوة بسّ مش هينفع أحكيلك تفاصيل، أنا هاكلّم مامتك، أصل الكلام ده مينفعش نتكلّم فيه مع الصغار، بسّ انتِ قوليلها «أمّ سامح» هتتّصل بيكِ، علشان في عريس!

وقتَها لم تكن لديَّ رغبة أو هدف سوى الجري سريعًا، والقفز داخل ماكينة نتف الرّيش من فرْط خجلي، لعلّي أجد هناك ريشًا يغطّي احمرار وجهي، ويداري خجلي من تلك السّيدة البسيطة التي

تراني عانسًا! أحاول أن أتمالَك نفسي ثمّ أقول لها:

- بجدّ! عريس! الله يا «أمّ سامح» بقالي كتير محدّش جابلي عريس بريش ولا بفرْوة!

تنظر إليَّ المرأة باندهاشٍ لسخريتي، وتقول لي: ما لِك يا «لبنى» يا بنتي؟! ريش إيه! هو أنا بقولّك جايبلك ديك رومي؟!

أتراجعُ عن سخافتي، وأقول لها:

- بهزّر معاكِ يا «أمّ سامح»، حاضر، هابلّغ ماما...ثمّ أقوم بتغيير الحديث، وأسألها:

- هيّ الفراخ جهزت؟

فتناولني الأكياس وهي تنظر إليَّ بحنان وطيبة، أتركها وأذهبُ إلى نهاد أختي، لأستمتعَ باللّعب مع أبنائها، وأيضًا حتى تهدأ نفسي، التي لم أفلح في تهدئتها.

أعودُ إلى البيت وأنا أشعر أنّني قد شارفت على الجنون، وما أن أدخل من الباب إلّا وأجدُ أمّي غارقة في الضحك، وتقول لي:

- جالك عريس لقطة، متريِّش، هتربّيه على إيديكِ.

أسألها بتوجّس وزهق:

- مين ده إنْ شاء الله عريس الغفلة أبو الريش! ومين اللّي جابه المرّة دي؟

تنفجر هي وأبي في الضّحك؛ لأنّ العريس هو «سامح» الذي لم يتخطَّ العشرين، ومازال في المدرسة الصّناعية: أنا أتزوّج طفلًا؟! أنا «لبنى عامر» أتجوّز عيّل صغير لسّه بيكمّل تعليمه؟ إيه ده!

لم أشعرْ أنّ الموقف ضاحك، بل سخيفٌ ومزعج، كيف يخطرُ ببالها أنّني من المُمكن أنْ أتزوّج طفلًا مازال يتعلّم، ومستواه الاجتماعي مختلف؟! أعلمُ أنّ أبي وأمّي سيرفضان، لكنْ كيف خطر لـ«أمّ سامح» أنّي سأتزوّج من ابنها الصغير؟!

الزّواج تكامل وتكافؤ، ما هذا الهُراء! أخاصم أمّي وأتّهمها بأنّها تتسبّب في مهانتي باستعجالها زواجي.. وأطالبها بالكفّ عن البحث لي عن عريس، لقد كادت أمّي تُصاب بجلطة في القلب لخوْفها عليَّ من فكرة البَوار المؤكّد، فأنا من وجهة نظرها لم يَفُتْنِي القطار؛ بل فرَمَني، ولا أملَ في زواجي بسهولة (بسبب دماغي النّاشفة من جهة) وبسبب التبطّر على الرزق!

وهل الرّزق هو أن أتزوّج أيّ شخص لمجرّد أن أغيّر الحالة الاجتماعية في البطاقة من آنسة لمتزوّجة؟! هل البطر هو أنّي أرفض غير المناسب؟ (أي عريس لازم أوافق عليه) سواء كان أقصر منّي أو طول عمود النور، نحيفًا جدًّا أو سمينًا سمنة مُرعبة، أعزب أو أرمل! ولا مانع من المطلّق مع أو بدون أطفال! فمن وجهة نظر أمّي

رفضي يعني بطر، ولن أتزوّج لغضب ربّنا عليَّ!

لقد كنت أرفضُ الخُطَّابَ غريبي الأطوار من وجهة نظري، وهذا حقّي، لكن أمّي كانت تقول إنّ العيب فيَّ وليس فيهم! وإنّه لا يوجد غريب أطوار إلّا أنا!

أنا غريبة الأطوار؟! أنا التي ترتدي ملابسَ عتيقة، وأتكلّم بأسلوب قديم جدًّا لم أسمعه إلّا من خلال أفلام الأبيض والأسود، وكأنّ عماد حمدي خرج من أفلام الخمسينيّات، وتقدّم لي ليخطبني، فكنت أقول لأمّي:

- يا ماما ده فارق شعرُه تلت وتلتين، وبيتكلّم بمصطلحات مسمعتهاش من «نونة» نفسها، واخده بالك من «نونة»، وكمان بيشرب أعشاب، والشّاي بيخلّيه يسهر، أقول لها وأنا أكاد أجن:

- والله يا ماما لتحكمي بالحقّ! أتجوّزه ازّاي وانا أصلًا بحبّ السّهر، أنا بشرب والقهوة وبعدها على طول أدخل أنام، لا يمكن يا ماما، استحالة أوافق على الصّفات دي، لا يمكن.. فكان ردّها العادي والمتوقَّع:

- البَطْران عيشتُه قطران! خلّيكِ كده لمّا محدّش يبصّلك ولا يعبّرك!

وقتها كنت أصرخُ بغضب وأنا أشعر أنّ الدّماء كلّها قد تدفّقت، وقرّرت الخروجَ من شرايين وجهي من قوّة الغضب، وأقول لها:

- أنا يا ماما بطرانة ليه؟

أستعجبُ على حال أمّي وقتها فهي لم تحضرْ لي ظافر عابدين، ولا إياد نصّار، ولا ابن ملك الأردن وأنا رفضت، واللّا يمكن ابن رئيس الجمهورية مُعجب بجمالي وحُسني ودلالي وأنا قلت له آسفة، أرفض هذا الزّواج! أقول لها:

- بجدّ يا ماما كفاية، هتخرّجي الرّحمة اللّي جوّايا وأنا بحاول أوئدها.

في ذلك الوقت كانت جدّتي مازالت على قيْد الحياة، فردّت عليّ بتهكّم:

- توئيديها! يا ساتر يا «لبنى» إنتِ مش عارفة إنّ وأد البنات حرام.

أُقَلِّبُ نظري بين أمّي وجدّتي التي تبتسم بخبث، وأقول لها:

- «نونة»، إيه الكلام اللّي اندلق في وشّي دلوقتِ وكان لطيف قوي قوي، إيه السّكّر ده يا روحي، لا.. لا يا «نونة» بلاش كده علشان حاسّة إنّي بدأت أتحوّل لمجنونة رسمي وخايفة على نفسي!

وتشوِّح لي بيدها، ثمّ تدفن رأسَها في الكتاب الذي تقرؤه، وتتلو بعضَ السّطور بصوتٍ عالٍ، فأضحك من التّلقيح المستتر، ثمّ أعود لأمّي وأقول لها:

- أنا مش هاتجوّز أيّ حدّ وخلاص.

وأُرْدِفُ بقصّة أخرى لأدعمَ كلامي بأحداث حقيقيّة وليس بمجرّد كلام مرسَل والسّلام، قصّة الفتى النّحنوح الذي كاد يصيبني بهستيريّة ضحك في النادي، ولولا سترُ الله لكانت (جُرسة ومادّة تندُّر لعضواتِ النّادي اللطيفات) فأقول لأمّي:

– فاكره العريس ده لّما سألني هو انتِ بتعرفي تسوقي العربية وحدك مش بتخافي؟! عادي كده يعني! والله يا ماما وقتها قلت في نفسي وأنا مُبتسمة له برخامة:

– نعم يا حلوة يا كميلة إنتِ! ... وحدي! لا هاجيب الفريق القومي يسوق معايا!

إيه الرّاجل الغريب ده ما له لوسي كده في نفسُه! فينك يا «يوسف وهبي» تظبّطه! طيب يا ماما خليني انعش لك الذاكرة شوية، فاكرة كمان لّما قال لي مستغرب ومستعجب:

– إنتِ بتشتري حاجاتك لوحدك؟ واللّا لازم ينزل معاك حد من أصحابك أو مامتك؟! أصل أنا بحبّ ذوق ماما قوي، ولازم ننزل سوا من أيّام ما كنت بيبي صغيّور!

في سرّي كنت بقول:

– يا بيبي إنتِ so cute، وأحاول السيطرة على نفسي، والله يا ماما كانتْ مسيطرة عليّ فكرة إني أضربه واحدة خطّافية

أكسر له فكّه، وطبعًا كنت بردّ عليه وأنا هنفجر، وابتسامتي الرّخمة ماليه وشّي: –

فعلًا مينفعش تنزل وحدك، أصل مُمكن البيّاع يدّيك بضاعة مغشوشة يا حرام، ويضحك عليك!

اللّي كان غايظني يا ماما إنّه كان بيبتسم وبيهزّ راسه موافق على كلامي، وطبعًا أكيد أخدتِ بالِك إنّي كنت عمّاله أفرك علشان نمشي، وفاكره لمّا وشوشتك:

– يلّا يا ماما علشان ميصحّش نقعد أكتر من كده، وقت الرّضعة جهْ، والبيبي لازم يرضع، وربّنا يسترها وأمّه تكون معاها البيبرونة! معقوله بعد كل ده مصرّة يا أمي يا حبيبتي إني بطرانة! وربنا هيعاقبني؟

وأتذكّر أنّنا يومها عندما عدتُ للبيت كنت أصرخُ كالمجنونة وأقول لأمّي:

– يا ماما، إيه ننّوس عين مامته ده، نعمممممممم! ماما بتجيب الهدوم، ومستغرب إنّي بسوق العربيّة لوحدي، إيه إنْ شاء الله مشروع البنت اللّي ضلّت طريقها ده وراحت عالَم الرّجال!! يا ماما، أنا أرجل منّه!

وكأنّها أمامي تضحك ضحكتَها الرّائقة، أتذكّر أمّي وهي تخفي

وجهها بين يديها وتقول: – مش مُمكن، مش قادرة أصدّق...ثمّ تردف وهي تضحك بهستيريا لم أعتدْها من أمّي:

– اسكتي يا «لبنى» كان هيغمى عليَّ من كتر ما أنا كاتمة الضّحك، أصل كلّ شوية مامته تلعبْله في شعْره، وتمسح على إيده، وكأنّها بتطمّنه ما يخافش أو ما يتكسفش، هههههههه شكلها عرفتْ إنّك غوريلّا، وبتاكلي العرسان!

أصرخ وأقول لها:

– بتضحكي يا ماما، يا «أحلام» حرام عليكم، والله مايرضيش ربّنا اللّي بتجبيهم دول، أحكي كمان واللّا خلاص، يا ماما أنا مش غريبة الأطوار، ولا عجيبة، أنا بشوف أشكال ملعوبْ في جيناتها!

ثمّ أردف بحماس لإقناعها بوجهة نظري:

– طيّب فاكره الأفندي اللي عاوز يتعرّف عليَّ الأوّل وناخد على بعض، وبعدين لو ارْتحنا لبعض يجيب مامته البيت! عاوز يتصرمح معايا (دا إسمه نظام شقط)

أنا «لبنى» اللّي أصلًا شايفة إنّ الرجّالة ملهمش أيّ لازمة يقولي نتعرف الأول ونخرج مع بعض! يا ماما ارحميني، أنا هاموت مقهورة من العِلَل اللّي بشوفها.

بيدَ أنّ كلامي هذا لا يؤخَذ عندها مأخَذَ الجدّ، فهي تهدأ

قليلًا ثمّ تعود لممارسة الضّغوط، وكأنّ ما قلناه لم يُقَلْ، وأنا مازلت المخطئة المتبطّرة! أشكو إليك يا ربّ! ما ذنبي إذا لم أجدْ أحدًا من الخُطَّاب يناسبني، ويستطيع أن يقتحمَ عقلي وقلبي فيقنعني به زوجًا، لماذا تحاسبني أمّي على ذنب لم أقترفه، لماذا تنكر عليَّ حقي في الاختيار السليم؟!

ولكنْ بالصّدفة البحْتة حدث ما لم أتوقّعه! لقد اقتحم «يوسف» حياتي دون إذن منّي، وبمجرّد رؤيته انتابني إحساسٌ غريب بالارتياح، وهذا الإحساسُ أبدًا لم أشعرْ به تجاه أيّ خاطب رأيته، وبالتأكّد من هنا بدأ الغُلْب الحقيقي!

***

أسمعُ نقرًا على الباب، وقبل أن أردّ تدخل «هنية» مسرعةً تقول لي:

– يا مدام، هتطبخي إيه النهارده؟ لحمة واللّا فراخ علشان أنزّلهم يفكّوا من الدلاجة، على ما تنتهي من اللّي بتعمليه. ثمّ تُرْدِفُ بفضول سخيف:

– صحيح هو انتِ بتعملي إيه يا مدام؟

أضعُ ورقةً صغيرةً في الصّفحة التي وقفت عندها وأقول لها:

– مش هردّ عليكِ وملكيش دعوة باعمل إيه؟! هو انتِ جوزي يا بنتي علشان تسأليني بعمل إيه!

تبتسم بخجل وتقول:

- بصراحة يا مدام أنا عندي حاجة جوّا نفسي هتجنّن واعرف بتعملي إيه، اللّي هوّ ده اللّي بيسمّوه الفجول، أهو الفجول ده مخلّيني عاوزه أعرف بتعملي إيه؟!

يصلُ إلى مسامعي كلامٌ عجيبٌ، فقلتُ في نفسي علَّه يكون كلامًا هنديًّا أو باكستانيًّا، فهي لا تفارق التّلفاز، وكلّ يوم تأتي بلفظٍ أو بكلمة غريبة تسأل عن معناها، ثمّ أستفسرُ منها بهدوء:

- إيه البجول ده واللّا الفجول؟! أقصد البقول إيه! إنتِ جعانة واللّا إيه، أنا مش فاهمة بتحكي في إيه؟!

تتنحْنَح باعتدادٍ كأنّها تحاضر في مركزٍ للّغات، وتقول:

- هاجولك يا مدام، الحاجة اللّي بتخلّيكِ مش جادرة تجعدي في مكانك، وهتتجنّني علشان تعرفي إيه الحاجة اللّي حصلت دي واللّي جدّامك، زيّ حضرتك كده مش بيريّحك!

أنفجرُ في الضّحك، وأقول لها:

- أهاااااااا، الفضوووووووووول.

تهزّ رأسها بفخرٍ أنّها عرفت معنى كلمةٍ جديدة من كلماتنا نحن (المصراوية) على حدّ قولها... أتجاهل موضوعَ الفضول، حتى لا تسألني مرّة أخرى ماذا أفعل، فآخذها في اتجاه آخرَ للكلام، وأقول:

- «هنيّة»، هو انتِ عمرك طبختِ أو دخلتِ المطبخ غير علشان تساعديني؟ هل حصلْ وطلبت منّك مرّة إنّك تطبخي مكاني؟!

تضحك بخبث، وتقول:

- يا مدام أنا عندي17 سنة تجريبًا، وعلى وشّ جواز، لازم أتعلّم الطّبيخ، واللّا انتِ عاوزاني أروح لبيت جوزي وأنا خايبة؟!

أقول لها:

- أولًا إنتِ عندك 16 سنة مش 17، ثانيًا أوّل ما تتخطبي هاعلّمك الطبيخ، أمّا دلوقتِ إمشي انجرّي من هنا، ويلَّا من فضلك متدخليش عليّا تاني.

تردّ عليَّ سريعًا:

- طيّب يعني لو لا جــدَّرَ الله حتى لو حصلت مصيبة مدخلّكيش؟! عادي مجوليكيش؟

ألتقطُ ألبوم الصور وأقذفها به، فتتفاداه وتخرجُ سريعًا وتغلق الباب خلفها، أستغرب من تصرّفاتها الطفوليّة، ورغْيها غير العاديّ، وأحمد الله أنّ «بسنت» نائمة! فوجودُها و»هنيّة» يعني يوجد احتياج مُلِحّ لقوات مكافحة الشّغب، أتناول دفتر يوميّاتي، وأفتح على الجزء الخاصّ بزواجي من «يوسف» وأقرأ ما سطّرتُه فيه منذ سنوات.

***

تقدّم لي «يوسف» عن طريق صديقةٍ مشتركة مع أخته إيمان، وكان يعتبر زواج صالونات كما يقولون، ذهبتُ للمقابلة في بيت صديقتي، مع أخي محمد وشقيقتي نهاد، ويومَها أقسمتْ عليَّ أمّي ألّا أرتدي نظّارتي، وقالت لي: بلاش تلبسي النضّارة يا «لبنى» يا حبيبتي؛ علشان بتاكل نصّ وشّك، وبتخبّي عيونك الجميلة، وكمان مادام أخوك اللّي هيسوق يبقى خلاص خلّيكِ من غيرها؛ هتحتاجيها في إيه؟!

ولا أعلم كيف طاوعَني قلبي ولم أعارضْها؟! صحيح أنّ أخي هو مَن سيقود السّيارة، ولكن أنا.. أنا مَن سيقودني؟ وفي الميعاد بالدقيقة كنّا عند صديقتي، استقبلتْنا هي وأمّها ووالدها، ورحّبوا بنا، ثمّ لم نلبثْ إلّا قليلًا، حتى حضر «يوسف» وأختُه إيمان، وعندما وقع نظري عليه شعرتُ بارتياح وطمأنينة غريبة لم أشعرْ بها من قبل مع أيٍّ من الخُطّاب الذين أنهْكوني بمحاولة بلْعِهم، وتقبُّل شخصياتهم الغريبة، وكما كانت تقول جدّتي:

- لمّا ييجي النّصيب الواحد منّا بيعمى ويبقى أطرش وأخرس كمان!

لقد كان شرطُ حدوث القبول مقرونًا بحدوث إعاقة ثلاثيّة، إنّه لأمرٌ غريب، ولكن الحمدُ لله لم تصبْني هذه الإعاقة عندما وافقتُ على «يوسف»؛ بل كنتُ بكامل حواسّي، ولكن بعد الزواج أُصبْتُ بالعديد من العاهات! وأثناء اللّقاء لم أستطع أن أتبيّن ملامح «يوسف» جيدًا، بسبب ترْكي النّظارة في البيت (الحقيقة أنا أخدته بالشّبه كده) وبعد

انتهاء المقابلة قلتُ لأختي؛ وأنا أُمَنِّي نفسي أن يكون مثل فتى أحْلامي:

- صحيح يا نهاد هوّ العريس شبه «فلان»؟!

تضع يدَها على صدرها وهي تضحكُ من غرابة السؤال، وتقول:- لا طبعًا خالص. أُقاطعها: - خالص! يعني تقصدي إنّه مثلًا شبه «علّان»؟!

فتضحكُ منّي، فينتابني شعور بالنّدم لعدم تمكّني من رؤية العريس بوضوح، ثمّ أقول لها: - صحيح أنا إيه اللّي هيوصّلني لـ«علّان»! وبعدين بقى إيه الصّداع ده؟! أتمتمُ في نفسي وأقول:- إيه الحظّ العجيب ده، هو أنا شفت مين! ليكون «حسن الأسمر»!

ثمّ أُرْدِفُ:- عمومًا عندك حقّ، دا أنا كبيري يكون شبه عمّ رزق صاحب كشك الجرايد اللّي على أوّل الشارع.

تبتسمُ وتقول وهي تكاد تسقط أرضًا من ردّة فعْلي التي لم تتوقّعها:

- ليه بتقولي كده تصوري دا شبه «عادل مجدي» (واحد قريبنا).

لا أتمالك نفسي من الفرحة، وأصرخ قائلة:

- إنتِ بتقولي إيه! أبو عيون ملوّنة وشعر أصفر! هو العريس أمُّور كده! يا حلاوة أنا مش مصدّقة نفسي، ده أنا كنت بتمنّى عريس شبه أحمد مظهر مثلًا، وده مكنش فارس أحلامي، ده كان أحلامي كلّها، علشان أحلامي لا تجرؤ على أبعَدْ منّه! يا سلام يا نهاد! قلبي هيقف..

ثمّ فجأة أنتبهُ وأستدرك والدّهشةُ تغمرني، وأقول لها مستنكرةً:

- ودا أنا عجبته في إيه؟! أكيد مكنش لابس نضّارته هوّ كمان!

فتضحك نهاد وتقول: – ليه بتقولي كده على نفسك؟! والله إنتِ تستاهلي كلّ خير يا «لبنى»، وعمومًا يا ستّي العريس والله شيك وحليوة وهادي ورايق.

وفجأة وكأنّك أغلقت الأنوار كلَّها، تذهب عنّي نهاد وتنشغل بأبنائها وتتركني أحلِّق بعيدًا مع أفكاري، فأدخل غرفتي وأرقصُ من الفرحة، لقد كان معظم الخُطَّاب الذين رأيتُهم مزيجًا من أحمد زكي و«محمد رمضان»، وعندما يكون مميزًا بالطول فيكون شبه «علي ربيع»، أمّا وأنْ يكون شبه «براد بيت» فهذا هو المستحيل الخامس من وجهة نظري طبعًا! أنظرُ إلى نفسي في المرآة وأقول بصوت عالٍ:

– يا ناس في حدّ في الدنيا الواقع بتاعُه يكون أصلي، وأحلامه هي النيجاتيف

(عريس ألوان مش أبيض واسود، يعني عيال خواجات، يعني عيال إشي أشقر على إشي عيون عسليّة ومقطقطين)

من الآخر يعني زيّ عيال الإعلانات، اللّهم صلِّ على النّبي، يعني صبرتِ ونولتِ يا لبنى، سبحان الله! الحمد لله إنّ نفسي كانت مسدودة عن الجواز علشان أستنّى الحليوة ده، أيوه بقى، وهنافس أمريكا وفرنسا!

أرجو أنْ تطلقوا لخيالكم العَنان، لتتصوّروا كم كانت سعادتي بعريس (يعجبني وأرتاح له نفسيًّا وأيضًا وسيم)، لقد كدتُ أطير من السّعادة والفخر.

الفصلُ الرّابع

ترْترْ

بعد المقابلة التي تمّت في بيت صديقتي بأسبوع، حضرت لزيارتنا أسرة «يوسف»، وذلك لطلب يدي رسميًّا من أبي وأمّي، ولن أصفَ لكم كيف كانت المقابلة، فأنتم ستكتشفون كيف كانت، ولن أعبثَ بخيالكم وأفرض مفرداتي! لا.. بل سأترككم تُطلقون العَنان لخيالكم، وأثناء القراءة قد تعودون مرّة أخرى لهذه الفقرة لتتصوّروا كيف كان اللقاء! فتكشيرة أمّ «يوسف» كانت الشيء المميّز في اللقاء، تحدّد يوم قراءة الفاتحة والخطوبة بعد زيارة أسرة «يوسف» بأسبوعين، ويوم الخطوبة كانت ابتسامتي لا تفارق وجهي، لدرجة أنّ أمّي سحبتني من يدى وقادتني إلى حجرتها وهي تبتسمُ للحضور حتى لا يظهر لهم مدى قلقها، وبعد أن أغلقت بابَ الحجرة قالت لي:

– اقْفلي بؤّك يا «لبنى» شويّة، شكلك زيّ زينات صدقي اللّي ما صدّقت لاقت عريس، إتْقلي شويّة! فأبتسمُ أكثرَ رغمًا عنّي، وأحتضنها وأقول لها:

– ما انتِ عارفة إنّ الابتسامة دي عادة عندي ومش مقصودة والله، ومش بعملها وأنا واخدة بالي.

فما كان منها إلّا أن قالت:

– لّمي نفسك يا «لبنى» هتكسفينا، حماتك عمّالة تمصمص شفايفها وشكلها هتعمل زيّ الستّ بتاعة فيلم أمّ العروسة، الستّ قرّبت تطلّع دخان، وانتِ زيّ ما يكون عمرك ما جالك عريس.

ثمّ تقرصني من أنفي، وتقول:

– يا بنتي اهدي شويّة، ده أنا كنت بدأت أشكّ إنّك هتتجوّزي من كتر رفضك للعرْسان، والله العظيم متصوّرتش تبقى هبلة وخفيفة كده، فيكِ إيه يا بنتي هتفضحينا!

أقتربُ منها وأضعُ يدي على خصْرها، وأضمّها كأنّنا سنرقص، ثمّ أقول:

– ماما آه صحّ طبعًا عمري ما جالي عريس قمَر كده! يا لهْوي، أنا حاسّة إنّ زينات صدقي اللّي جوّايا عمّالة تكبر وخايفة أأقول ترْترْ.

تقبِّلني على خدّي وتزيح يدي عنْها برفق، ثمّ تبتسم وتقول:

– ترْترْ في عينيكِ، عمومًا انتبهي، أمّ يوسف مش سهلة، الحليوة ده معاه أمّ هتخلّيكِ تلفّي حوالين نفسك!

أهزّ كتفي بلا مبالاة، وأقول بثقة العارفين:

– مفيش حلاوة من غير نار، متقلقيش يا ماما على بنتك، أنا مروّضة وحوش. تتمتمُ في سرّها بالدّعاء، ونخرج من الحجرة فتذهب هي لتجلس بجوار عمّتي «وصوف» التي ترمي «يوسف» بنظراتٍ تنمّ على أنّه سقط في الاختبار، ولم يرُقْ لها! ثمّ تناديني فأقتربُ منها، فتقول بصوت هامس: – خمس دقايق وتعالي ورايا، عاوزاكِ ضروري، إوعي تطنّشيني.

أبتعدُ عن عمّتي، وأذهب لأقفَ بجوار نهاد التي تقبّلني وتقول لي:

– مبروك يا «لبنى» يا حبيبتي...ثمّ تتساءل باندهاش:

– صحيح يا «لبنى»، هو إنتِ ليه مش قاعدة في الكوشة إنتِ وعريسك، ما لكم عاملين زيّ اللّي في عيد ميلاد، وكلّ واحد منكم قاعد مع أصحابه.

أردّ عليها بصوتٍ كلّه فرحة:

– عادي يا نهاد، إنتِ هتتوقّعي منّي إيه غير كده، بسّ طبعًا طنط «سعاد» هتموت منّي، بسّ مش مُهم، المهمّ أنا بجدّ مبسوطة!

تدعو لي بالتوفيق، ثمّ تتركني لتلحق بصغيرها الذي يريد أنْ يأخذ شيئًا من يدِ ابن بكر، وهو أخو «يوسف». وما أنْ لَمَحْت عمّتي قد تحرّكت حتى لحقت بها فأدخلتني الشّرفة، وقالت لي: – إيه يا بنت يا «لبنى» العريس الإتِمْ ده! ما له دمّه تقيل كدا؟!

أحتضنها وأقول لها: - ما لُه يا عمّتو! مآهو قمر أهو، وبنُغَز في خدوده، حاجة تفتح النّفس على الجواز. تقلب شفايفها بضيق، وتقول:

- هوّ الجواز بالحلاوة، مش شايفة أمّه قاعدة زيّ الكبّة ازّاي؟! يا ستّار، واللّا حماكِ ده مبينطقْش يا بنتي، إنتِ هتتجوّزي من العيلة دي ازّاي!

فأغمزُ لها وأقول لها: - عادي يا عمّتو دي خطوبة..يعني وارد منكملش، كبري يا ست الكل...ثمّ أبتسم لها مشاغبةً إيّاها، فلا تردّ عليَّ الابتسامة أو حتى تتمنّى لي التوفيق، أضحك وأقول لها: - هنجرّب يمكن يطلع حلاوة وأخلاق.

وبعد أنْ هممتُ بالمغادرة، أتراجع وأعود لها فأقول بجدّية:

- يا عمّتو ادْعي لي بسّ، وآدينا هنشوف في فترة الخطوبة دي هنعمل فيها إيه! وفجأة أسمع صوتَ أبي ينادي:

- يا «لبنى»، إنتِ فين؟ إنتِ يا بنتي يا حبيبتي، تعالي.

أكلّم نفسي: - إيه الفضايح دي يا عمّ، إفرض كنت في الحمّام عادي يعني، ولازم تعرَّف الناس إنّي اختفيت!! ...أخرج وأنا أشعر بالحرج، وأقول له:

- أنا أهو يا بابا يا حبيبي، أصل عمّتو كانت عاوزاني، بتبارك لي على جنب!

فينظر لعمّتي ثمّ لي، ثمّ يبتسم ابتسامة أفهمُها، وعمّتي أيضًا تفهمها، ثمّ يرفع صوتَه مناديًا ويقول: - يا «يوسف» يا ابني إنتَ فين انتَ كمان؟ تعالوا بسّ خمس دقايق نلبّسكم الشبكة وانطلقوا تاني، وكلّ واحد يروح في الحتّة اللّي تعجبه.

ثمّ يكلّم حمايا مستنكرًا:

- أوّل مرّة أشوف عروسة وعريس مش قاعدين مع بعض يوم خطوبتهم! إيه الولاد دول! مكنش له لازمة نعمل كوشة!

يبتسم حمايا ويهزّ رأسه دون تعليق، فقد قامت حماتي بالتعليق نيابةً عنه وقالت:

- هيقعد على الكرسي وحده!! ما هي العروسة عمّالة تتنطّط!

فيبتسم أبي لي ولا يردّ على سخافاتها، ويرحل بعيدًا عنها، أمّا أنا فأصوّب لها نظراتٍ باردة، وأبتسم لها ببلاهة، ثمّ أذهب مع أبي.

***

استمرّت خطوبتنا حوالي خمسة أشهر، ولم نكن نستطيع الخروج أثناءها بمفردنا، فكان لا بدَّ أن يخرج معنا أيّ فردٍ من العائلتين، المهمّ ألّا نكون بمفردنا، لأنّنا لسنا عاقدين (مكتوب كتابنا)، وبالطبع لم يكنْ «يوسف» ليغفل عن كوْني أقوم بتوزيع ابتساماتي على كلّ مَن يقابلنا؛ من أوّل عامل المصعد، والجرسون؛ إلى الزبائن، فكان يعلّق قائلًا:

- يا «لبنى»، أنا عارف إنّك بشوشة ومبتسمة على طول، بسّ إنتِ كده خلّتيني أتأكّد إنّي خاطب مرشّحة في الانتخابات البرلمانية، إنتِ ليه ماشية تفرّقي ابتساماتك كده على الناس؟!

فكنت أبتسمُ ردًّا على كلامه، وأجيبه:

- مش عارفة يا «يوسف» والله، طول عمري كده، أنا بلاقي نفسي ببتسم في وشّ النّاس من غير ما أحسّ.

ثمّ فجأة تتقمّصني الشّريرة النّائمة في أعماقي، فأقول بسخرية تكسوها الجديّة، وبصورةٍ احترافية قدْ لا يَفْطن إليها «يوسف» لأنّه حديثُ عهْدٍ بي:

- «يوسف»، هو أنا محتاجة علاج؟ ليكون عندي مشكلة في العضلات، أو يمكن مُصابة بمرض التبسّم اللاإرادي!

وبصورةٍ مسرحيّة أُظْهِر الحزن وأنا أسأله: - واللّا إنتَ إيه رأيك؟

فيردّ عليَّ بهدوء متجاهلًا كلامي، أو- كما أظنّ- لم ينتبه لسخريتي اللاذعة:

- لا إنتِ محتاجة بسّ تمسكي نفسك شويّة علشان بؤّك المفتوح ده ممكن يجيبلك صداع ومشاكل مع النّاس؛ إنتِ في غنى عنها.

طبعًا أفرح بكلامه، وأشعر أنّه إمّا أنّه طيّب بشكل رائع ولم يفهمْني بعد، وإمّا أنّه يفهمني ويتجاوز عن سخافاتي، وهذا دليلٌ

على أنّ لديه القدرة على التعامل مع طبيعتي الغريبة عنه، وأنّه طويل البال وصبور! كنت أقول في نفسي بعد أي حوار يظهر فيه طيبة نفسه:

- ما أروعك يا «يوسف»! عيبك الوحيد (سعاد حماتي)، فهو لا يؤنّبني على تصرفاتي؛ بل كان يعاملني برفق، ويتحمّل جنوني بصبر، وطبعًا حسن خلقه هذا كان سببًا في أنّ حبّي له يزداد يومًا بعد يوم.

***

فترة الخطوبة وعقد القران من أجمل الفترات الرومانسية في حياة البنات، أمّا أنا فكانت كلها أحداثًا ومواقفَ كوميدية وساخرة، تنفعني حاليًا؛ فعندما أتعرّض لمواقف تضايقني، أفتح صندوقَ الذّكريات القابع في عقلي، وأجلس وحدي أتذكّرها، فتخرجني من ضيقي وزهقي إلى براحِ ذكريات باسمة، كلّها مرح وبراءة، وانطلاق.

ومن المواقف التي لا أنساها، عندما كنّا نجلس مع الأصدقاء أو المرافقين لنا في أيّ مكان عام، أو حتى في الزّيارات الأسرية؛ وتبدأ الحوارات في الاشتعال وتسخن النّقاشات، نندمج فيها، فيسرقني الوقت ما بين الردّ والتعليق والضحك، ثمّ أجدني انتهيتُ من قهوتي أسرع من المعتاد وهي ساخنة جدًّا، كدتُ أُجنّ

ولم ألبث طويلًا في حيرتي، حتى أمسكت «يوسف» بالجرْم

المشهود، وجدته يضع فنجانَ قهوتي بعد أنْ شربه، فقلت له:

- مسكتَك! إنت بقى اللّي بتخلَّص على قهوتي ونسكافيهي وحاجاتي، ومخلّيني هاتجنّن وأَلِفّ حوالين نفسي! وبدأت أشكّ في نفسي وأقول إنّي إتغيّرت ومزاجي اتحوّل!!

ثمّ بجديّة ساخرة قلت له: - لمّا يا «يوسف» نفسك في قهوة زيادة ما تطلب لنفسك قهوة دُبْل، واللّا قهوتي فيها ترياق! بجدّ أنا متغاظة منّك.

فينفجر ضاحكًا وتغرورق عينُه بالدموع، وجميعُ الجالسين، ويقول:

- الفكرة مش في القهوة، الفكرة إنّك إنتِ مش دريانة بنفسك، ده أنا بعمل كده من أوّل يوم اتْخطبنا فيه، وأنا بشرب نصّ كوبّيتك ولا انتِ هنا، وكلّ مرّة أقول هتاخد بالها أو تحسّ إنّ في حاجة غلط، هتنتبه! مفيش فايدة، طايرة في ملكوتك ومرفرفة بجناحات الرّوقان، مش معقول بالسّرعة دى حاجتك بتخلص! يا «لبنى» إنتِ حكاية فعلًا! أنا كلّ يوم أكتشف فيكِ ميزة جديدة.

وما أنْ ينتهي من كلامه، حتى أتذكّر شيئًا كنت أُضْمِرُه في نفسي منذ وقت، وهممت بالسّؤال، ثمّ سكتُّ خوفًا من سخريته، فقد أصبحتُ أضحوكةً بسبب عدم تركيزي، ثمّ يضغط عليَّ السؤال ويلحّ وأنا أنَحِّيه جانبًا، وبمجرّد أن نركب السيارة في طريق عودتنا حتى وجدتني أسأله بجديّة:

- «يوسف»، والله لتقول الحقّ، هو انتَ برضو اللّي كنت بتاكل الفشار بتاعي في السّينما؟! لأنّ الموضوع ده مجنّني ومش قادرة أقول عليه لحدّ! أصل مش معقول آكل الكمّية دي كلّها وأخرج جعانة وريقي مش ناشف!

يضحك لدرجة أنّه يوقف السيارة، فقد كان سؤالي جادًّا جدًّا، وبدا عليه الخطورة من نبراتي، فقال وهو يضحك والكلمات لا أستطيع استيضاحها من فرط الضحك:

- أيوه أنا يا «لبنى، أنا اللّي كنت بآكل الفشار ونصّ الشيكولاتة، بسّ انتِ مكنتيش واخدة بالك!

أنظرُ له بغضب إنسانٍ اكتشف- فجأة- غباءَه، ثمّ ما ألبثُ أنْ أنفجر في الضحك وأقول له: - والله يا «يوسف» هتندَم، خلّيك فاكر اليوم ده كويس؛ لأنّي أأكّدلك إنّك بعد الجواز هتقول حقّي برقبتي.

يضحكِ من ردّ فعْلي، ولا يعلق على كلامي، وقتها اكْتشفتُ أنّ «يوسف» متمسك بي من أجل (عرق العبط والدّهْولة) الظّاهر على تصرّفاتي (رغم إنّه غير حقيقي)، وحقيقة الأمر أنا مركّزة جدًّا، والدّليل شكواه منّي بعد الزواج (إني كابسة على مراوحه) على حدّ قوله، لكنْ بالتأكيد أحيانًا أفضل من ضغط الواقع.

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ الخامس

فراو سامحون

أُغلق الدّفتر، وأقومُ لأحضر ألبوم الصّور الذي قذفت به «هنية»، فأجد صورةً من صوَر (كتب الكتاب) كانت قد التقطتْ لنا أثناءَ عقد القران، لقد سقطت نتيجة قذفي لـ«هنية» بالألبوم، أنظرُ إليها بحنينٍ جارف، أراني فيها سعيدة وفرِحَة بشكل لم أتصوّره أنا نفسي، وقبل أن أستكمل تصفّح الصّور، يساورني هاجسٌ أنه هناك شيء؛ لعدم وجود أيّ مقاطعات من «هنية»، فأضع الألبوم وأفتح باب الحجرة بهدوء، فيصل إلى مسامعي صوتُ «هنية» وهي تغني ومنهمِكَة في العمل! فأخرج على أطراف أصابعي وأنظرُ لحجرة الأولاد فأجدُ «أدهم» و«رامي» و«بسنت» نائمين، لقد نامت «بسنت» على سرير «أدهم»، ونام هو على الأريكة، فهي أحيانًا كثيرة تطلبُ منهما أن تنام معهما، فيرقّ لها قلبُ «أدهم» ويدعها تنامُ على سريره.

ثمّ تقرع ذاكرتي المهمّة التي من أجلها أخرجتُ دفترَ ذكرياتي؛ فأتذكّر أنّني أريد أن أُدَوِّنَ أحداثَ أمس قبل أن أُصاب بفقدان جزئي لأحداثه، فأذهب مسرعةً إلى حجْرتي، وأجلس على الكرسي

المقابل لباب الحجرة، وبدلًا من تناول دفتر يومياتي للتّدوين فيه أعودُ لألبوم الصور أتصفّحه! فأرى صورة أبي وأمّي، والسعادة المرْسومة على وجهيْهما، والبسمةُ التي لم تفارقْهما طوال ذلك اليوم، وأيضًا أشاهد صورَ حماتي وهي مكفهرّة، وحمايا وهو لا يُبْدي أيّ تعبير، وحبيبتي إيمان وهي مُبتسمة، والفرحةُ تظهر في لَمْعةِ عينيها، ونهاد ومحمد أخي، حقًّا كان يومًا رائعًا مميّزًا، ليت السعادةَ التي كان يحظى بها ذلك اليوم تغمرُ باقي أيّام حياتي.

مرّة أخرى تأخذني الذّكريات، فأضع الألبوم جانبًا وأغمضُ عيني، فتنهمر علي تفاصيلُ ذلك اليوم؛ بل والأيّام التي سبقته، فتذكّرت أنّه في أحدها، وبعد مكالمة سريعةٍ من «يوسف» لأبي، لم أعرف محتواها إلّا عندما ناداني أبي، وقال:

– طبعًا يا «لبنى» إنتِ حبيبتي، إنتِ عارفه إنّك أقرب عيالي لقلبي! عاوز أقولّك إن اللّي بيربّي قطّة بتصعب عليه لو خرجت ومرجعتش، فما بالك ببنتك اللّي خلّلت عنده وقرّبت يا «لبنى»– يعني على رأي جدّتك– ريحتها تطلَع من الرّكنة ومن القعْدة... وتدمع عيناه من الضّحك وهو يرى تعبيراتِ وجهي نتيجة كلمة (ريحتك تطلع) فيقول لي:

– معلش يا «لبنى» يا بنتي القافية حكمت! وبصراحة تعبيرات

وشّك مخلّتنيش قادر أوقّف الكلام.

قلت له بذهول:

- بابا، إنتَ بتقولّي آسف بعد الوصف البليغ ده، والقافية حكمت؟ ليه كده! هو انتَ هتطردني من البيت، واللّا ناوي على نيّة وحشة من ناحيتي معرفهاش؟ ليه المقدّمة الغريبة دي يا ابو محمّد يا غالي! ماشي «خلّلت» عندكم في البيت مش مُعْترضة! بسّ هو علشان خلّلت ترميني برّا البيت!؟

ضحك حتى دمعت عيناه لأنّه ظنّ أنّني أتخيّل أنّه يريد طردي من البيت، رغم أنّني كنت أسخر من الطريقة التي تكلّم بها معي، قام من مكانه ثمّ احتضنني وقال:

- بصراحة حبّيت أهزّر معاكِ علشان الموضوع صعب على نفسي جدًّا، رغم إنّه يوم الهنَا إنّي أشوفك في بيت جوزك، خلّيني أقولّك..

أقاطعه وأقول:

- ما هو إنتَ بتقول يا حاج، هو أنا قلت حاجة، شكلك عايز تدّيهملي يا بابا النهارده، هات وأنا هاغمّض عنيًّا، النهارده شكله مش يومي، أنا قلبي حاسس من الصّبح إنّ اليوم ده جاي لي بضَهْره، مادام اصطبحتْ فيه بأمّ عزّت!

ينظر لي باستغراب ويقول:

- إيه يا بنتي الهرتَلَة دي، في إيه؟! اسمعيني... ثمّ يأخذني في حضنه، ويمسح شعري بيده وكأنّني قطة صغيرة، ويقول:

- أنا بجدّ ارْتحت لـ«يوسف»، وفعلًا بثقْ فيه، هو عاوز يكتب الكتاب في أقرب وقت!

ثمّ يدفعني برفقٍ عن حضنه ويجلس أمامي في انتظار ردّي! وعلى عكس ما كنت أفكّر أو أخطط وجدتُني أقول لأبي:

- موافقة. اللّي تشوفه يا بابا.

لقد كانت موافقتي مفاجأةً لنفسي أكثرَ من أبي الذي تبدَّل القلق لديه إلى راحة، وارْتسمت ابتسامة عريضة على وجْهه، لقد كان خائفًا من ردّ فعلي، ثمّ قام مرّة أخرى واحتضنني، وقال لي: - الحمدُ لله، بنتي حبيبتي عاقلة وراسية..

أنظرُ إليه ثمّ أتلفّت حولي متسائلةً:- مين دى اللّي راسية وعاقلة؟! وشعرت وقتَها بصدق المقولة:

(أبويا بيشتغلنِّي واللّا إيه)؟!

***

القِران عُقد في المسجد، وكانت السّعادة ترفرف فعليًّا على المكان وباديةً بصدق على وجوه الحضور (يظهر لأنّي كنت من وجهة نظرهم معصْلَجة شوية)، لقد كانت أكثر اللحظات امتلاءً بالمشاعر والرّهبة

والخوف؛ هي اللّحظة التي تكلّم فيها المأذون مع أبي و«يوسف»؛ لقد كانت- صدقًا- لحظة مؤثرة، تابعت الموجودين «أمّي» و«أخي» و«نهاد»؛ كانوا جميعهم متأثرين، ويبدو الانفعال على ملامحهم، إلّا أبي، لقد كان متماسكًا ولم يبكِ مثل كلّ الآباء في هذه اللّحظات، ولا حتى دمعت عيناه، لقد ساورني الشكّ أنّه قد يفعلها ويبكي، لكنْ في قرارة نفسي كنت أعلمُ أنّ قلقَه عليَّ ينهش صدرَه، وها هو قد أرسل ذلك القلق بعيدًا عنه بزواجي من «يوسف».

بمجرد أنِ انتهى المأذون من عقْد القران، وخطفْ المنديل- كالعادة- قامت الناس لتقبّل «يوسف» وتقبّلني، والأهل يتلقّون التهاني، وفجأة- وفي خِضَمّ هذه المشاعر الحارَّة والتّهاني والزغاريد- أجدُ أبي متّجهًا إليَّ يشق الجموعَ المهنئة حولي ومعه «يوسف»، ثمّ يأخذني من يدي لنتّخذ ثلاثتنا مكانًا بعيدًا عن الناس، ونظر أبي لي بحبّ، وعيونه تلمع بدموعٍ يحاول أن يداريها وهو يتكلّم بهدوءٍ ومرحٍ بادٍ على صوتِه، ثمّ وجَّه كلامه لـ«يوسف» قائلًا:

- اسمع يا «يوسف» يا ابني، «لبنى» دي بنتي حبيبتي، نور عنيًّا وأغلى أولادي. أشعرُ بالسّعادة تغمرني، وأقول في سرّي:

- أيوا بقى يا بابا، ورّيه وصايا الأبّهات التّقال قوي، ظبّطه يا «عامر» يا حبيبي، أحسن أنا خايفة يشوف نفسه عليّا...وأنتبه من

أفكاري على شكل «يوسف» وهو يتابع كلامَ أبي باهتمامٍ وقلق، فيُرْدِفُ أبي بتمهّل قائلًا:

- «لبنى» بنتي أمانة عندك، حافظْ عليها، وهتاخدها بضمان ستّ شهور، تقدر خلال المدّة دي ترجّعها في أيّ وقت، أمّا إذا مرّت الستّ شهور خلاص، مليش بنات عندك، إوعى تفكر ترجّعهالي، معرفكش وقتها! (إتْعامل بقى مع قسمتك ونصيبك)!

فيضحك «يوسف» من كلام أبي ويظنّه مُزحة، وأنا أبتسم كالبلهاء، وأريد أن أقول لأبي: - إيه يا عمّ الحاج! في حدّ يعمل كده في بنته... لكنّي أسكت وأشاركُ «يوسف» ضحكَه أنّها مُزحة، وأنا أعلم يقينًا أنّ هذا هو تفكيره!

(مش هيسمح بأيّ انفصال بينّا، ولا حتى قبل الستّ شهور)

فهو يرى أن الارْتباط شيء مقدّس، يحتاج منّا بذلًا ومجهودًا للحفاظ عِليه، وإن كان يبدو مزاحًا فإنّه يقصده تمامًا، رحم الله أبي الحبيب؛ فقد توفّي بعد زفافي ببضعة أشهر.

عدْنا جميعًا إلى بيت عائلتي حتى نحتفل بالمناسبة، فأمّي قامت بتجهيز وليمة تليق بالقِران؛ فهذا من وجهة نظرها أهمّ وأعقد وأصعب زواج بالنسبة لأولادها، ذلك لأنّها كانت تظنّ أنّه لن يحدث أبدًا!

وبعد ما تناولنا الطّعام وجلسنا فترةً مع الأهل والأصدقاء، فجأة قرّر «يوسف» أنْ نخرج بمفردنا، أنا وهو فقط! واستأذن أبي الذي قال له:

- ماشي يا «يوسف»، العدّاد بيعدّ من دلوقتِ، خلّي بالك.

قهقَه «يوسف» من مُزحة أبي، وأخـذني من يدي ونزلنا مسرعين، ودون أن يلتفتَ أو يستمع لنداء أمّه أو أخته، فقد قرّر أن نحتفل باقي اليوم وحدَنا، فكفى زحامًا و(عُزّالًا) على حدّ وصفه، والحقيقة- ومن وجهة نظري- كان وجودُ العُزّال شيئًا إيجابيًّا جدًّا، على الأقلّ كرامتي كانت مَصونة في وجودهم، فالحجّة لعدم الكلام الرّومانسي العاطفي في وجود الآخرين منطقيّة، وأنّ حياءَه يمنعه من مغازلتي، وهذا حقّه، فنحن كمخطوبين لا يصحّ أن يقول لي كلمة (تبلّ ريقي)، أمّا الآن فأنا وهو وحدنا، ومكتوب كتابنا، فكان الصمت يدلّ على أنّني- على رأي سعاد الممثلة مش سعاد حماتي- تزوّجت من أمين شرطة؛ الرّجل الغامض بسلامته (آه والله) «يوسف» كان ومازال لا يستطيع أن يقول كلمة غزل واحدة، (وما أشقى النّساء اللّاتي يفتقدن حلوَ كلامِ أزواجهنّ إذا ما بخلوا عليهنّ بأيْسر البذل)!

***

وصلنا إلى الفندق القريب من مطار القاهرة الدّولي، وكان الهواء خارج الفندق رائعًا، واعْترتني رغبةٌ في الجلوس في الحديقة أمام البهو لكنّي لم أجرؤ على البوْح لـ» يوسف « بما في نفسي، ثمّ دلفت إلى البَهْو متأبطةً ذراعه لأوّل مرّة، وإحساسٌ غريب يتملّكني، لا أعرف تصنيفًا له، لكنّي كنت (طايرة من الفرحة) وكان الجوّ رائعًا محمّلًا بروائح الياسمين، والموسيقى الناعمة تنساب من بين جنباتِ المكان الواسع المقام على مستويَيْن، وفضّلت أن نجلس قرب النافذة الكبيرة المطلّة على أشجار وأحواض زهور تبدو خياليّة، والإضاءة المتساقطة عليها من أعمدة النّور جعلها كأنّها مشهدٌ من فيلم أسطوري، ورغم أنّ المكان مكيّف، فإن رؤية الأشجار تتحرّك خلف الزجاج.. مَنَحني الإحساس بالتواجد هناك خارج البهو في الحديقة، ثمّ أشعر باسترخاءٍ ونشوة، وفرحة أذهلتني وكأنّني كنت أشتاق للارْتباط (وكنت مخبّيّة على نفسي) ولم يمرّ علينا وقتٌ طويلٌ حتى انضمّ للركن الذي نجلس فيه زوجان من الألمان.

ذهب «يوسف» لدوْرة المياه، فجلستُ أعبث بأشياء في حقيبتي لحين عودته، ثمّ رفعتُ رأسي أتفقّد الوجوه من حولي، فانتبهت إلى أنّ السيدة التي تجلس أمامي تبتسمُ لي بودّ، فبادلتها الابتسامة وندمتُ وقتَها أنّي لم أكن ملمّة بالألمانية، حتى أتمكّن مع التحدّث

إليها، وطبعًا مازال شعوري بالفرحة يسيطر على كلّ تصرفاتي، لدرجة أنْ تخيّلت أنّني حين أتبادل معها الابتسامات، سأقوم بعمل تنشيطٍ سياحي لبلدي! (إيه الأفْوَرة دي) أفورة أفورة فعلًا!!

بعد قليلٍ من تبادل الابتسامات أقبل عليَّ «يوسف» وهو متجهّم، ووجهُه يُنذر بغضبٍ شديد، ولا أعلم ما المشكلة التي قد تكون واجهتْه في دورة المياه، جلس بجواري وهو يقلّب نظره بيني وبين الجلوس، ثمّ ما لبثتُ أن وجدته يضغط على يدي، فنظرت له بحبّ، ولكنّ الضّغطة تحوّلت لضغطة انتقام، لدرجة أنها أصبحت موجِعَة جدًّا، ثمّ قال لي وهو يجزّ على أسنانه:

- إنتِ بتستعبطي يا «لبنى»! إنتِ فاكره اللّي قاعد جنبك ده شوال بطاطس، واللّا فردة شراب مقلوبة؟

أسحب يدي من شدّة الألم، فقد ضغط عليها (بقسوة وغلّ) وأنا التي ظننت أنّها مغازلة من زوجي، قبل أن تتحوّل لمصارعة حرّة، واندهشت من اختياراته، فقلت له:

- إشمعنى فردةْ شراب واحدة، وليه مش فردتين، وليه مقلوبة مش عِدْله؟! واخترت ليه البطاطس بدل من الكرنب؟!

وعندما قلت له هذا الكلام ازداد غيظًا واحمرَّ وجهه، وظلّ ينفخ، فسألته مستنكرةً غضبَه وعصبيتَه:

- في إيه يا «يوسف» ليه كده!! ده لسّه مكتوب كتابنا من كام ساعة، ملحقناش، بسرعة كده تقلب على الوشّ المحروق؟! في إيه حصلّك في الحمّام جاي تطلّعه عليّا، واللّا انتَ فاكر علشان مكتوب كتابنا وبقيت مراتك، بسرعة كده تقلب وعاوز تدبحْلي القطّة، على فكرة يا «يوسف» دبْح القطّة بيكون يوم الفرح مش يوم كتب الكتاب!

يردّ عليَّ بصوت مكتوم:- إنتِ مجنونة صحّ؟ أكيد مجنونة! اسكتِ شويّة عاوز أردّ علشان أوضّحلك وأفهّمك أنا عاوز إيه.

وفي الوقت نفسه الذي يشتعل فيه «يوسف» غضبًا، أستمرّ أنا في إرسال الابتسامات للسيّدة الأجنبية حتى لا تلاحظ مشاعرَ زوجي السلبية تجاهي، أو (يحصل عدْوَى للأجانب ويعاملوا ستّاتهم وحِش)، فأجد «يوسف» يستشيط أكثر ويقول لي:

- قومي يا «لبنى» مِن هنا، بدل ما تشوفي الوشّ المشنوق، إنتِ قاعدة تضحكِ للرّاجل ولا كأنّك قاعدة جنب جوزك، عيبْ إختشي، هو أنا مش مالي عينكِ؟!

أفتح فمي ذهولًا من كلام زوجي، وأنقل بصري بينه وبين السيّدة التي يقول إنّها رجل، فأجدها سيدةً لطيفة تجلس بجوار زوجها هادئة مستكينة، وكلّ مأخذي عليها، هو تدخينها المُفرط للسجائر الذي أصابني بالاخْتناق، غير ذلك لا يوجد شيء غريب؛

بل كانت تبدو في هيئةٍ رائعة وبسيطة، تعقصُ شعرها على هيئة ذيل حصانٍ طويل، وترتدي بنطالًا من الجينز (المهلهل) وقميصًا بلون الفيروز، وابتسامتها ساحرة تأسرُ القلوب..

كيف لـ«يوسف» أن يتّهمني بأنني أتبادل الابتساماتِ مع رجل؟! أردّ على اتهاماته مستنكرةً: - فين الرّاجل ده يا «يوسف» فين.. هاه؟!! أنا ضحكت للسّت، مش لجوزها، وبعدين زيّ ما انتَ شايف كده هي عمّالة تضحك لي وأنا بضحك لها، يعني مهوّبْتش ناحية جوزها، إنتَ ازّاي مش واخد بالك؟!!

يسألني غاضبًا: - «لبنى» فين النضّارة؟!

أقول له أثناء إخراجي لها من الحقيبة: - في الشنطة، ما انتَ عارف أنا مبلبسْهاش لو مش هاسوق، ومادام إنتَ معايا يبقى طبيعي مش هاسوق! عاوز النضّارة ليه؟

ثمّ بسخرية منه أقول له وأنا أضعُها على عيني: - اتفضّل آديني لبِسْتها.. في إيه، هاه.. في إيه؟!

ثمّ أكتشفُ الكارثة، وأقول في سرّي:

- يا ليلة سودة ومنيّلة، المخفي طلع راجل، وكمان عنده دقن بسّ شقرا، يا خيبتي وأنا مشفتهاش علشان قالعة النّضارة، واللّي ينضرب في قلبه مش عاوز يبطّل يبتسم لي، يا غلبِك يا «لبنى»،

واضح إنّك النهارده هتتطلّقي، وهيكون أسرع جواز وطلاق! يا خبر ابيض! دول الاتْنين رجّالة!

أفاجئ «يوسف» وأرفع صوتي صارخة:

– آه، آه.. مغص جامد، إلْحقني يا «يوسف» عاوزه أروّح مش قادرة، مغص هيفرتِك بطني.

فيفزع «يوسف» ويسندني حتى أغادر، فأنا لم أجدْ إلّا هذه الحيلة حتى أشتّت فكرَه بعيدًا عن هذا الموْقف، الذي أعتبره من أسوأ المواقف التي تعرّضت لها مع زوجي. مرّت هذه الواقعة بفضل الله، ثمّ ادّعائي التّعب، ولكنّي أظنّ أنه لم ينسها أبدًا.

***

كانت فترة عقد القران أكثرَ حريّة وحركة، وتمتلئ بالمواقف اللطيفة، وأيضًا الغريبة والمُزعجة (طالما ذكرنا إزعاجًا؛ سيكون فيها روح روحي سعاد)! وقد تعرّضتُ فيها لبعض المواقف التي لم أنْسها أبدًا، وأعتقدُ لم ينسها «يوسف» بدوْره، على سبيل المثال- لا الحصر- فلا يوجد حصر في حياتي، أوّل يوم ذهبت فيه إلى بيت حماتي بعد عقد القران، ذلك اليوم الذي تنتظره كلّ فتاة لترى وضعها ومكانتَها عند أهل خطيبها، ذهبت وأنا أكاد أموت خجلًا، فوجدت حماتي قد أقامت وليمةً بمعنى الكلمة! فقلت في نفسي:

- يا سلام أيوه بقى، هو انتِ بتحبّيني يا سعاد ومش عاوزه تظْهري (التّقل صنعة يا سوسو)، وليه بسّ!؟ ده أنا مرات ابنك بسّ ارضي عنّي.

في أعماقي سعدت باحتفائها، وما أنْ جلسنا حتى نادت حماتي علينا، وقالت: يلَّا يا «يوسف» يا حبيبى هاتْ عروستك وتعالوا يلّا علشان الغداء جاهز.

وجلست بجوار «يوسف» سعيدة بهذا الاهتمام غير المتوقّع من حماتي، وبدأ الكلّ في تناول الطّعام، لكنّي لم أستطع أن أتناول صحنًا لوضع الطعام فيه لنفسي، فقد كنتُ أشعر بالخجل لدرجة أنّني اندهشت من نفسي! فوجدت «يوسف» يتناول طبقًا ليضعَ لي فيه الطعام، فهو يعلم أنّي- كعروسة جديدة على أسرته- سأخجل أكيد من وضع طعامٍ لنفسي، فقلت في سرّي:

- أيوا كده يا «يوسف» يا حبيبي، أحسن مراتك مكسوفة قوي، ربّنا يخلّيك ليّا، حطّ إنتَ الأكل، ده أنا ميّتة من الجوع.

فتابعته وهو يضعُ لحومًا، وأرزًا، وسلطة، أرفع يدي لعلّه ينتبه لحركتي؛ فأنا أريده أنْ ينظر إليَّ حتى أقول له ماذا أريد، فكنت أكلّم نفسي وأفعل ما يفعله المعلّق الرّياضي حين يوجّه اللاعبين وهُم لا يسمعونه:

- يا «يوسف»، بلاش رزّ وحطّ مكرونة، بلاش سلطة يا عمّ.. عاوزه مخلّل، حاجة حِرْشة أبلّع بيها نظرات سعاد ليّا! ده أنا هاموت مخنوقة بالأكل قبل ما أبلعه! ويستمرّ في وضع أصنافٍ لا أحبّها؛ فأبرّر لنفسي:

- معلش يا «لبنى»، أكيد مش عارف نفسك في إيه، كلي دلوقتِ أي حاجة.

ولأنّني طبعًا عروس أشعر بالخجل، وأنتظر عريسي أن يضع لي الأكل في طبقي ويقدّمه لي، لا أرفع عيني عن يدي المعقودة على حجري منتظرةً من «يوسف» أن يضعَ الطبق.. ثمّ يبتسم لي ويقول.. اتفضّلي بالهنا والشفا!

انتظرت أن يفعل هذا ويبدأ في تجهيز صحنٍ آخر له، لكنّه للأسف لم يفعل هذا أبدًا.. أبدًااااا، وبدلًا من أن يضعَ الطبق أمامي، وضع وجهَه فيه وبدأ في تناول طعامه، وكأنّ مَن يجلس بجواره بالونة صغيرة من الهيليوم لا يشعر بها؟!

تلمح إيمان أختُه احمرارَ وجهي، فتحرصُ على إخراجي من وضعي السّخيف هذا، وتهزّ رأسها إليَّ تطمئنني وتقول لـ«يوسف»: إيه ده Honey، ما تعزم على your fiancé في إيه؟! نازل أكل وسايبها، مش دي برضو خطيبتك، عيب يا dear عيب قوي.

فيعطيني صحنًا، ويشير لي أنْ أملأه بنفسي، ولا يرفع وجهه عن طبقه!

هنا، يأتي صوت حماتي قاطعًا صمتَ خجلي وهمسَ أنفاسي المتهدّج بفعل الموقف العصيب، وهي تقول لابنتها:

- في إيه يا إيمان؟! هي «لبنى» غريبة؟! ما تاخد وتاكل هي، ويعني همّا لمّا كانوا مخطوبين وبيروحوا أفراح أو بياخدها يعشّيها في الفنادق مش بيبقى الأكل أوبن بوفيه!!

تخترق كلمة «بيعشّيها» أذني، وأرفع رأسي بكبرياء، وأنظر إليها وأنا أريدُ أن أقول لها:

- يعشّي مين يا ستّ الحاجة، ده أنا لبنى بنت عامر عبد الله، ده أنا أعشّي شارعكم كلّه، ولولا الأدب كنت ردّيت عليكِ، بسّ إلهي يا سعاد تروحي الهند وتتوهي هناك ومحدّش يلاقيكِ، إنتِ من أوّلها بادية بالوشّ الخشب!

تستغرقني أوهام الردّ عليها، وأنتبه على باقي السيمفونية السعادية:

- خلاص تعتبر نفسها في فرح!

الحقيقة إنّ حماتي لا تترك مناسبة إلّا وتتفنّن في الكيل لي، وفي الوقت نفسه تتكلّم عنّي وأنا أمام ناظريها بصفةِ الغائب، لديها قدرة غريبة على تجاهلي، فبدلًا من أن توجّه هذا الكلام لي توجّهه لإيمان على أساس أنّي لا أجلس على المائدة نفسها أمامَها مباشرة، وأنّي تبخّرت!

فتردّ عليها إيمان مستنكرة أسلوبَها الفظّ، والذي كشف ما تحمله تجاهي في أوّل مقابلةٍ بعد القران:

- ماما، إيه اللّي بتقوليه ده؟! ليه كده! بلاش قسوة في الكلام يا honey.

وتأخذ طبقًا، وتضع لي من كلّ الأصناف، فأشكرُها على ذوقها وأنا أكاد أقولُ لها:

- هاتي إيدك ابوسها يا هني ويا دير، وبكل كلمات الإنجلش اللّي ناطرة على لسانك زيّ الطّفح الجلدي ده، إنتِ أنقذتينى يا إيمان!

أمّا سعاد، سعاد حبيبتي فتقول بغيظ:

- يعني ما انتِ حطّيتِ لها الأكل، لازمته إيه تكسفي أخوك، هاه!!

فلا تنظر إيمان لها ولا تردّ على تعليقها، وتتابع وضع باقي الأصناف في صحني، أمّا عريسي الحليوة، فيشير إليها بيده، ومازال وجهه في الطّبق إشارة معناها، (مفيش حاجة سيبوني أكمّل أكل)!

وبمجرّد أن تناولني إيمان صحني لأضعه أمامي، أقتربُ من أُذُن «يوسف» وأقول له:

- هو انتَ كنت بتملى الطبق علشانك؟!

ثمّ بصوت رفيع مثل صوت العِرْسة المحشورة في كاوتش العربية أقول:

- وأنا طبعًا إنسَى يا عمرو، ليه كده تكسفني قدّام مامتك يا

«يوسف»؟ آلْ إيه عريسي منفّض لي وبياكل هوّ مِن غير ما يبصّلي، أو يعمل زيّ بتوع الأفلام ويحطّ الأكل في بؤّي! دا ولا كأنّه عازم واحد صاحبه مش عروسته اللّي لسّه مكتوب كتابهم!

ثمّ ينظر إليَّ نظرة استغراب ويقول لي:

- في إيه يا «لبنى»، هو انتِ غريبة، مش هتعرفي تمدّي إيدكِ؟ ما تاكلي وحدك.

أضغط على أسناني وأنتبهُ إلى أنّ الجلوس يتابعوننا بطرفٍ خفي، فأبتسم مثل البَلهاء، ثمّ فجأة أجده وكأنّ قلبه رقَّ لحالي، أو شَعَر (إنّي شكلي بقى وحِش) فقرّر أن يهتمّ بي، وأن يضع في طبقي طعامًا، فرحت، وقلت لنفسي: (أخيرًا حسّ بيّا وعرف إنّه طنّشني وخلّى رقبتي زيّ السّمسمة)، وجدته يقول بمنتهى الهدوء والثّبات:

- خدي يا «لبنى»، أنا مبحبّش الصّنف ده من اللّحوم، أصله بيوجعلي بطِني!!

ودونَ شعور قلت له:

- نعم! إيه ده يا «يوسف»! إيه ده يا محترم؟ ده اللّي قدرت عليه؟ طيب حطّه في الطّبق، ووشوشني! خلّي النّاس تفتكر إنّك مش عازم مسعد المكوجي بتاعكم علشان صعبان عليك، ظبَّط منظري اللّي خرب عندكم النهارده.

شعرت أنّ أعصابي كادت تفلت منّي، فهمست وقلت له:

- مش كفاية مامتك يا «يوسف» نازلة تلقيح عليّا، كمان بتدّيني بواقي أكلك!

نظر إليَّ باستغراب وقال لي:

- هو في إيه يا لبنى، والله ما بواقي أكل، ده أكل ملمسْتهوش لإنّي مش بحبّه!

ثمّ يقرّر أن يقوم ليدخّن سيجارة، فهو قد أنهى طعامه، (وأنا لسّه هاقول بسم الله) وما أنْ يحاول الوقوف، أضربُ بكعب حذائي مقدّمة حذائه فيقفز في مكانه من شدّة الألم،

فتنظر له أمّه باستغراب! فيقول لها: - رجلي اتلوتْ يا ماما لمّا جيت أقوم.

تنقل نظرَها بيني وبينه، ثمّ تلوي شفتيها وهي تبدي عدمَ تصديق وقرفًا، كاد يجعلني أظنّ أنّ هناك رائحة عفنة في المكان، ثمّ تقوم وتتركنا نحن وإيمان وزوجها، أمّا حمايا فيلحق بها ويقول لي وهو مغادرنا:

- ألف هنا يا بنتي، بيتك ومطرحك!

أرسل نظري خلف حماتي حتى أتأكّد أنّها لن تعود مرّة أخرى، فيقول لي وهو مندهش: هو انتِ مش بتاكلي ليه؟

«اللّهم صلِّ على النبي! أخيرًا أخدْ باله» فلم أتمالك نفسي

وأصابني ضحك هستيري أنا وإيمان وكلّ الموجودين! وقلت له:

- يا «يوسف»، أنا شكلي بقى شبَه فرْدِة الشّبشب المقلوبة، ونفسي حدّ يعْدلني، معقول يا «يوسف» عروسة ومفروض جوزي يفرّحني باهتمامه بيّا، في حدّ يعمل كده؟!

ثمّ بصوتٍ منخفض حتى لا تسمعني سعاد هانم التي تجلس على بُعْد، وعيونها راشقة في طاولة الطعام والجلوس قلت له:

- منّك لله ياللّي كنت السبب، ومنّك لله يلّلي فهّمتني إنّ الخطوبة ورود وعصافير وهدايا دهب! أُمَّال لو كنّا متجوّزين بقى لنا عشر سنين!

تضحك إيمان وتقول لي:

- منّه لله ألف مرّة، مكنتش أعرف إنّك «so funny» كدا، ودمّك خفيف قوي يا «dear»! بصراحة يا «لبنى» يا هني إنتِ فعلًا «unique» أنا حبّيتك قوي.

أنظرُ إليها باندهاش وأقول في سرّي:

- إيه السّت الرّايقة دي، خفّة دمّ إيه، دي حرقة دمّ، همّ العيلة دول هربانين من العبّاسية واللّا إيه؟! ..والأمر الغريب في الموضوع، أنّ «يوسف» كريم ومِضْياف جدًّا، لكنّه وقتما يجلس على مائدة الطعام ولا يوجد معنا أحدٌ غريب من وجهة نظره، انسَ أن يهتمّ بأي مخلوق كان.

❋❋❋

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ السّادس

مقلبُ عمري

لم تتوقّف الذّكريات وأكملت هجومَها عليَّ، وصدقًا كنت مستمتعةً؛ خاصّةً أن «هنيّة» لم تقاطعني، رغم هذا شعرتُ بقلق لعدم عودتها مرّة أخرى، لكني لم أقمْ من مكاني، وجلست أُقَلِّبُ في دفتر يوميّاتي أبحث عن الجزء الذي تذكّرته للتّو، فأحيانًا ما تأتي به الذّاكرة يكون منقوصًا عمَّا سطّرته أنت يومًا وأنت متذكّر كلّ التّفاصيل، فتحت الصّفحة التي كنت قد سطّرت فيها تفاصيل يوم زفافي، وقد بدأتها بالتّالي: كانت فكرتي قد تأكّدت أنّه لن يكون بيني وبين حماتي أيّ نوع من الودّ، ولا بدَّ أن أحافظ على شعرةِ معاوية، ومن ثمّ اتّخذت قرارًا هو أن أبتعد عن أيّ صدام معها بأيّ شكل، وأنْ أهاودها وأضيِّع عليها أيّ فرصة لتخلق مشكلة بيني وبين «يوسف»؛ خاصّة فترة التّحضير للعرس، وشراء الأثاث والتجهيزات.

(يوم الزفاف)

مرّت الأيام وبدأنا في الإعداد للعرس، وقرّرنا أن يكون في سفينة على النيل، وقيل لي إنّ حماتي مرهقة جدًّا وتعاني من ارتفاع ضغطِها،

وحالتُها الصحية غيرُ مستقرّة، (على حدّ قول «يوسف») فأنا لم أرها، لقد أبلغني بالوضع عندما قدّم لاصطحابي لنذهب معًا من أجل التقاط صور تذكارية للعرس، وكنّا مع أختي نهاد وزوجها، ثمّ لحقت بنا إيمان وزوجها، وسبقنا باقي الأهل والأصدقاء إلى المكان الذي سيقام فيه الفرح، وللحظّ كان استوديو التّصوير مزدحمًا جدًّا، وأمامي ثلاث عرائس قَدِمْنَ قبْلي، وكلّ واحدة ستستغرق جلسات تصويرها ما لا يقلّ عن نصف ساعة! فوجدت «يوسف» يأخذني جانبًا، ثمّ يبتسم ابتسامةً صفراء، ولاحظت أنه بدأ يتلجْلج في الكلام، فقلت له باهتمامٍ واضح:

– أيوا يا «يوسف»، خير.. في إيه؟

فهو يبدو كمَن على رأسه الطّير! (ويا ليتني لم أفعل)، ثمّ بإيماءة من رأسي شجّعته على الكلام (وأنا عاوزه أقولّه إخْلص، بطني كركبت، شكلك في مصيبة محضّرها لي)، فاستجمع شجاعتَه وقال لي شيئًا ما إنْ سمعته، حتى طار عقلي وكدتُ (أطبق في زمّارة رقبته بقى) وقلت في نفسي:

– هو أنا إيه اللّي عملته في روحي ده، الرّاجل ده شكله عنده الأربع ترْبَع ضاربين وماشي بالبركة، أكيد ده مشْ «يوسف»، أبدًا، مش هو ده اللّي كنت هاموت عليه، ده أنا هاموت بسببه! يادي

الورطة، منّك لله ياللّي كنتِ السّبب، إنتَ مين ياعمّ انت؟! شكلي هاقع على جدور رقبتي، الأستاذ المحترم قال لي بالحرف الواحد:

- بقولّك يا «لبنى» إيه رأيك؟! إنتِ شايفة إنّ الاستوديو زحمة قوي، واحنا هنتأخّر كده على النّاس في المركب، وكمان زيّ ما انتِ عارفة ماما تعبانة (ولا تعبانة ولا حاجة) وبابا كمان راجل كبير في السّن، فإيه رأيك نروح الفرح دلوقتِ ونخلّص اللّيلة الجميلة دي وننبسط معاهم، وبعدين نيجي بكره في الرّوقان كده ويكون الاستوديو مفيهوش زحمة، علشان نتصوّر الصّور التذكارية بتاعة الفرح!

أضغطُ على أسناني وأجاوبه قائلة:

- روقان!! ونتصوّر!! صور تذكارية! بتاعة الفرح! فرح إيه؟! فرح مين، تقصد اللّي هو هيكون إمبارح بتاع بكره؟! يا ليلة زرقا؟!

وأكلّم نفسي وأنا أتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبلع «يوسف» ومامته طنطي سعاد، الرّاجل فعلاً مش طبيعي؟! ثمّ أعود له وأقول:

- «يوسف»، إنت عاوزنا نعمل بكره عروسة وعريس تاني! عاوزني أنزل من بيتي وأنا لابسة عروسة من جديد علشان أروح الاستوديو أتصوّر؟!

وبالنوسبة للجيران، مأخدتش بالك هيكون رأيهم إيه فينا؟! بلاش الجيران! عمّ عبده البواب القمر اللّي هو ومراته مستنّيين

نجيب لهم معانا ما لذّ وطاب من الفرح علشان يفرحوا! (في الكيسة السّودا على رأي حزلئوم)

هو عاتشي خالص إنّك تتوتّر بسبب الفرح، بسّ مش عادي يا «يوسف» إنّك تتحوّل لكائن فضائي نازل متسلّط على نفوخي، فيك إيه!! إنت فعلًا طبيعي؟!

وبمنتهى الهدوء وعلامات الاندهاش البادية على وجهه من ردّة فعْلي يقول:

- أيوه طبيعي طبعًا! إيه! فين المشكلة؟! هو انتِ دايمًا بتعقّدي الدنيا كده؟! خلّيكِ سلسَة، طيّب بالعكس ده انتِ بكره هتكون صورك أحلى، علشان مش هتكوني متوتّرة، وهتطلعي زيّ القمر، متتعصّبيش من فضلك، يا «لبنى»، شكلي كده هاخد فكرة وحْشَة عنّك.

فأنظرُ في السقف، وأبدأ في إطلاق صوت صفير البومة الأرملة أو الغرابِ اليتيم، أيًّا كان، صوت ينمّ عن القرف والخِنْق، ثمّ أنظر له والشّرر يتطاير من عيني وأقول:

- «يوسف»، طبعًا إنت أكيد بتهرّج، ومش عارف بتقول إيه؟! مين اللّي بكره هتبقى صورها أحلى؟! أنا من دلوقتِ عرفت بكره هابقى عاملة إزّاي.

وأشير له ليبتعد عني قليلًا وأقول له:

- إمشي دلوقتِ من فضلك يا «يوسف»، روح أقف مع جوز أختي وجوز أختك، وابْعد عنّي على قدّ ما تقدر، وأبوس إيدك بلاش الوشّ البريء ده علشان تحته كوارث، وأنا أصلًا خايفة لّما أروح معاك البيت أكتشف إنّي اتجوّزت زكي رستم! وصدّقيني يا نوال، أقصد صدّقني يا «يوسف» أنا حاسّة إنّ في روح شريرة بدأت تتحكّم فيّا، وأظنّها روح ريّا وسكينة، فياريت تسيبني خالص علشان عاوزه أهدى وأتماسَك قبل التّصوير، علشان منظر سحْنتي يطلع عِدِل! إنت عاوز تحرق دمّي ليه؟!

يُرَبِتُ على كتفي ويقول: - والله ظالمة ومفتريّة!

أزيح يده عنّي بهدوء وأقول له:

- تصدّق أنا فهمتك، إنت صعبان عليك يطلع شكلي أحْلى منّك في الصّور، لا وألف لا.. عُمْر الطاووس ما هيكون أحلى من الطّاووسة.

وبدأت أشعرُ إنّي داخلة في دور هرْتلة! وكلام ملوش أيّ معنى، يفزع يوسف من طريقتي ويحاول أن يوقف سيل كلامي الغاضب فأقول له:

- وبالنسبة حضرتك للفكرة الوحْشة اللّي هتاخدها عنّي، آه ياريت تاخدها وتمشي من قدّامي! مصحوبًا بالسّلامة يا باشا علشان خلاص أنا شكلي هلفّ وأروح على بيت بابا، الجوازة دي مش جاية

تمنها! واقفة عليّا بخسارة!

ينظرُ لي وكلُّ أمارات الذّهول ترتسم على وجْهه، وكأنّني شخصٌ مصابٌ بالجنون، وليس لأنّه يقول كلامًا عجيبًا لا يصدّقه عقلي؛ بل فوق تخيّلي (بخمستلاف سنة ضوْئية)! ثمّ يحاول أن يقول شيئًا آخر، فأبتعدُ عنه مسرعةً وشعوري بالتورّط في كارثةٍ يتنامَى، وأنّي أخذت مقلب عمري في هذه الزّيجة العجيبة، وعلى رأي المثل (الحلو ميكملش) ثمّ تدنو منّي نهاد، ومن ورائها إيمان على استحياء، وقالت لي:

- ما لك يا «لبنى» يا هني، وشّك ما له أصفر وشاحب كده ليه! في إيه؟! هو انتِ يا دير مأخدتيش «snake» أو أيّ حاجة علشان متتعبيش في الفرح! ولا You feel tired، تعالي يا سويتي اقعدي، علشان تستريحي،أنا حاسة إن في something wrong حصل؟!

فقلت لها: - روّقي يا إيمان، والله لا رونج ولا رايت، دي شكلها ورطة محترمة أنا وقعت فيها. وقصصت عليها الحوار الذي دار بيني و"يوسف»، فقالت لي وهي تكاد تسقط أرضًا من الضحك:

- متظلميش «يوسف» يا هني، ده سوو كيوت و pure أوي ، أكيد حسين جوزي الشّرير اصله evil أوي، وأنا واثقة إنه هو اللّي اقترح عليه الاقتراح الغريب قوي ده.

فأقولُ لها وأنا مندهشة من ضحكها وثقتها أنّه زوجها القائل:

- عرفتِ منين إنّ المصيبة دي، أقصد الفكرة دي بتاعة جوزك مش جوزي الجميييييييييل؟

فقالت لي:

- شفت «يوسف» وحسين بيتفاوضوا على أمر، وبعدين لقيت «يوسف» بيكلّمك ووشّك يا honey بدأ يبقى لونه yellow، فعرفت إنّ المصيبة دي من اقتراح جوزي الكيوت، but I never thought that حسين هيبدع ويجوِّد بالمنظر ده، any way، عادي don't mind، ولا كأنّك سمعتِ حاجة، وخلّيكِ في فرحتك، وأنا هابعد حسين باقتراحاته دي عن «يوسف».

تضحك نهاد على الحوار الدّائر بيني وبين إيمان وتقول:

- والله «يوسف» دمّه خفيف، وانتِ يا «لبنى» اللّي مشدودة، يا بنتي روّقي علشان تطلعي قمر في الصّور.

أُنَقِّلُ نظري بين إيمان ونهاد، وأرسل نظراتٍ في اتّجاه «يوسف»، ثمّ ننفجر ثلاثتنا في الضّحك!

* * *

وبعد ما انتهينا من التّصوير ذهبنا إلى السّفينة، وكانت السعادة تبدو على «يوسف» وكأنّه طفلٌ تائهٌ قد وجد أمّه بعد بحثٍ كثير،

فظلّ طوال الفرح مهتمًّا بحماتي وكأنّها هي العروس، وأنا يمزّقني الغيظ، فهي قد تزوّجت من قبل وأقيم لها عُرس، لماذا تسلبني اهتمامَ زوجي يومَ فرحي؟!

وظلّت تبتسم لي ابتسامات صفراء، وكأنّها تقول لي:

– (أنا رقم واحد عند ابني! ومش هتاخدي مكاني) ورغم هذا لم أهتمّ بنظراتها وانشغلت بالحضور، ثمّ فجأة اكتشفَ زوجي أنّ اليوم فرحه، وأنّي عروسه فبدأ يهتمّ بي، في الوقت نفسه الذي قرّرت فيه سعاد هانم (حماتي) أن تهتمّ بالضيوف وتتركَه لي، قضينا وقتًا رائعًا، خاصّة في الفترة التي نسيت فيها حماتي أنّها عروسة وتذكّرت أنّها أمّ العريس، وكانت أمّي تأتي كلّ فترة وتهمس في أذني:

– هو أنا حسدتك يا «لبنى»! اضحكي يا حبيبتي وبلاش نظراتك (المهبّبة) اللّي بتبصّي بيها لحماتك، كلّنا واخدين بالنا، «لبنى» يا حبيبتي، معلش كبَّري دماغك.

أردّ عليها وأنا أبتسمُ ابتسامات عليلة مثل الموناليزا:

– يا ماما، الستّ فاكره إنّها العروسة والبيه مطاوعها؟! يرضي مين ده؟! هاتجنّن منهم جوز العصافير المغرّدة!

فتُرَبِتُ على كتفي وتقول: – بنتي عاقلة، ومش هتعمل مشاكل! وكأنّ أمّي كانت تريد أنْ تحرجني بقولها عنّي عاقلة، رغم إنّ

هذا لم يكن يومًا رأيَها الأساسي فيَّ، أستمع لنصيحتها، وأحاول أن أكون هادئة، في النهاية هذا يوم عُرْسي، وأنا مَن سيتضرّر بالذّكريات المزعجة، وقرّرت أن أتجاهلها وأنشغلُ بحالي وبمَن حولي!

***

أربعُ ساعات، هي عمرُ مراسم العُرس على السفينة، فهي تبحر خلالَ مياه النيل ساعتين ذهابًا وساعتين إيابًا.

وبعدَ انتهاء العرس، اختفى «يوسف» تمامًا، فعرفت أنّه ذهب ليأخد جرعات حنان من (حماتي حياتي)، فهو سيترك حضنَها اليوم، وسيتمّ اختطافه من قِبَل العنقاء (اللّي هي أنا)، ورغم إنّي أنا البنت التي ستترك بيت أبيها وأمّها، فقد تعاملت مع الموقف بشجاعة السّاموراي الذي قرّر بشرفٍ أن يخوض معركة ويتحمل نتائجها، وسأتحمّل نتائج الزواج، وأيضًا حربي الباردة مع سعاد!!

وفجأة داهمني شعور بأنّني ينطبق عليّ مقولة (يغور وهنكسر وراه زير)، ذلك لعدم ظهور أيّ تعبير يدلّ على التأثر لفراقي على وجه أمّي أو أبي! (تفتكروا أنا قعدت عندهم كتير لدرجة الزّهق؟!).

***

وصلْنا إلى عشّ الزوجية كما يسمّونه، وبعد مغادرة الأهل والأصدقاء دخلت حجرة النّوم، ثمّ جلست على الفراش في محاولةٍ

لاستيعاب ما أنا فيه، هل صحيح تزوّجت وتركت أهلي وسأكمل باقي حياتي مع هذا الرّجل الذي لا أعرفه إلّا منذ سنة تقريبًا، كيف تنازلت عن حرّيتي!! ولم أجدْ جدوى من وراء هذه الأفكار، فقمتُ لأبدلَ ملابسي، فقد سبق السّيف العذْل، وأصبحت في بيت الزوجية، وبمجرّد أن هممت بتغْيير ملابسي، طرق «يوسف» الباب مستفسرًا عن سبب تأخّري، ففتحت له وأنا بملابس العرس لم أبدّلها، والدّموع تنهمر من عينيَّ، فقد انتابتني نوبة بكاءٍ شديدة مثل الأطفال كانت- من وجهة نظري بعدما استفقتُ منها- مبالَغًا فيها جدًّا، تلك النّوبة جعلت «يوسف» يدور حول نفسه، وأُسْقِط في يده، وبدأ يجول ببصره في الحجرة لعلّه يجد سببًا لبكائي، لقد أربكتْه دموعي بشدّة، ثمّ قال لي بلهفة: - ما لك يا «لبنى»! فيكِ إيه!؟ مش معقول تكون مامتك وحشتك! واللّا يكون عمّي باباكِ هو اللّي وحشك.

ولمَّا لم أجبْ عن تساؤلاته هزّ رأسه نافيًا، وأردف:

- مش مصدّقك، إيه ده؟! أصلي محسّيتش أبدًا إنّك عاطفية قوي كده، واللّا انتِ عاطفيّة وأنا مكنتش واخد بالي؟!

أخرج من حجرةِ النوم وأقفُ أمام باب حجرة المعيشة أمسح أنفي، ودموعي مازالت تنهمر، وكأنّه قد حدثت لي مصيبة، وأقول له:

- عاطفيّة إيه! هو انتَ بتتريق عليّا ليه؟ هو ده وقته! وعمومًا،

لا طبعًا محدّش وحشني! إيه يا «يوسف» هو أنا لحقت! هي يعني طنطي سعاد وحشتك؟

كلّ الحكاية أنا محتاسة، أصلي نسيت علبة العدسات، ومش عارفة هاعمل إيه، وميفنعش أنام وأنا لابسة العدسات! وطبعًا زي ما انتَ شايف أنا تعبانة ولازم أخلَعْهم، وعمّالة أفكّر من ساعة ما وصلنا ومش لاقية حلّ! وفجأة لقيتني بعيّط، أعمل إيه طيّب!

في أعماقي، غالبني شعورٌ أنّه في غالب الأمر هذا البكاء كان سببه أنّني أصبحت وجهًا لوجْه مع الزّواج، وكانت العدسات ما هي إلّا حجّة حتى أُخْرِجَ شحنات خوفي ورُعبي من الزّواج والحياة الجديدة!

يخرج خلفي ويُرَبِتُ على كتفي بحنانٍ محاولًا طمْأنتي ويقول لي:

– اهْدي هاتّصل بإيمان لأنّها عندها عدسات، فمُمكن تبعت علبة من عندها مع حسين، روَّقي بقى!... ثمّ يباغتني بسؤال ونظراتُ الخبث تلمعُ وتضوي في عينيه:

– طيّب إنتِ ليه كلّ ده قاعده وحدك ومغيّرتيش هدومك! أنا جوزك وستر وغطا عليكِ، عادي لو معندكيش هدوم مُمكن أسلّفك بيجامة من بيجاماتي؛ أنا عندي كتير!

لا أصدّق مزاحه (الرّخم) وأقول له:

– إنتَ مصدّق نفسك وبتتريق عليّا يا «يوسف»! أنا «لبنى

عامر» معنديش هدوم!! يضحك من ردّي عليه، ويقول:

– أنا بهزّر معاكِ، إنتِ ليه لابسه الوشّ الغامق ده، (قفوشة أوي) عادي هزار يا «لبنى عامر» هزار! ثمّ يجذبني من يدي، ويقول:

– تعالي بسّ غيّري هدومك، وانْ شاء الله هيجيبوا علبة العدسات على طول.

أدخل الحجرةَ معه وقبل أن يذهب ليتّصل بأخته أقول له:

– مُمكن تساعدني في خلع الطّرحة! أصلها مضيْقاني قوي، ومش عارفة أقلعها.

وبعد أن ساعدني في خلعها، قال ضاحكًا:

– إيه كلّ البِنَس دي، انتي كأنك خايفة الطرحة تهرب منك يا «لبني» يا حبيبتي

ويخرج مسرعًا ولم ينتظر الردّ– والذي توقّع أن يكون حادًّا ولاذعًا– ليتّصل بأخته.

قمتُ بارتداء قميص النّوم، وكان أبيض مصنوعًا من القماش الشّيفون الناعم، وله روب دانتيل مبطّن بالسّتان، ثمّ حللتُ شعري فانسدلَ على كتفي كشلالٍ من الليل، ثمّ تعطّرت وانتعلت شبشبًا أنيقًا، وبعدها توجّهت إلى حجرة المعيشة، جلست في انتظار علبة العدسات.. بضع دقائق وسمعت وقْعَ أقدام «يوسف» تزحف على

الأرض كأنّه يجرّ أكياسًا من الرمل، واكتشفت أنّ هذه هي طريقته في المشي ممّا جعلني لا أفزع أبدًا، فهناك أشخاص فجأة تراهم قد انتصبوا أمامك لرشاقة خطوتِهم، أمّا «يوسف» فجعلني قبل رؤيته أسمع وقْعَ أقدامه!

رفعت وجهي الذي كان يسكنُ بين كفّي، ونظرت في اتّجاه القادم الباسم، فكدت أصرخ من الانفعال، فوضعتُ يدي على فمي حتى لا أطلق صوتًا قد يحضر على إثره الجيران!

لقد أهلَّ عليَّ مرتديًا منامةً قديمة بالية، عليها بعضُ بقعِ الزّيت البيضاء، اقترب منّي وعلامات السّعادة تظهر في لمعةِ عيونه، أمّا أنا فبمجرّد أن جلس بجواري واقترب منّي باسمًا، تضاربتني أحاسيس؛ أقلّها أن أقوم من مكاني وأناوله لكمةً في أنفه وأخرى في عينيه، لكنّني أفقتُ من أفكاري ونحَّيت رغبتي جانبًا، وأنا أحاول أن أتأكّد من صدق ما رأيت، فقد جاءني باشًّا سعيدًا كأنّه مديرُ المنتخب المصري وقد تأهّل فريقه لكأس العالم! أكلّم نفسي: لا يمكن أن يكون اللّي شفتُه صحّ!!

ثمّ دعكْت جبيني ومسحتُ عيوني بطرف أناملي، وقلت لعلّها العدسات هي سبب ما ظننْت، لكنّه للأسف كان يرتدي- فعلًا- بيجامة قديمة وعليها بقعة دهان حوائط (بويات)، رميتُه بنظرات

غيظٍ، وقلت له:

- «يوسف»، إيه اللّي انتَ لابسه ده! فين البيجامة والرّوب اللّي اشتريناهم سوا؟! إيه المصيبة اللّي انتَ لابسها دي!!

ثمّ استدركتُ ساخرة منه وبصوتٍ مثل أصوات الشّخصيات الكارتونية قلت له: (لو معندكش هدوم مُمكن أسلّفك بيجامة من بيجاماتي، أنا عندي كتير!) فين دول ما هو باين أهو!

يردّ عليَّ بمنتهى الهدوء والثقة:

- البيجامة والرّوب هالبسهم للضيوف بكره، ليه ألبسهم النهارده؟! إنتِ غريبة قوي! وبعدين لو لبستهم هيتكرْمِشوا!

فنظرت له وقد انْفرج جفني والتصقَ بحواجبي وجحظت مقلتاي غضبًا، وقلت له: - نعم! البيجامة والرّوب هتلبسهم للضيوف وأنا لابس لي بيجامة أقلّ ما يقال عنها إنّها معفّنة! وليه تلبس لهم بيجامة وروب، همّ ضربوا الجرس فجأة فانتَ اضطرّيت تطلع بالرّوب والبيجامة؟!عاوز تهبلني؟ ليه كده ليه تلبس لي يا «يوسف» هدوم قديمة ومعفّنة!! ده أنا لابسالك قميص نوم وروب من أمريكا! مش من سوق الكّانتو!

ومقلتليش ليه يا «يوسف» إنّ النهارده هتكون حفلة تنكّرية! وطبعًا اسمها (العفانة بارتي)

وكنت جبتْ لـ الليلة المفترجة دي جلابيتي الكسْتور البمبي اللّي بغسل بيها المواعين، ألبسهالك وأخلّي قميص النوم والرّوب للضّيوف بكره!!

«يوسف»، إنتَ عاوز تموّتني مشلولة؟!

يجلس بجواري مبتسمًا، ويقول لي:

- روَّقي بلاش الشّكليات التّافهة دي! النّهارده ليلة العمر....

ثُم يُرَبِتُ على شعْري حتّى أهدأ، فما كان منّي إلّا أنْ دفعته بعيدًا عنّي، وقلت له:

- النّهارده آخر يوم في عمري معاك، إنتَ متأكّد إنّك مبتاخدش دوا وبطّلته فآثار انسحابه بدأت تظهر!!؟ أو حدّ من أصدقاء السّوء إدّاك مخدّرات!

«يوسف» على فكرة تصرّفاتك النّهارده كلّها.. كلّها مش طبيعية!

يقترب منّي في محاولة لتهدئتي، فأنظرُ له مهدّدةً إيّاه أن لا يقترب منّي أو يحاول أن يتكلّم معي قبل أن يقومَ بتغيير هذه البيجامة العفنة، وقبل أن يردّ عليَّ، يرنّ جرسُ الباب معلنًا حضورَ العلبة التي سأضع فيها العدسات.

***

بعد 3 أيام من زواجنا، جاءني «يوسف» من الخارج وهو منفعلٌ

من تصرّفات شركات السّياحة ويقول لي:

– على فكرة يا «لبنى» أنا نسيت ميعاد السّفر بتاع أسبوع العسل، وهنسافر متأخّرين عن ميعادنا بيومين؛ لأنّي لمّا رحت لشركة السياحة قالوا لي مفيش تذاكر في نفس اليوم لأنّنا ما أكّدناش الحجز! الناس دي بتستعبط!! أنا متسغربهم أوي بصراحة

فأُسْقِطَ في يدي، ولا أردّ عليه وأقول لروحي:

– اشربي، آدي الحليوة الأمّور، إن شاء الله هتعيشي تكلّمي نفسك معاه، حتى تأكيد ميعاد السّفر مفتكرهوش! تفتكري إن ربنا هيسترها معاكِ ولا هتبقى عيشة فُل؟ شكلها أيام ما يعلم بيها إلا ربنا..

يارب الطف بيا أنا غلبانة مفيش فيا غير لسان بس!

وبعدها بيومين، سافرنا إلى شرم الشيخ، وقضينا هناك أسبوعًا ممتلئًا بالأحداث والمواقف التي لم ولنْ أنسَها أبدًا، وكانت علامةً فارقة في تحديد شخصية زوجي «يوسف الرّايق».

***

عدْنا إلى القاهرة، وبدأ يتوافد علينا المهنّئون، فزارنا أبي وأمّي وإخوتي، وعمّتي «وصوف» وجدّي عبد الله الذي جلس طول الزيارة يبتسمُ ويسأل عن أسماء الموْجودين، ويعيد السّؤال المرّة تلوَ الأخرى، أمّا عمّتي وصوف، فدخلت عليَّ المطبخ ومنحتني نقودًا ثمّ قالت:

- دي نقطتك، متدّيهوش منها حاجة، شكلك عبيطة، النّقوط تجيبي بيهم دهب فاهمة؟ خلّيكِ ناصحة زيّ عمّتك. واستطردت قائلة:

- وبرضو دمّه تقيل.. يا ستّار!

وقبل أن أدافع عنه، تدخل علينا أمّي، فتقطع حديثي مع عمّتي، وتقول لي:

- يلَّا يا حبيبتي علشان عاوزين نسلّم عليكِ علشان جدّك زهقان وعاوز يروّح. أخرجُ معها وكلمات عمّتي ونصائحها في رأسي، وأستغربُ فهي لم ترَ من «يوسف» بخلًا أو شحًّا، ثمّ قلت في نفسي:

- يظهر الزّمن بيخلّي الواحد حريص، عموما مش هاخسر حاجة لما احط نصايحها على جانب وقت ما احتاجهم ابص فيهم، عمتي وصوف وتد مش سهلة، اكيد عندها نظرة!

كانت زيارة أهلي وأصدقائي خفيفةً ولطيفة، وسعدنا بها أنا و»يوسف»، أمّا زيارة أهل زوجي، فقد كانت علامة مميّزة على جبيني، فقد كانت تعتبر كأنّها زيارة تفتيش من وزاة الصّناعة والتّموين وإدارة حماية المُستهلك؛ قامت حماتي بفحْص الخشب والمراتب والنّيش، وتأكّدت أنّ لديَّ أطقمًا من الكريستال الفرنسي البوهيمي، وكانت يدُها تمرّ على كلّ جزءٍ في البيت، الوحيدة التي كان حضورُها

بلسمًا وخفَّف عنّي من وطأة هجماتِ سعاد الشّرسة هي إيمان، كانت سعيدة بالشّقة والأثاث، ومدَحَت في ذوقي واختياراتي للألوان والاثاث، مقابل قول حماتي: (حلو رغم إنّه عادي)، والعادي أنّها لا بدَّ أن تسمّمني بأيّ كلام، ورغم إنّني كنت قد أخذت «الفاكسين» فإنّها كلّ فترة تبهرني بنوعٍ جديد من السّموم، كنت أحاول ألّا يؤثّر كلامها عليَّ! وممّا ساعد على إزالة آثار تصرّفات سعاد الغريبة، هو وجود بعض أقارب «يوسف» الذين قاموا بتشْتيت تركيزها معي، وتركي أقوم بمهمّة الضيافة على الوجْه الأمثل، وحتى لا أتعرّض لملاحظاتٍ من نوع:

- إنتِ بخيلة واللّا إيه، همّا بابا وماما مجبولكيش طقم كذا وكذا؟!

فحمدتُ الله أنّ أبي لم يمنحْها الفرصة، وجهّزني بما يليقُ بي، ويمنع شرّها الفطري تجاهي! ورحم كبريائي من محاولة جديدة منها لتحطيمه.

الفصلُ السّابع

الحوض في السّقف

يخرجني صوتُ الهاتف من تركيزي في القراءة، فأرى اسمَ المتّصل «يوسف» فتراودني فكرةُ تجاهل اتّصاله، فأنا غاضبةٌ منه أيّما غضب، ولكنّني في الوقت نفسه خفتُ أن يكون هناك أمرٌ ما جعلَه يتّصل بي، فرددتُ عليه بوجوم قائلةً:

- نعم يا «يوسف»، خير! في حاجة؟

أسمع صوتَه هادئًا يأتي من الطرفِ الآخر وهو يقول لي:

- إزّيك يا ستّ الكل، روقي علشان خاطري، ده انتِ يا «لبنى» الأمّ الحنون الرءوم، والأمّ الطيبة المتسامحة الرقيقة!

فقلت له:

- اللّي هي إيه إنْ شاء الله الأمّ الرءوم دي؟! ما ناقص تقولّي يا «يوسف» إنّي أمّ المصريين كمان! إنْجز يا «يوسف»، عاوز إيه بتثبّتني ليه على رأي «أدهم»!

ثمّ أُرْدِفُ بسخرية:

- أكيد طبعًا كلامك ده وراه هدف أو شاكِك إنّ في شرّ جاي

في السّكة لمحته بيجهز في عينيَّ الصّبح، «يوسف» بلاش استظراف، إنتَ عارف أنا أمّ الرّخامة، وأمّ التّريقة، وأمّ الخلول، وأمّ الغولة وأمّ العناكب. فردّ عليَّ بصوت ضاحكٍ من كلامي:

– إنتِ أطيب قلب، بسّ لازم تبطّلي الاندفاع والعصبية، ومتاخديش كلّ حاجة على قلبك!

أردّ بنفس النّبرة الواجمة:

– أيوه، نعم.. المفروض أعمل إيه بعد كده؟!

فيقول لي: – ولا حاجة، أنا بسّ حبّيت أطيّب خاطرك علشان الصّبح لمّا نزلت شفتك زعلانة وكنت بتعيّطي.

أنْفي سريعًا كلامَه، وأقول له:

– لا طبعًا، مين ده اللّي بيعيّط، دي ناموسة قرصتني في عيني، محدّش يقدر يزعّلني، وعلى فكرة أنا سكتّ لمامتك امبارح بسّ والله علشان هي ستّ كبيرة، بسّ بعد كده الكلام بينّا هيكون بنج بونج!

ينفعل ويتكلّم بحدّة وكأنّه تحوّل مائة وثمانين درجة، ويقول لي:

– خلاص.. خلاص إقْفلي يا «لبنى».. أنا غلطان، سلام.

ويغلق الخطّ دون انتظار ردّي، أستغرب من ردّه ونبرةِ صوته في أوّل المكالمة، وهو الذي تركني لقمةً سائغة لأمّه ليلة أمس، لقد اعتاد في الفترة الأخيرة القول بإنّي سيدة مُزعجة، وأحيانًا سليطة

اللّسان وسخيفة، وفي أوقات أخرى يراني أفعل ما يفعلُه البُرص، فكان يقول لي:

- إنتِ زيّ البرص يا «لبنى» لا بيهشّ ولا بينشّ، وبيربّي عداوة في القلب.

فكنتُ أضحك من تشبيه البُرص، وأقول في نفسي: وما لُه.. بُرص بُرص! ولا أُخفي عليكم أنّني عصبيّة جدًّا، ومجنونة، وسهل استثارتي، وأحيانًا صعب إرْضائي أو توقّع ردود فعلي، لكنّي أيضًا أحيانًا كثيرة طيّبة جدًّا (لدرجة العبط)، وأنسى الإساءة سريعًا، وأنسى التّحذيرات والتّنبيهات والتّعليمات، والتّعليمات لا يلقيها عليَّ إلّا حماتي (فهي تتعامل معي على أساسِ المعلّم والتلميذ البليد).

***

علاقتي بحماتي متوتّرة دائمًا، فمنذُ أوّل لحظة رأيتها فيها، عرفت أنّ الكيمياء بيننا ستفجّر الأماكن؛ ذلك لأنّ عناصرنا مُتنافرة تمامًا، لكنّي كنت- ومازلت- أُكِنُّ لها بعضَ مشاعر الطّيبة، والتي أعتبرها مشاعرَ لقيطة، لا أعرف لها سببًا، إلّا إنّها أمّ «يوسف»، أحيانًا عندما أرى ضعفَها كأمّ وزوجة مضغوطة، فيحنّ قلبي لها، رغم أنّها تعاملني مثل الطبيب الذي يُحارب الميكروبات بكلّ الأسلحة الطبية المتاحة، أو الجراح الذي ينشبُ مخالبَ مِبْضعه ليتخلّص من

الوَرم الذي يراوغه، فأنا كنت- ومازلت- ورمًا سرطانيًّا في رأس حماتي؛ لأنّي من وجهة نظرها بخمستلاف لسان (رغم أنّها لم ترَ لساني هذا أبدًا)! بالإضافة لأهمّ شيء وهو إنّي لا أستحقّ «يوسف» (ابنها الحليوة الأمّور)

تلك السيدة القويّة التي أعجز أمامها عن ممارسة حقّي الطّبيعي كزوجة وأمّ، فهي متزوّجة من «يوسف» وأنا التي تنجب له الأبناء، أمّا هي فتقوم بتربيتهم، ودائمًا أشعر وكأنّها تستخسره فيَّ، وترى نفسها الأَوْلى به، وتشعرني أنّي خطفت منها حبّ حياتها!

لقد عانيت منذ أوّل يومِ زواج من تدخّلها في حياتي كأنّها مفتشٌ مرسلٌ من وزارة الزّواج لتتأكّد من حُسن أدائي والتزامي بالمعاهدات الدّولية في طاعة الزوج والسّهر على راحته! لكنّني كنت- ومازلت- حزينةً لأنّ علاقتنا دائمًا متوترة، بيْدَ أنّه والله لستُ أنا مَن بدأ بالعداء، أو فلنقل المُناوشات!

فحماتي تعتقد أنّي زوجة وأمّ فاشلة لأنّي لا أطبّق نصائحها في التّعامل مع الزوج والأولاد، فهي طول الوقت توجّهني، وتلقي عليَّ محاضراتِ تنميةٍ «حماتيّة» في صناعة بيتٍ يناسب ذوقها! فهي مَن اختار لابني «رمضان» اسمَه، واختارت مدرسة «أدهم»، وضغطت على «يوسف» ليدخلَه فيها، رغم اعتراضي ورفْضي لنوعية الدّراسة

في هذه المدرسة، فقد كنت أريدُه أن يدرس في مدرسةٍ قريبة من البيت ودراستها سهلة؛ حتى لا أسبّب له ضغطًا نفسيًّا بالدّراسة، فقد كنت بعيدةَ النظر، فنحن الآن رقم 139 على العالم (يعني كلّه محصّل بعضه يبقى نريّح العيال، ليه أضغط عليهم في الدراسة ليه؟!) ولكنّها أصرّت أن يدخل صغير السّن، وبالتالي ظلّ الولد يعاني، وأنا أيضًا أعاني معه، وكلّ هذا فقط من أجل الوجاهة (البرسْتيج) والمنْظَرة الفارغة!

لم تترك لي حتّى مساحة دون نقد! الطّبخ (عادي أنا ستّ بيت والله)، تنتقد طبخي وحتى ملابسي، تتدخّل في تفاصيل التّفاصيل، وأنا أبتسمُ مرّات، ومرّات أتصنّع الصّمَم، وأخرى أقوم أجري وراء ناموسةٍ حمراء افتراضية، حتى أتركَ لها المكان، ودائمًا وأبدًا «نور عيونها» لا يخطئ؛ فهو تربيتها!

***

كانت منال زوجة بكر، أخو «يوسف»، دائمًا تنصحني بالصّمت حيال مناكفات حماتي، وتقول لي ببرود:

- متتْعبيش نفسك معاها، محدّش هيقدر عليها غير الموت، وفّري صحّتك علشان نفسك وعيالك، ولادها كلّهم مبيقدروش يقفوا في وشّها، حتى جوزها سايبها تتصرّف في كلّ شيء، بسّ في المقابل تبعد عنه!

وتأكّدتُ من صدق كلام منال، لكنّ طبيعتي أحيانًا كانت تغلبني فأردّ عليها، لكن دائمًا هي التي تفوز! والله لم أكنْ سعيدةً بهذه العلاقة؛ لكنَّ هناك أمورًا تُفرَض عليك ولا تستطيع إصلاحها؛ لأنّ العلاج يحتاج رغبةً من الطرفين، وحماتي لديها رغبة وحيدة هي التخلّص منّي! وأنا ليست لديَّ الرّغبة لتحقيق أهدافها، لا أنكر أنّ ضغطَها عليَّ ومطاردتي انخفضتْ بشدّة بعد إنجابي «أدهم»! لكنّه لم يتوقّف طبعًا، بيْدَ أنّ فكرة أنّي لا أستحقّ ابنَها لم تستطعِ التخلّص منها أبدًا، فكانت تبديها في كلّ مناسبة لتعكّر صفوَ مزاجي، ولقد نجحتْ في تلك المهمّة باقتدار، وكنت أتماسك احترامًا لزوجي وخوفًا من انفجارٍ غضبي الذي لم أكنْ لأضبطَه؛ فأنا عندما أفقد السّيطرة على نفسي أتحوّل لكائنٍ همْجي لم يدخل مدارس ولم يتعاملْ مع بشر، كائنٌ قادم من العصر الحجري، والفضلُ لها ولابنها؛ فقد تحوّلت شخصيتي تمامًا!

أتفهّم أن تكون عيوبي هذه مثيرةً لحفيظةٍ بعض المتعاملين معي، ولكنّني في الوقت نفسِه لا أستطيع صنعَ شيء حيالَ هذا الأمر (فهذه هي أنا)، والمثير للدّهشة أنه رغمَ اعترافي بعيوبي، واتّساقي مع نفسي والرّضا بحظّي القليل؛ فإنّ الحياة لا تتركني أعيشُ بهدوءٍ مكتفيةً بنَصيبي من المعاناة الأسريّة وفروعها؛ لا.. بل تخبأ لي دائمًا المزيدَ (من

الغُلْب) في اتِّجاهات لا أتوقّعها؛ لأنّ فكرة التأقلم مع المحيطين بك، وخاصّة المفروضين عليك بِصلةِ رحمٍ أو نسب، تحتاج منْك لمجهودٍ كبير، وأيضًا رغبة، وأنا افتقدتُ كليْهما بالفطرة، تبًّا له من كوكب! كلّ مَن يعيش عليه يضغطُ على أعصابي ويرهقها.

***

فجأة أستمعُ لصوتٍ جَهْوري غاضب، فأضع الهاتفَ بجوار دفتر يوميّاتي وألبوم الصّور في أحد الأدْراج، وأخرج مسرعةً لأرى ماذا يحدث، فوجدت «أدهم» يصرخ في الهاتف، ويعاتب أحدَ أصدقائه لأنّه لم يحجز له تذاكر الماتش في الدّرجة الأولى، وسمعتُه يقول له: إيه يا معلّم التّهريج ده، هو مش كان في بينّا اتّفاق! مينفعش يا اسطا العوّ ده، دا أنا مُمكن أفشــ..

أصرخُ فيه حتى لا يكملَ الكلمةَ البذيئة التي انتشرتْ هذه الأيام، وأنظر إلى الواقف أمامي وأتخيّل نفسي أسمع منادي سيارات أو عاملَ نظافة في ورشة، ما هذه الألفاظ! ثمّ أشاور له حتى يخفضَ صوتَه قليلًا، لكنّه لا ينظر إليَّ ولا يظهر أيَّ ردّ فعلٍ تجاه كلامي له، ثمّ يغلق الخطّ ساخطًا ويسبّ صديقه سبًّا يؤذي مسامعي كأنّي لا أقف أمامه!! هنا.. أصرخُ فيه وأنا أشعر أنّ ضغطي قد ارتفع، وأقول له:

- اسمع يا «أدهم»، قلّة أدب تاني مش هاسْمح، وتصرّفك

اللّي عملته امبارح معتمد على حليفتك تيتة سعاد، مش هاقبل تكرّره تاني.

ثمّ أرفع السّبّابة وأُحذره قائلةً:

– إنتَ ناسي أنا مين!؟ أنا ماما، وكمان مش أيّ ماما، فياريت متنساش نفسك، والبيت ده مُحترم، مينفعش تشتمْ فيه وتقول الألفاظ البذيئة دي! قليل الأدب صحيح.

فتأتي «هنيّة» على صوتي وتقول لي:

– أيوه يا مدام جوليله لأنّه بيشتمني وبيهزّجني، وأنا يعني جريّبه منّه في السّن! مينفعش يعمل معايا كده، وأنا مُمكن أشتكيه لأستاذ «يوسف» وهو مُمكن يكسر رجبتُه بسّ أنا مش عاوزه أأذيه.

يصرخ «أدهم» فيها قائلًا:

– امشي من هنا يا «هنية» بدل ما أنا اللّي أكسَر رقبتك، وأورّيكِ يعني إيه أبويا يكسر رقبتي..إنتِ يابت هبلة ولا بتستهبلي، والله افتح دماغك جاتك القرف.

أتدخّل لأفصل بينهما، وأقول لـ»هنية»:

– امشي من هنا، يلّا روحي شوفي وَرَاكِ إيه..ومحدش طلب منك تتكلمي،ولما تحبي تشتكي

مش والنار والعة يا هانم..يلا امشي

تنظر إليَّ بغضبِ مَن ضاع حقُّه، وتبرطم قائلةً:

- آل يكسر رجبْتي! ليه هو فاكر نفسه هرجليز، ولا شاندام، آل يكسر رجبْتي آل! وحاضر يا مدام هاجفل بوجي علشان متزعليش مني..

فيهُمّ «أدهم» للّحاق بها ليضربها...

فأستوقفه قائلة:

- إنت اتْجنّنت! ما لك وما لها؟ وإيّاك تضايقها أو تشتمها أو تزعّلها، دي أمانة عندنا، ملكش دعوة بيها خالص، والكلام ده نهائي، والأهمّ تخلّيك في خيبتك، مسمعش ألفاظك البذيئة دي تاني، وامشي من قدّامي.

يحاول أن يردّ على كلامي، فأشير له بيدي لأمنعَه من الكلام، وأردف غاضبة:

- أنا أصلًا مش بكلّمك، ولا هكلّمك علشان تِقِلّ أدبك عليًّا امبارح! وتتحامى في سعاد.

ينظر إليَّ بتبجُّح، ويقول بصوتٍ أجشّ:

- ماما، إنتِ اللّي زعقتِ لي، وانتِ اللّي مش عاجبك حاجة بعملها، على فكرة ده مش أسلوب تتعاملي بيه مع ابنك الكبير! أنا مش «رامي» ولا «بسنت».

أُديرُ وجهي عنه، وأذهب إلى الحجرة، وأُغلق البابَ خلفي، يقف لحظات ثمّ يلحق بي، ويطرق الباب فأقول له:

- إمشي يا «أدهم» خلّي سعاد تنفعك..متحاولش تتكلم معايا إلا لما تكون محترم، وتعرف تتكلم مع مامتك بأدب.

يقف على الباب ويقول:

- أنا آسف يا ماما، من فضلك متزعليش. مكنش قصدي، من فضلك افتحي، طيب يا ماما أنا نازل، ضروري تفتحي.

لا أردُّ عليه، فيذهب عنّي بعد عدّة محاولات فاشلة منه لمصالحتي.

***

أشعرُ بنوبةٍ غضبٍ عارمة؛ فالأمور تكاد تفلتُ منّي، وأنا التي رفضت أنْ أعمل كي أقومَ بتربية الأبناء بشكلٍ صحيح، فتجربة العمل رغم أنّها مرهقة، لكنّها مفيدة جدًّا، فهي تصقل شخصيّة المرأة، وتمنحها القدرة على فهْمِ البشر، وتساعدها على كيفية التّعامل مع كلّ الأصناف، والنتيجة الأكيدة التي وصلت إليها (ابعدْ عن شرّ البشر وغنّي لهم).

وبعد الزواج لم يطالبني زوجي بترك العمل تلميحًا أو تصريحًا، فكلانا يرى أنّ عملي شيءٌ مهمّ في حياتنا، ولكنْ من منظور مختلف، فالعمل بالنسبة لي ثقة وإثبات ذاتٍ واستقلال ماديّ، حتى لا أخضع

لممارسات ذكورية استعلائية من زوجي؛ ذلك لكوْنه المسئولَ الماليَّ في شراكة الزّواج، أمّا هو فيرى عملي حجر الزّاوية في استقرار زواجنا حتى لا يتعرّض لهزّات في بدايته، فالعمل سيستنفد القدرَ الأكبر من جهدي فأصبح بلا طاقةٍ أو جهدٍ لأتربّص به.

الخلاصة.. هو يريد زوجة (مهدودة الحيل ومشغولة عنه)، ولكن لم تستمرّ سعادته كثيرًا، فأنا قرّرت أنْ أترك العمل بعد الإنجاب- والذي تأخّر- ليعطيه فرصته التي يرْجوها، فقد تثاقلتْ على كاهلي الأعباءُ والهمومُ والمسئوليّات، فهناك طفل يحتاجني وعملٌ يريد منّي كلّ انتباه، ورغم عشقي للعمل فإنّي كنتُ دائمًا أؤمن بفكرة أنّ عملي يستطيع فعلَه عشراتُ النّساء أو الرجال، أمّا تربية أبنائي فلا أحد غيري يستطيع أن يقوم بها مثلي، فكانَ ولا بدَّ لي من الاسْتقالة، حتى أستطيع التّركيز في جبهةٍ واحدة، أمّا بعد الإنجاب كانت استقالتي أمرًا مفروغًا منه، من أجل الاسْتعداد للقادم والتسلّح بالأسلحة المضادّة للمشاكل والمناوشات الزوجيّة والأسَرية، وأيضًا حتى أستطيعَ الحفاظ على عقلي قطعةً واحدة، كان رأي «يوسف» في هذا الأمرِ مختلفًا، فكان يقول لي:

- يا «لبنى» ليه عاوزه تقْعدي من الشّغل! إنتِ أصلًا تقدري تديري عزبة بذاتها وبالأرض اللّي حواليها كمان، مش شغل وبيت

وبسّ، اسمعي كلامي.. انزلي شغلك ووِدّي «أدهم» الحضانة، وهاقولّك تعملي إيه ببساطة، إنتِ تودّيه الصّبح في طريقك، وبعدين ترجعي تجيبيه بعد الشّغل، وطبعًا متشيليش همّ، أنا اللّي هادفع فلوس الحضانة.

أصرخ في وجهِه دونَ مقدّمات بمجرّد أنْ ينتهي من كلامِه، فأنا لمْ أنمْ، ولمْ آكل، وأشعرُ أنّي أغرق وهو يقول لي أنْ أنزل العمل وأصطحبُ ابني في طريقي، ما هذا الجنون؟!

فأقول له:

– أكيد بتهرّج، بسّ تهريج رخيص ومُبتذل كمان، إيه يا «يوسف» هي «سعاد» ضحكت عليك وفهّمتك إنّي مُمكن أعمل كده؟! «يوسف»، من الآخر اكْشف ورقك المكشوف أصلًا؟! إنتَ عاوز ميبقاش عندي وقتْ خالص علشان تبقى براحتك، أجيبْ لك من الآخر، أنا مش هاشْتغل، ومش هاسيبك في حالك إنتِ وسعاد.

يهزّ كتفيْه، ويضرب كفًّا بكفّ، ويقول لنفسه وهو يغادرني:

– والله ظالمة، وهتفضلي طول عمرك ظالمة، الحقّ عليّا إنّي عاوزها تحافظ على كيانها اللّي بتقول عليه، معلش يا «جو» حظّك كده مع مراتك.

أختمُ الكلام غاضبةً وثائرة قائلةً:

- معلش يا مسكين، حظّك كده، «لبنى» اللّي أهلها إدّوهالك تتحكّم فيها إنتَ ومامتك وعيالك!

يرجع خطوةً للخلف ويقول:

- عيالك يا مفتريّة! ده حتّة عيّل مفعوص، ده حتى مرضيش يقعد في بطنك أكتر من 7 شهور مستحملش من جنونك.

في هذه اللحظة السعيدة جدًّا، أقذفه بكيس الحفّاضات (فيلبس في الهدف) فيضحك منّي، ثمّ يترك المكان وأنا أكملُ الكلامَ مع نفسي الغاضبة.

***

أعود من ذكرياتى وأجلسُ على طرف السرير غاضبةً، كيف وصل «أدهم» لهذا الحال؟! أتفكَّر في وضْعه، وأتذكّر ما دار بيننا أمس! هل قصّرت في تربيته هو وإخوته؟ كيف وأنا لا همَّ لي إلّا هُمْ، ولا يشغلني شاغل إلّا راحتهم!

لقد منَّ اللهُ عليّ بـ«أدهم» بعد سنتين من الزّواج، عانيت فيهما الأمرَّين من تهكّمات حماتي وتطفُّل الآخرين، ولكنّه جاء طفلًا باشًّا جميل المُحَيَّا صاحبَ ضحكة ساحرة، لدرجة أنّ عمّتي «وصوف» قالت لجدّي يومًا:

- على فكرة يا بابا، البنت «لبنى» جايبة عيّل ما شاء الله عليه زيّ القمر!

«أدهم» الآن 18 سنة، في الصّف الثّالث الثانوي، كلّ أفكاره ضدّ التعليم، ولا يحبّ فكرة النّظام، أو الهدوء أو النّظافة المفرطة، وضدّ بذل أيّ مجهود، قانونه في الحياة (الكسل عسل).

عندما كان صغيرًا كان كلّ تفكيره وكلامه أكبر من سنّه، وكنت دائمًا فاغرةً فاهي من الصّدمات التي كان يرميها في وجهي، وصارت له هواية معرفة أصل الأشياء، فأيّ لعبة تصل إلى يديه تتحوّل في لحظات إلى أشلاء، فهو يرى أنّ اللعب والهدايا التي نحضرها له لم يتمّ صنعها بشكلٍ سليم، ودائمًا كان يقول لأبيه:

- بابا أنا هاصلّحها علشان بايظة.

وكان ينطق الحروف بشكلٍ مُضحك، لكن لا يضاهي «بوسي» أحد في نطقِها للحروف، فهي تنطقها بشكلٍ كوميدي بسبب مشكلة لديها في الكلام.

«أدهم» ذلك العبقري الفذّ الذي ضلَّ الوصول إلى وكالة ناسا للفضاء، وجلس في وكالة «لبنى» (ربّنا يجعله عامر) للألش وللهراء، قال لي في أحدِ الأيّام عندما كان في السّابعة من عمره ونحن جلوس في حجرة المعيشة:

- ماما، تخيّلي حضرتك لو الحوض بقى مكانه في السّقف، تفتكري هنعرف نغسل إيدينا ازّاي؟! أو مثلًا لقينا السّراير على الحيطة، هنتصرف ازّاي!؟

لم أجدْ إجابة منطقيّة تُنهي هذا النّقاش، ففكّرت في شيء يتناسب مع الفكرة، ويغلق بابَ الاقتراحات اللولبيّة واللوذعية فقلت له:

- عادي يا «أدهم» وقت ما ده هيحصل هنكون كلّنا اتحوّلنا لقطط أو ابْراص أو فيران، إنتَ اختار النّوع اللّي هيناسبك ويسهّل عليك الوصول للسرير أو للحوض!

لكنّه قال لي:

- هو ليه يا ماما حضرتك تفكيرك محدود! أنا عن نفسي هافضل إنسان، بسّ هاكون سبايدرمان، وحضرتك مُمكن تفضلي ماما وتبقي سبايدر وومان!

عند هذا الحدّ من الحوار آثرتُ السّلامة حفاظًا على المتبقّي من عقلي، وأنا التي أنهيتُ النّقاش وقلت:

- حضرتي هتاخد تفكيرها المحدود ده وتروح تغسل المواعين قبل الحوض ما يتشعلقْ في السّقف واحتاس، تحبّ أعملّك «هوت تشوكليت»؟

لم يردّ عليَّ، فقط أومأ برأسه وجعل يقلّب في قنوات التلفاز

ليشاهد فيلمًا كرتونيًّا عن الرّجل العنكبوت، لم تتوقّف أسئلته أو اقتراحاته، ولا حتى تعليقاته على ما يدور حوْلنا لدرجة أنّني شككتُ أن يكون تمَّ حقنُه بشيء عجيب عندما كنّا في أفريقيا، فهو لا يهدأ أبدًا، وكانت تراودني أفكارٌ شرّيرة أن أرسله لحماتي سعاد (وأضرب عصفورين بحجَر) سيتسبّب في انشغالها بالردّ على أسئلته العجيبة، وفي الوقت نفسه (تتلهّى) عنّي قليلًا، وأنا أرتاح من أسئلة «أدهم»!

***

مرّت السّنوات، وكبر «أدهم»، وظلّت مشاكل الدّراسة بيني وبينه لا تنتهي، فهو دائمًا يعمل عقله فيما يشتّت عقلي، ويجعلني صيدًا سهلًا لفخاخِه التفكيرية، وعندما أصبح في المرحلة الإعدادية، قال:

– على فكرة يا ماما، أنا شايف إنّ التّاريخ اللّي بندرسه ملوش أي لازمة، يعني حضرتك أنا هاستفيد إيه بأحمد عرابي، واللّا سعد زغلول!؟ هينفعني بإيه في حياتي، صدّقيني ولا له أيّ لازمة، وحضرتك طبعًا هتقولي لي، التاريخ عبرة وتعليم، هاقول لحضرتك إنّ المقولة دي بتاعة الكسالى، إحْنا مفروض نتعلّم تاريخ الأمم المتقدّمة، مش تاريخ الدّول اللّي طول عمرها محتلّة، وعمومًا أنا شايف، لو إنّهم سمحولي أقول رأيي في التعليم! أكيد....

أقاطعه:– اسمحْ لي أنا أقولّك إنّك عندك حقّ! وإيه رأيك سيبك من التّعليم وتنزل عند عمّ إبراهيم اللّي بيصلّح الكاوتش هو محلّه قريّب

من هنا! بدل ما تجيب لنا مصيبة أنا وأبوك بتحليلاتك السياسيّة دي، علشان مُمكن ألاقيك عدّيت الخطوط الحمرا وبدأت تتكلّم عن الأستاذ المهندس أحمد عزّ والأستاذ الدكتور فتحي سرور! أو حبيب باشا.

بمجرّد انتهائي من جُملتي، أُفاجأ بردٍّ جعلني أندم أنّني تفوَّهت بهذا الكلام أصلًا، قال لي:- مين أحمد عزّ! الممثّل؟ وفتحي سرور بيشتغل إيه؟!

قلت له: - أبدًا دول اتْنين كانوا معدّيين من تحت البيت، أيوه اتفضّل حضرتك كمّل كلامك! ويا ربّ نخلص النهارده، أمّا حبيب باشا، فالحمدُ لله إحنا منعرفهوش.

طبعًا لم ينتهِ النّقاش بتهديدي له بالعمل في الورشة؛ بل اشتعلَ أكثر، فقد اعتدل في جلسته، وقال لي باسمًا:

- أمّا بخصوص عمّ إبراهيم، والله فكرة يا ماما، حتى مصطفى اللّي بيشتغل هناك صاحبي، وبحبّ أقف معاه لّما بروحله مع بابا وهو بيصلّح كاوتش العربية، تعرفي بيكسب قدّ إيه!؟ طيّب تعرفي إنّه بيعرف كلّ أنواع العربيّات، ده شاطر جدًّا!! ويُرْدِفُ بهدوء: موافق يا ماما!

وأنا أوافق على إنْهاء الحوار، وأجرّ أذيال الهزيمة وأتّجه لحجرتي أرتمي على سريري راغبةً في النّوم بعد جلسات التّنمية الحوارية الصاخبة هذه!

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ الثّامن

ضوافر وكُحل

يدقّ باب الحجرة، ويأتيني صوت «هنية» خائفًا:

- يا مدام «لبنى»، المدام سماح، أمّ فريدة وعبد الرحمن جارتنا، جات عندنا وعاوزاكِ، أجولّها إنّك نايمة.. هاه؟!

أردّ عليها بهدوء:

- هو لازم تعرّفيني بيها بكلّ الكلام ده؟! هو في غير سماح واحدة! وليه تقولّي لها إنّي نايمة هنكذب يا «هنية»؟!

تردّ وصوتها يظهر عليه القلق:

- لأنّ حضرتك جولتيلي لو بسّ حصلت مصيبة آجي واجولّك، وهو عشان مفيش مصيبة حصلت أنا خايفة تزعَّجي، بسّ مينفعش أسيب الستّ أمّ فريدة متلجّحة وحديها برضيكِ! هو ينفع أسيبها يا مدام؟

أقول لها من خلف الباب، وبصبرٍ شديد يكابد غضبًا يتقافزُ أمام عينيَّ:

- روحي يا «هنية» اعملي اتْنين قهوة، وقولي لمدام سماح إنّي جاية على طول، ومش هازعّق لك ولا حاجة، يلَّا..

تردّ قائلة: طيّب لو جالت مش عايزه جهوة، أعمل إيه أنا دلوكت؟! أسيبها ومجدّملهاش حاجة واللّا أعمل الجهوة غصبًا عنها؟

أقول لها بصبرٍ مازال يهدهد غضبي ليهدأ، وأستغرب مِن أين جاءني:

– روحي يا «هنية» اعملي أيّ حاجة عاوزاها مدام سماح، وخلّيني ألبس وآجي أشوفها.

***

سماح جارتي منذ ثلاث سنوات، هي عمرُ وجودِنا في هذه الشقة، قبل الانتقال لشقّتنا هذه كنت أعيش في سيرك مع صغاري المشاغبين؛ كان سببًا في البحث عن مكانٍ أكثر استقلالًا وهدوءًا، وكي يتمتّع قرودي بحريّة المشاغبة، وأتمتع بدوري بحريّة الصّراخ فيهم دون أن أزعج الجيران، أو أنْ يعرفوا شيئًا عن سوء طبعي الذي زاد مع تقدّمي في السنّ والإنجاب (كما تقول سعاد)! ما سبق بالإضافة لنموّ الأبناء ودخولهم في مراحل العِنْد والرّفض؛ جعل البيت حلبةً لمصارعة الثيران لا تهدأ، فكان لا بدَّ من التحرّك سريعًا، وقد كان..

لقد استطعنا الانتقال إلى منطقة هادئة ونائية هربًا من صخب القاهرة وجنونه المدمّر لأعصاب البشر والمخلوقات، بالإضافة لأهمّ شيء؛ الحفاظ على سريّة حياة النّاس، فعائلتي تتّصف– من

وجهة نظري- بالجنون المفاجئ، والذي لا بدَّ معه من وجود السّتر، وإلّا فضيحة مصحوبة بربابة! وأحيانًا اتّصالات بالشرطة لأنّنا عصبة مجانين! لذا كان ولا بدَّ أن يكون للمكان الذي سننتقل إليه مواصفات خاصّة، ومن فضل الله علينا ثمّ سعْي وجهد جهيدٍ من «يوسف» استطعنا الحصول على هذه الشّقة في تلك البناية التي لا يقطن فيها سوى نحن- والأشباح- وجارتنا سماح التي تعيش بمفردها وولديها بعد سفر زوجها.

تلك السيّدة الرقيقة التي ما أنْ تدور بيننا الأحاديث حتى أشعر وكأنّ أنثى العنكبوت قد تلبّستني، أمّا هي فسيّدة ناعمة، صوتُها همس (إحم زيّي أحيانًا)!

أقوم بتبديل ملابسي، وأخرج من حجرتي لأستقبلها وأنا مبتسمة وباشَّة، فأنا صدقًا أحبّها، وهي مصدر الطّاقة الإيجابية في حياتي! وبمجرّد أن تراني تفتح ذراعيها وتستقبلني بحضنٍ طيّب حنون، وبصوتٍ مثل همس العصافير تقول لي:

- إزّيك يا «لبنى» يا حبيبتي، والله وحشتيني جدًّا، إنتِ مش باينة ليه؟

أضحك بخجلٍ وأقول لها:

- أنا برضو مش باينة!! طيّب وصوتي مش باين برضو؟ دي

عصبيّتي واصلة للسّاحل الشمالي.

تقول برقّة: – ليه يا «لبنى» يا حبيبتي العصبيّة دي، روّقي وفرفشي كده، صحتك بالدنيا، والله يا «لبنى» محدّش هينفعك لمّا تتعبي.

أضحك حتى تدمع عيوني، وأقول لها:– والله إنتِ طيّبة يا سماح، بسّ تعرفي إنتِ جيتِ متأخّرة، كان لازم نتقابل قبل ما اتحوّل لديناصور!

تُرَبِتُ على كتفي وتقول: – سيبك من الكلّ، حبّي نفسك واهتمّي بيها.

ثمّ تطوّر معها الأمر، وقالت لي أشياءً عجيبة، قالت لي:

– إوعي تنسي السّبا (السّونا والتّدليك والجاكوزي) والجيم والبروتين لشعرك، بوتوكس لشفايفك، كلّ الحاجات دي هتفرق معاكِ جدًّا وهتحسّن نفسيتك، وهتخلّيكِ طايرة من السعادة.

أبتسمُ ابتسامة البليد الذي طلب منه التفوّق وهو لا يفقه شيئًا، وأقول لها:

– طبعًا طبعًا يا حبيبتي، والله يا سماح فكرة، أنا فعلًا نفسي أطير بسّ مشكلتي الوزْن، أخسّ وأشوف حلّ لموضوع الطيران ده..

وأقرّر أن أغيّر الموضوع قبل أن تكلّمني على عمليّات الشفط! سبا وجيم وبروتين! وطيران كمان! لا وبوتوكس لشفايفي! «اللّهم

صلِّ على النبي» إحْنا عيشتنا هتبقى فلّ! وأقول لنفسي مندهشة:

- الستّ الرّايقة دي من أيّ كوكب، ده أنا وكلّ أمّهات أصحاب عيالي نعتبر مسجّلين خطر، ويمكن أنا أعتبر النّسمة بتاعتهم، سبا وطيران، وبوتوكس، أنفخ شفايفي يا سماح! دا إنتِ من كوكب العصافير، وأنا من كوكب الموريستان، ربّنا يبعد عنها الأشكال اللّي شبهي، أكيد وجودها معايا هيخلّيها تقرقض ضوافرها بدل من الباديكير والمانكير!

تنظر لي باندهاش قائلةً وهي تضع فنجان القهوة:

- بصّي.. في جيم فتحْ قريّب، إيه رأيك أحجزلك؟ وقتها ملكيش حجّة وهتخسّي وهتبقي زيّ المانيكان! بجد يا لبني وافقي وافقي علشان خاطري، هتنبسطي أوي.

أقول لها ضاحكة: - حاضر هاتِ المواعيد وأنا أظبّط أموري!

بعد رحيلها أتذكّر كلامها هذا فأضحك كالمجنونة! وأشعر أنّ هناك مغناطيسًا جاذبًا للشّخصيات المختلفة عنّي يتحكّم في حياتي، ولكنْ إحقاقًا للحقّ عِشْرة سماح لطيفة وممتعة، ذلك لأنّها تعيش في عالم تاني مقرُّه الدّائم فوق السحاب أو داخل استوديوهات الكارتون، فلا علاقة لها بعالمنا الأرضي السّخيف، كنت أسمح لنفسي ببعض الوقت معها، والانتقال من جنون بيتي إلى سكون

وهدوء عالمها الخيالي! ولم أستغرب عشقَ «بوسي» المكوث عندها كثيرًا، فهي تحبّ فريدة وبودي وتعشق طنط ثماح علشان طيّبة ومش بتزعّق كتير زيّ مامتها الغوريلّا.

* * *

«بوسي» أصغر أولادي، شخصية ناريّة مُلتهبة طول الوقت تشعل البيت مشاكل! رغم أنّها تبلغ من العمر 6 سنوات، لكنّها والمشاكل توأم سيامي، لديها مشاكل في نطْق الحروف، فلقد تأخّرت في الكلام ولا أعلم سببًا لهذا؛ فكلّ أهل البيت (برباند) منطلقو اللّسان، ولكن أظنّ أنّها لكوْنها الصغيرة أهملناها، رغم قرب سنّها من «رمضان»؛ لذا وبسبب هذا التأخّر، نداوم على الذّهاب إلى جلسات التّخاطب دون كللٍ أو ملل، وسبحان الله هي تستطيع النّطق صحيحًا على حدّ قول الطبيبة، لكنّها تعاندنا، وترفض الأوامر، ومازلنا نعاني في فكّ شفرات الحروف!

وهي أيضًا ذاتُ طبيعة مختلفة؛ فهي أيضًا لها طقوسٌ عجية عند الاستيقاظ، تختلف عن كلّ أبنائي، فعندما تستيقظ لا بدَّ أن تفزع كلّ الكائنات الحيّة في البيت، فهي تشعرك أنّ سارينة المطافي أو الإسعاف قد انطلقت لتجوب أنحاءَ المنزل، وإذا حدث واستيقظتُ أنا بعدها، أقوم أجدُ قلبي يكاد يتوقّف من سرعة الدّق؛ ذلك

لأنها عندما تستيقظ تصرخُ صراخَ الطّير المذبوح! وأوقات كثيرة كنت أستيقظ على صوتها، وبعدها بقليل أجدُ دقّات شديدة على باب شقّتي، فالجيران يُهرعون إلينا بملابس المنْزل، عارضين علينا المساعدةَ لنقل المصاب إلى المستشفى، أو الاتصال بأهلي ليرتّبوا إجراءات دفن المتوفَّى، فهي رغم أنّ حجمها صغيرٌ، إلّا إنّها تمتلك حنجرة أوبراليّة! (إحم) أعلم طبعًا مِن أين أتت بها! وأتذكّر كلام جدّتي- رحمها الله- والمثل الذي كانت تقوله لي:

(القدّ قدّ الفولة والصوت صوت الغولة!)

تلك الصغيرة دقيقة الحجْم لكنّها دائمًا تصنع قلقًا يعادل في حجمه حجمَ الجبال، ولديها مشاكل كثيرة في التّـأقلم مع مَن حوْلها (يا الله، عامل الوراثة له الأثر الشديد) وتتعالى على الأشياء والبشر؛ فهي ترفض سيارتنا، وترفض الشّغالة، وترفض إخوتها وتتقبّل أباها على مضَض، أمّا أنا فزوجة أبيها، ولهذه القصّة سببٌ سأذكره لاحقًا، ترفض مرافقتي دائمًا، وتدّعي أنّني أتسبّب في إحراجها أمام صديقاتها

(هذه البذرة لها صديقات تحرَج أمامهنّ)!

فهي ترى أنّ سيارتنا غير لائقة، وتريدها أوتوماتيك، وأنها (أعفن عربيّة في العيلة)، وهذا يجعلها تخجل من ركوبها، فتلك العربة (بيئة) وللعجب «رغم أنّه لا عجب مع «بسنت» هانم» فإنّ

السيارة التى لا تروق لها سيارة حديثة، ولكنّها «بيئة» من وجهة نظرها لكوْنها ليست أوتوماتيك!

***

كانت زيارة سماح خاطفة ومريحة، وأيضًا ممتعة- تأتي «هنيّة» لتحمل فناجيل القهوة والصينية ثمّ تقول لي:

- هي «بوسي» هتفضل نايمة لغاية دلوكت هي و»رامي»، مش كفاية عليهم كده نوم؟!

أردّ على سؤالها وأنا أتصفّح مجلة بجواري تركتْها لي «سماح» قبل مغادرتها:

- سيبيهم نايمين بلاش أذيّة يا «هنية» هانم، وروحي إسقي الزرع، وحطّي رز للعصافير على سور البلكونة علشان ميدخلوش ياكلوا الزرع.

تردّ عليَّ قائلة:

- يا مدام طريجتك في ريّ الزّرع عفشة ومش صحّ، ولازم تسْجيه مع المغرب، كده هيفطس ويموت.

أشير لها دون أن أرفعَ نظري وأقول: - إمشي اعْملي اللّي بقولّك عليه وملكيش دعوة، يعيش يموت ميخصّكيش!

وكأنّها كانت تنادي على «بسنت» بذكرها إيّاها، وما أنْ تغادر

«هنية» حتى أجد «بسنت» قادمة وهي ترسم على وجهها تكشيرةً عميقة، فأسألها:

– فيه إيه يا حبيبتي!؟ صباح الخير أولًا يا «بوسي».

تقفزُ وتجلس بجواري وتقول لي: – عندي مشكلة يا ماما..

أتوجّه بكلّ جسمي ناحيتها ثمّ أشرع بوضْعها على حجري فترفض، فأقول لها:

– بلاش، براحتك، خير! في إيه؟!

«بسنت» لا تكتفي بالصّراعات التي تنشئها داخل البيت؛ بل تأتيني بمشاكل من الخارج.. قالت:

– لو ثمحتِ يا ماما تيجي معايا الحضانة.

فسألتها: إيه سبب الطّلب المفاجئ ده يا حبيبتى؟!

فكان ردّها أن قالت:

– الميِث بتاعة القولآن مثتقثداني! علشان أنا ثألتها: يا ميث إنتِ مثيحية؟ أنا ثألتها ثؤال عادي! ليه تزعّق فيّا كده؟!

في الواقع أنا لم أشعرْ بنفسي إلّا وأنا أصفِّق وأُغنّي مثل ألتراس الكرة من هول المفاجأة، فهذه العادة التقطتها رغم سنّي هذا ودون أن أدري مِن أولادي، ثمّ ما لبثت أنْ جاءت «هنية» على صوتي وهي تزغرد وتسأل: – خير يا مدام حصل إيه!

ودون أن أجاوبها بدأت في طرح الاحتمالات: - ألف مبروك يا مدام على النّجاح، واللّا هوّ خبر جواز مين؟ ثمّ تكلّم نفسها عندما لا أردّ عليها فتقول:

- أيوه أيوه، خلاص فهمت أكيد حدّ رجع من الحجّ! هوّ مين اللّي رجع من الحجّ يا مدام؟

أصرخ فيها قائلةً:

- إمشي من هنا، همّا بتوع مستشفى المجانين تايهين عنّك ليه، هو في حدّ بيحجّ في رجب؟!

تنظر لي باندهاش مَن سمع خبرًا لا يمكن لعقله أن يصدّقه ثم تقول لى:

- وما له رجب يا مدام! همّا هيحرّموا فيه الحجّ لبيت ربنا؟! ده إيه الكلام ده!

أصرخ فيها:- همَّا مين اللّي هيحرّموا! يخرب عقلك الخربان أصلًا، يا بنتي إيه.. إيه؟ إنتِ متسلّطة عليّا!! مين سلّطك هاه... قولي.

تتابع ثورتي وغضبي وهي (لاوية بوزها) ولا تنطق بكلمة، فصراخي فيها ألجم سيلَ كلامها، فلم أنتَهِ من كارثة «بوسي» حتى تأتي لي «هنية» هانم!

ثمّ أنهرها لتغادرني، فتذهب وكالعادة تبرطم قائلة:

- هوّ إيه الظّلم ده، ما كلّهم شهور ربّنا، المدام بقت عصبيّة قوي!

جلست أنوح، وكاد نُواحي يصلُ بي إلى اللّطم، ولولا خوفي من الله لفعلتها، خاصّة بعد أحضرت لي «بوسي» إيشاربًا من إيشارباتي وقالت لي:

- خدي يا ماما الإيشالب ده أولبطية على لاثك علشان شكلك يبقى حلو وإنتِ بتثلخي، علشان تبقي شبه ملات عبد الغفول البولعي!

نظرتُ إليها برهة أستوضح ما هذا الذي تقوله! فشغلت برنامج فكّ الشّفرة، ففهمت أنّها عندما رأتني أصرخ، قرّرت أن أكمل المشهد بأنْ أربط الإيشارب على رأسي مثل زوجة عبد الغفور البرعي في مسلسل لن أعيش في جلباب أبي! وبحركة تلقائيّة، أخذت منها الإيشارب وربطته على رأسي لأنّها كادت تنفجر! فما تقوله «بوسي» قد يذهب بعقل الحكماء أدراجَ الرّياح ولا يعود أبدًا، بعد أن هدأت قليلًا تفكّرت مِن أين لها بهذه الفكرة؟! هذا المفهوم غريب عن بيتي وعن محيط معارفي، فأنْ تكون معلّمة القرآن قاسية مع «بسنت» وتضطهدها وارد جدًّا نتيجة شغب «بوسي»، وإزعاجها! وارد أن تؤول شدّتها بالقسوة والاضطهاد، أما أنْ تكون مسيحية فهذا يستحقّ التّفكر (مدرسة القرآن مسيحيّة)! فكيف لها بهذا المنْطق المضحك والرّكيك؟! ضغطتُ على أعصابي وتقمّصت

دور الأمّ الهادئة طويلة البال، وضحكت ببرود وسألتها وأنا كاتمةٌ دهشتي حتى لا تتّهمني بالسخرية بمشاعرها الرّقيقة، آه والله ابنتي (الأوزعة) تقول كلامًا أكبر بكثير من عمرها وقدراتها اللغويّة، ورغم عجزها عن تركيب الحروف والكلمات بشكل صحيح، فتنتقي أصعب الكلمات لتنطقها بشكلٍ كوميدي، لكنّها ترفض السماح لي بأن أعبّر عن استغرابي لأي كلمة غريبة تقولها:

– «بوسي» يا نور عيني، ليه مسيحيّة؟ وازّاي مستكدصاك؟!

تردّ وهي متحفّزة:

– أثلها يا ماما عندها ضوافل، وبتحطّ كحل في عنيها! تثولي يا ماما!

وأنا من مكاني هذا أتصوّر طبعًا أتصوّر، دي أكيد مسيحيّة، وكمان مسيحيّة من أوروبا، يا سلام (اللّهم صلِّ على النّبي، بنتي عبقرية)، وطبعًا كيف لي ألّا أتصوّر أيّ شيء مع «بوسي»!

اقتربتُ منها ثمّ أخذتها في حضني، وحاولت أنْ أشرح لها أنّ ما تقوله عارٍ تمامًا من الصحّة، ولا أساس له، بدليل أنّ عمّتها تربّي أظافرها وتضع الكحلَ وأيضًا جدّتها «أمّي» تضع الكحل! فانتظرت اقتناعها بدليلي هذا.. فنظرت إليّ بلامبالاة وقالت بمنتهى الثقة:

– يبقى تيتة وعمّتو مثيحيّين، أكيد، أكيد.

أُسْقِط في يدي، أقوم من مكاني وألفّ في البهو دون هدف

وأنا لا أعرف ما الذي يجبُ عليَّ فعله؟! وأشعر أنّ بوادر أزمةٍ قلبية عنيفة قد تقتنص عمري، وبدأت أشكّ في نفسي، هل أنا السّبب؟ هل لأنّي توقّفت منذ زمن بعيد عن وضع الكحل في عيني؟ فهذا منطقي بالنسبة لها، فأنا لم أكنْ يومًا مغرمة بمساحيق التجميل! ولم يرغبْ «يوسف» أن أستخدمها، حقًّا أنا في ورطة. أتحرّك في اتّجاهها وهي جالسة تُحدِّق في أظافرها، ثمّ أجلس بجوارها، فتنظر إليَّ ببراءة مَن ينتظر حلولًا لهذه المشكلة، أقرض أظافري مثل الفأر عندما يجد قطعة خشبٍ سهلة القرض! وأسأل نفسي لماذا ظنّت أنّ معلمة القرآن مسيحيّة؟ هناك سرّ لا أعرفه وقد تكشفه هي لي فسألتها بهدوء:

– «بوسي» يا حبيبتي مين قالّك إنّ المسيحيّين بسّ همّ اللّي بيحطّوا كحل وبيربّوا ضوافرهم؟

وبعد أن ألقيت السّؤال انتظرت الردّ وعقلي يفكّر.. هل مِن إجابة عن هذا السؤال، فتهزّ كتفيها بلا مبالاة، ثمّ تنظر لكفّها الصغيرة وتقول لي:

– «هنية» هي اللّي قالت لي كده!

أصرخ قائلةً: – يا سلام! ومِن إمتى إنتِ بتسمعي كلام «هنية»؟!

لا تردّ عليَّ، وجعلت تتابعني في هدوء، أستغفر ربّي وأدعوه في

سرّي بأن يلهمني الصّبر، وألّا أُصاب بارتفاعٍ في ضغط الدم من وراء هذه الـ»هنية» التي لا هناء يأتي من ورائها! إذًا هي سبب هذا التحوّل العميق في آراء ابنتي، لكنّي أستدرك وأقول لنفسي:

-»هنية» لا ذنب لها، فهي لم تصل إليها المعلومات الصحيحة، وهي تجتهدُ مثل باقي البسطاء، وتستمع لبعض الأفكار البالية المنتشرة في القري والرّيف، والتي لا تمتّ للدين الحنيف بأيّ صلة، هذا الموقف أظهر لي كم نحن مقصرون مع هؤلاء البسطاء، ويجب علينا أن نعرّفهم أبسط أمور دينهم، وأن لا نتركَهم لقمة سائغة للدجّالين والمنافقين ومدّعي الالتزام!

***

«هنية» فتاة ريفية، عمرها حوالي 16 سنة، تعمل لديَّ منذ عامين أو أكثر، مشاغبة، تتحدّث كثيرًا، فيلسوفة ولا أفلاطون، أو ديكارت، لها هوايات عديدة أهمّها الجدال معي ومحاولة إثبات أنّي لا أصلح لأكون زوجة أو أمًّا، وتعشق التلفاز والأغاني، وأيضًا تفعلُ بي ما تفعله الأذن الوسطى بالإنسان عندما تلتهب، وتتسبّب في تدمير خلايا هدوئي العصبيّة، وتتعامل مع «بوسي» صغيرتي (الزّومبية) على إنّها ندٌّ لها! فدائمًا تأتي إحداهما تصرخُ وتشتكي من الأخرى كأنّهما في العمر نفسه!

لقد ظهر بانتقالنا للبيت الجديد أهمّية وجود شغّالة في البيت معي، تساعدني وتخفّف عني بعض المسئولية، فالبيت أكبرُ، والأولاد الصّغار سنّهم متقارب، فكان ولا بدَّ من وجود شغّالة مقيمة تساعدني، ووقع الاختيار عليها صغيرة يتيمة أحضرَها لنا طلعت سائق جدّي، فهي قريبة له من بعيد، هذا الكائن المزعج أكثرُ إنسان يرهقني عصبيًّا، وأيضًا يُدْخِل الابتسامَ على قلبي!

وكوْن «هنية» من الرّيف، من البحيرة تحديدًا، فهي مثل الكثير من الريفيّين (تبدل القاف بحرف جيم) وكانت أولى صدماتي عندما وجدتها أوّل يوم تأتي للعمل عندنا تحدّثني بكلام لم أفهمه في أوّل الأمر، ولم أستطع معرفة ماذا تريد، فقد كانت تتكلّم بجديّة وقرف في آنٍ واحد، قالت لي:

- يا مدام أنا لجيت الجلم العفش ده متلجّح في درج المطبخ!

فما كان منّي إلّا أن فتحت فمي في حالة ذهول، وأنا أحاول أن أفهم بأيّ لهجة تتحدّث معي، إلى أن قالت لي وهي تشاور على قلمٍ صغير، كان «رمضان» ابني قد قام بعضعضتِه وتشويه معالمه:

- (الجلم ده، ده يا مدام).

عندها عرفت الشّفرة وقرّرت تحويل كلّ حروف الجيم إلى قاف، ولكني وقعت في مأزق، هناك بعض الكلمات تتكوّن من

حرف الجيم طبيعيًّا ودون تلاعب من «هنيّة»، مثل الجراج، والجنية، والجنينة، وبعد قليل استطعت أن أعرف ما تقصده دون إعادة الجيم لقاف، ولكمْ أنْ تتخيّلوا بأيّ مفردات تناقشني وتتعامل معي! فهي تتعامل كأنّني أنا التي تعمل عندها! وليس العكس، فكنت ومازلت أحتمل شطحاتِها وجنونها فهي أرحمُ بكثيرٍ من العاملات اللاتي يأتين ويرحلنَ في اليوم نفسه.

***

أخرج من ذكرياتي على صوت «بسنت» وهي تنادينى، أنتبه لها وأقول:

- إن شاء الله هاروح معاك للحضانة، بسّ مُمكن تروحي لـ»هنية» علشان تدخلي الحمّام وتغيّري هدومك، وتيجي بعد كده علشان تفطري.

تُعطيني قبْلةً ثمّ تقول لي: - إنتِ أجمل ماما.

ثمّ تقترب منّي وتنظرُ في وجهي، وتقول:

- هو انتِ ماما فلعن! واللّا ملات الاثتاث يوثف!؟

أجذبها من يدِها وأسألها: - مين الأستاذ «يوسف» ده؟!

تضحك وتقول لي: - بابا. أثل «هنية» بتقولّه يا اثتاث يوثف، عاوثة منّي حاجة يا مدام؟!

أنفجرُ في الضّحك فقد منحتْني «بوسي» ضحكًا لا أطمعُ فيه أبدًا في هذا التوقيت. ثمّ أقول لها: – (مدام)! ثم أناديها تعالي، إيه حكاية مرات يوثف دي أقصد «يوسف»؟!

تضحك وتقول بمنتهى البراءة:

– أثلك مش شبهنا، بثلاحة، «هنية» بتقول إنّها ثمعت تيتية ثعاد بتقول: إنّ احْنا أولادها مش أولادك، علشان حضلتك مش شبهنا!

ثمّ تجري أمام «هنية» التي جاءت لتأخذها لتغيّر لها ملابسها، «هنيّة» أصبحت المعلّم المرشد لابنتي، وحماتي تعبث في عقول أولادي من ورائي كالعادة! ولا أدري متى سيتوقّف هذا الأمر؟! فهي تتعمّد إهانتي وإيلامي بأيّ صورة، ولا تراعي أيّ توقيت، ولا أيّ ظروف، حماتي هي الإنسان الذي يتغذّى على وجع الآخرين!

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ التّاسع

أمّ عزت

أتذكّر عندما كنتُ في أواخر حمْلي بـ«بسنت»، وكنّا في زيارة روتينيّة لحماتي؛ أصرّ «يوسف» عليها خوفًا من غضب والدته، ورغم تعبي وثقل الحمل، إلّا إنّها لم ترحمْ هذا، فبمجرّد أن دخلنا، وجلست أحاول أن أتنفّس بشكل طبيعي، وجدتُها تنظر إليَّ وترفع حاجبيها ثمّ تقول لـ«يوسف»:

- هيّ مراتك مش خايفة على نفسها أحسن تموت أو تجيب عيّل مُعاق؟ مش كان كفاية «أدهم» و«رمضان»، ربّنا ستر وجُم سولام مش متصابين بمرض علشان سنّها الكبيرة!

يُقلِّب «يوسف» نظرَه بيني وبينها خائفًا من أمّه أن تبدع في إهانتي أكثر من ذلك وهو يظنّ أنّ كلامها القاسي القميء لم يصلْ إلى مسامعي بعد! ولكنّها تستمرّ في الكلام السّخيف الذي تقوله عنّي وفي حضرتي، وكأنّني من الهند لن أفهم لغتَها إذا وجّهت إليَّ الكلام؛ لذا تُكلّمه هو، فهو المترجم! أضعُ يدي على بطني فقد شعرت بتقلّص نتيجة السمّ الذي رمتني به، وأصرخ في «يوسف» وأقول له:

- هوّ مش كان بيتقال لي يا «يوسف» إنّي (أرض بور) دلوقت بقيتوا خايفين عليّا واللّا خايفين ييجي لكم عيّل معاق!! والله مفيش مُعاق غيرنا.

ثمّ أحاول الوقوف، وأقول بصوت واهنٍ ضعيف:

-»يوسف» عاوزة أروَّح.

ينظر «يوسف» إلى أمّه التي تدير وجهها عنّي بغضب وكأنّني أنا التي أهنتها وعايرتها بعمْرها! وكان يأمل أن تطيّب خاطري لكنْ للأسف لم تفعل.. وفجأة، تعلن «بسنت» عن حضورها، ورغم أنّ إعلان وصولها أنهى الكارثة التي كادت تحدث بيني وبين حماتي؛ لكنّه كان بدايةً لكوارثَ كثيرةٍ قامت بها «بوسي» الأميرة!

لقد غيَّرت حياتي تمامًا، فأصبحت أعيشُ في مستشفى العباسية (مستشفى المجانين).

***

أعودُ من ذكرياتي على صوت «بوسي»، فقد غيَّرت ملابسها وجاءت وفي يديها ساندويتش صغير وكوبٌ من العصير، ثمّ جلست بجواري وقالت وهي تصدر صوتًا رقيقًا:

- ماما يا حبيبتي، أضحك وأقول:

- يا حبيبتي دي مش لله! نعم يا بوسي.. عايزه إيه؟!

تضع ما في يدها على المنضدة ثمّ تقفز لتحتضنني وتكرّر جُملتها وهي تفتعل الجديّة وعاقدة حاجبيها بشكلٍ ينمّ عن خطورة الموضوع:

– يا ماما يا حبيبتي، أنا محتاجة ألوح لفليدة علشان نخلث اللّعبة بتاعة إمبالح! وأصل بودي الليخم غلبنا وإحنا عاوثين نهزمه ونخلّث عليه!

أبادلها الجديّة وأقول لها: – إيه اللّعبة الخطيرة اللّي بودي غلبك فيها إنتِ وفريدة وعاوزين تهزموه ومصمّمة على الموضوع مِن بدري! السّاعة دلوقت 10 ونص! اصبري طيّب لمّا يصحى «رامي»!

تنزل على الأرض، ثمّ تدقّها بقدميها وتصرخُ قائلة:

– لمضان لا يا ماما، أقثد لامي لا، ده غلث وبيعمل حاجات وحشة، بيثعّق لي وبيغلبني لأنّه أشطل من بودي! ولمّا بييجي معاي هناك بيلخّم قوي.

وقبل ما أنطق بكلمةٍ أجدُ «رمضان» قد هلَّ علينا وجلس أمامي قائلًا:

– صباح الخير يا ماما، لو سمحتِ قولي لـ»بسنت» متنامش عندنا تاني في الأوضة، لأنها طول ما هي نايمة عمّالة تتخانق في الحلم مع بودي وفريدة، وفي الآخر لقيتها بتشتمني وتقولّي يا غلس يا رخم، بصراحة أنا مش عارف أنام منها، لو جات أوضتنا هاروح أنام في أوضتها.

تصرخُ «بسنت» قائلة:

– إيّاك يا لمضان تقعد في أوضتي، دي بتاعت البنات، ومش هتنام فيها.

أحاولُ فضّ النّزاع فأقول له:

– يا رامي دي أختك الصغيّرة، وبتيجي تنام عندكم علشان خايفة.

يردّ بهدوء:

– هيّ كذّابة ده أولًا، ثانيًا دي تخوّفنا كلّنا لأنّها شقيّة جدًّا وبشعة، أنا بكره البنات، وبنتك السّبب.

وطبعًا لحقْنِ الدّماء أنادي على «هنية» التي تأتي بتمهّل وهي تحمل كوبَ اللبن لـ«رمضان» وتقول له:

– اتفضّل يا «رمضان»، اللّبن أهو يا أبو صيام، صباح الفلّ!

ينظر لها بقرفٍ شديد ويقول لها:

– «هنية» كام مرّة قلت لك متنْدهيش عليّا بـ«رمضان»! وإيه أبو صيام دي؟!

أنفجرُ في الضّحك، فينظر إليَّ «رمضان» معاتبًا، فأقول له:

– معلش يا رامي أنا أصلي افتكرتْ حاجة. ثمّ أعتذرُ له، يتابع وهو عابسُ الوجه:

- «هنية» ملكيش دعوة بيّا خالص، وتناديني وإنت بتقولي يا رامي بسّ، والله، والله أنا قرفت من البنات اللّي في البيت ده.

أقول لـ«هنية»:

- خدي «بوسي» ودّيها لمدام سماح، هتلعب مع فريدة وعبد الرحمن.

تقاطعني «بسنت»:

- بودي يا ماما مش عبد اللحمان.

هنا يتدخّل رامي ويقول لها:

- أُمَّال بتندهي عليّا ليه بـ«رمضان» يا سخيفة؟! بجدّ إنتِ «أوفر» رخامة!

أشاور لـ«هنية» كي تبتعد، لكنّها تقول له:

- على فكرة، الأستاذ حسن مصطفي في مسرحيّة العيال كبرت كانوا بيجولوا له يا «رمضان» يا أبو صيام، ليه انتَ زعلان جوي كده، الحجّ عليّا بدلّعك.

ينفخُ «رمضان» قائلًا:

- إمشي يا«هنية» وخدي كوبّاية اللّبن دي، أنا مضمنش درجة نضافتها، إنتِ شخصيّة عكّاكة.

هنا وعند هذا الحدّ، أقوم من مكاني وأسحبُ «هنية» و«بسنت» وأدفعُ بهما في اتّجاه باب الشّقة، وأعود لـ«رمضان» وأنا أرسم

الغضبَ على وجهي، وأقول له:

- يا»رمضان» أاقصد يا «رامي» الكلام اللّي قلتُه لـ»هنية» ميصحّش، لأنّها نضيفة وأنا معلّماها تاخد بالها من نضافة نفسها، وهي زيّ الفل، فعيب تقول لها كلام مُمكن يجرحها! ليه كده؟!

فكان ردُّه مناسبًا لحالته المزاجيّة فقال:

- هي ضايقتني وأنا مش عاوز أتعامل معاها وحبّيت أقرفها زيّ ما قرفتني؛ آل «رمضان» أبو صيام!

أُرَبِتُ على وجنتيْه، فيقوم من مكانه ويحتضنني، ثمّ يمنحُني قبْلةً سريعة، ويتركني ليذهب للحمّام، كم هو رقيق وحازم رغم صغر سنّه!

***

9 سنوات من عدم الإنْجاب هي الفرق بين «أدهم» وحمْلي في «رمضان» (رامي)، عشت فيهم أصعبَ فترات حياتي، وفي السنّة العاشرة رُزقتُه، عانيت فيهم الأمرَّين من حماتي التي لم ترحمْ ضعفي، ومن الناس المتطفّلين الذين يدسون أنوفَهم في حياة الآخرين، ولكنْ لم يكونوا أبدًا مثل حماتي، كم كانت قاسية لا تراعي مشاعري، حماتي «سعاد هانم رمضان»، هي مَن قام بتسمية ابني «رمضان» دون علْمي، لقد قرّرت أنّ تسمّي ابني على اسم والدها لأنّ زوجها

«حمايا» رفض أن تسمّي زوجي أو أخاه على اسم جدّهما؛ لأنّه اسم قديم، (أيام ولادُه قديم وأيّام ولادي أنا إيه!! ألامود؟) فما كان منها إلّا أنْ ضغطت على زوجي، وأقسمت عليه أنّها ستقاطعه لو لم يسمِّ ابني «رامي» كما كنت أرغب في تسميته، فأذعنَ لرغبة أمّه المكبوتة، وأطلق اسم «رمضان» على وليدي الجديد الذي عاش يعاني من استغرابِ أصدقائه لهذا الاسم القديم!

لم أكتشفْ هذه الكارثة إلّا عند التّقديم للمدارس، فلم يكنْ «يوسف» أو أمّه يتركانني أذهب وحدي وقت التطعيم الدّوري للصّغير، وممّا كان يثير دهشتي وقتها- لكنْ دون إعطاء الأمر أهمّية- هو أنّ المُمرضة دائمًا تخلط بين اسم رامي واسم «رمضان»، وعشت سنوات مخدوعة و»يوسف» لا يظهر عليه أيّ شيء يدلّ على تلك المؤامرة، أو أنْ تشعر حماتي بتأنيب الضّمير لخداعي وسلبي حقّي في تسمية أبنائي، ولسذاجتي لم يخطرْ ببالي لأيّ سبب أنْ أنظر في الأوراق، فأنا من وجهة نظر «يوسف» التي يصرِّح بها دائمًا:

- «لبنى»، إنتِ مهملة جدًّا، ومينفعش تشيلي أوراق ولا إنك تحفظيهم في مكان، إنتِ ناسية إهمالك في أوراقك وأوراق ابنك؟ إنتِ للنهارده متعرفيش مكانهم!

وعليه لم أهتمّ بأيّ أوراق تخصّ الأولاد حتى كان اليوم ذلك

الذي ذهبنا فيه لتقديم أوراق «رمضان» للمدرسة، وعند كتابة الملفّ أظهر «يوسف» رغبة في كتابته حتى أنتبَه أنا لـ»بسنت» التي كانت معنا، ظننتُ أنّه لا يريد إرهاقي، وكم كانت دهشتي من إصرار المدرّسة على أن تقوله يا «رمضان»:

- فوك يا «رمضان»، حطّ المكعبات هنا يا «رمضان».

و»رمضان» يقول لها:

- أنا اسمي «رامي»، اسمي رامي يا ميس!

وبعد الانتهاء من المقابلة، وعند مغادرتنا للمدرسة نادت عليَّ المسئولة، وبتعالٍ غريب قالت لي:

- على فكرة يا مدام مش أسلوب تربوي صحيح ولا مقبول إنّكم تندهوا على الولد باسم غير اسمه، ده تصرّف يشوّش تفكيره وعقله.

فنظرت إليها باستغراب، وقبل أن أردّ عليها وأكيلَ لها بسبب نظراتها وطريقتها في الكلام؛ يمسك «يوسف» بيدي، ويقول لها:

- حاضر، إن شاء الله، وشكرًا على الاهتمام.

استوقفته وأنا أشعرُ ببعض الاضطراب، وقلت له بصوتٍ كفحيح الحيّة:

- يوووووووووسف، تقصد إيه الستّ دي، شامّة ريحة سعاد في الموضوع.

يرتبكُ ويقول لي:

– سعاد برضو! مش عيب يا «لبنى»، دي في مقام مامتك، تعالي نركب العربية وهاحكي لك.

أضرب الأرضَ بقدمي وأنا أقول له:

– هتحكي ايه يا «يوسف»! الولد رامي ما له؟! وإيه حكاية الاسم اللّي هيشوّشه، ورمضاااان.. سعاد أمّك هي السبب، ده اسم أبوها، «يوسف» ابني اسمه «رمضان»؟!

يطرق في الأرض ويقول:

– تعالي بسّ نركب العربيّة ونتكلّم؛ الولد بيبصّ لنا مستغرب.

أبكي، وأنا أضمّ ابني، فهذا سيدمّر نفسيّته، وأقول له:

– هنتكلّم في إيه؟! كده يا «يوسف» تمشي ورا سعاد؟! سعاد سمّت الولد «رمضان»، وانتَ وافقت يا «يوسف»؟

طلّقني يا يوسف، إنت خذلتني، أنا مش مصدّقة إنّك تعمل كده!

لا يردّ عليَّ، وظلّ طول الطريق صامتًا كأنّه أصبح أخرسَ. تقلّنا السيارة للبيت، فأصعد وأنا غاضبة منْه أكثر من والدته، فهو صاحب القرار، لماذا خضع لها ولابتزازها!؟ لقد كان من المُمكن أن يسمّي ابننا بالاسم الذي يناسبه ويسترضيها لاحقًا، لا أعلم لماذا يخلطُ الرّجال بين برّ الأمّهات وإضاعة حقوق بيوتهم؟! فالبيوت لها

حقوق مثل حقوق الأمّهات، ونحنُ أمانات، فلا يجوز أن يظلمني وأولادي بحجّة برّ أمّه!

ظللتُ غاضبة منه فترةً طويلة، ولم أستطعْ غفران هذا التصرّف، لقد كان بيتي أنا الصّيد السّهل بسبب سلبيّة زوجي! حاولت كثيرًا أن أوضّح لـ»رمضان» أن اسمه هذا اسمٌ جميل، وأنا أشعرُ بمدى الضيق لكذبي، فهو اسم الشّهر الجليل، لكن لم يكنْ اسمًا لطفل أبـدًا، ولم يقتنع بكلامي، فـ»رمضان» شخصيّة مختلفة، يقول الناس عنه إنّه طفل (رخم) قليل الكلام، ينظر لهم بتعالٍ، ويحتقر البنات، ويكرههنّ، أعتقد أنّ «بوسي» لها يد في هذا الموضوع، وعندما يتحدّث مع أيّ إنسان يتفحصه أولًا، ثمّ يقرّر بعدها هل يتعطّف عليه ويمنحه ردًّا، أم يتجاهله ويتركه ويمضي في طريقه، فـ»رمضان» كائنٌ غير اجتماعي! ولا يقبل أن تضحكَ عليه بحلوِ الكلام، طفل ذكي ومتفوّق في دراسته، لا يزعجني إلّا في الأمور الإنسانيّة الاجتماعية، يحبّ أن يتحدّث بالفصحى مثل أبطال القنوات الفضائية، ممّا يسبّب له مشاكل مع الناس ومع أختِه التي لا تعرف أن تتكلّم بشكل سليم، فبدلًا من الحوار معه تضربه وتكيل له اللّكمات!

رغم مشاكله التي يتسبّب فيها بسبب جداله الكثير؛ فإنّه مِن

ألطف أولادي. ولكنْ رغم خلافه مع «بسنت» فإنّني أرى أنّها هي المستبدّة صانعةُ المشاكل، فهو رغم كلّ شيء رقيق.. أمّا «بوسي» رغم صخبها فهي أجْمل الكائنات وأرقّها (سامحني يا ربّ.. الكذب حرام)، فكلّ أولادي لهم وضْع يجعل لكلّ واحد منهم مكانًا مميّزًا في نفسي.

عجيب أمر الأبناء! فالأمّهات يحببنَ كلّ أبنائهنّ بنفس القوّة والدفء، ويشتكي الأبناء من وهْمِ التّفرقة، وهي مِن صُنع خيال بعضهم؛ فالأمّ لا تفرّق في المحبة ولا القلق ولا الخوف على فلذات أكبادها، ولكنْ هناك مَن ترتاح في التّعامل معه لسعة صدْره وليونة طبعه وطاعتِه، وهناك مَن ينطبق عليه (إبعد عن الشقاوة وغنّي لها) لكنّ الحبّ والمعزّة واحدة، ومَن يفعل غير ذلك معلولٌ في فطرته!

***

يعود «رمضان» من الحمّام، ويجلس بجواري في هدوءٍ تامّ، ويمسك في يده مجلّة، يتصفحّها، وهو يقول لي:

– تعرفي يا ماما موضوع مثلث برمودا ده مجنّني، مش عارف هو صحّ ولا كذب، ونفسي أسافر بالقرب منه علشان أشوف الكلام ده صدق واللّا بيشتغلونا.

أقول له: – واحنا ما لنا ومال مثلث برمودا، إيه رأيك أجيبْ

لك ساندويتش جبنة مثلثات، وآهو كلّه مثلثات يا حبيبي..

يضحك ويقول لي:

- إيه ده يا ماما جبنة إيه، ده موضوع بجدّ مش هزار، حضرتك بتهزّري، بسّ أنا بتكلّم جدّ، لو شفتِ الفيديوهات والصّور، ده ناس كتير بتختفي ومش بيعرفوا يلاقوها.

أشعرُ بالخجل من نفسي وأقول له:

- طبعًا.. طبعًا، ياريت لو عرفت حاجة قولّي أنا أصْلي مش شاطرة في السّيرش. يبتسمُ برضا ثمّ يقول: - طيّب هاقوم أعمل لنفسي كوبّاية عصير علشان مش عاوز حاجة من الرّخمة «هنيّة» دي.

أقول له:

-ها.. وبعدين؟ قلنا إيه يا حبيب ماما؟

يقول لي: - خلاص مفيش مشكلة، خلاص مش هاضايقها.

ثمّ ينفخ وهو يقول: - بصراحة يا ماما كلّ البنات زفت! ماعدا إنتِ، إنتِ أجمل بنت في الدنيا!

يذهب عنّي «رمضان» بهدوء، فأقوم إلى حجرتي وأخرج دفترَ اليوميات من الدّرج، أفتحه كي أُدَوِّن أحداث الأمس قبل عودة الشّغب للبيت، فأجدني فتحت صفحةً لم أستطعْ تحويل عيني عنها، فجلست وأكملت القراءة، ولم أُدَوِّن أيضًا في حينها.

لا أدري لماذا فقدت القدرةَ تمامًا على ضبط عصبيّتي مع أولادي وزوجي، فأصبحت أكثرَ ضيقًا وجنونًا، لم أعدْ أستطيع بثّ قلقي ووجعي لأمّي التي تراني «مزوّداها» وبلغة هذا العصر (أوفر قوي)، وإنّه يتوجّب عليَّ شكر الله لمنحي رجلًا هادئًا يستطيع أن يتعاملَ مع شخصيتي المعقّدة، فلم أكنْ لأناقشها كثيرًا، فأنا لديَّ ما يرهقني أكثر من الدّفاع عن وجهة نظري التي لا تراها لأنّها لا تعيش معنا تحت سقفٍ واحد. وفي نهاية الأمر، كلّ الأشياء سهل التحكّم فيها إلّا لسان حماتي سعاد غُلب حياتي!

حاولت كثيرًا أن أشرحَ نفسي فلم أجدْ صدًى لكلامي، فأنا إذا اشتكيت لأمّي من أولادي كانت تقول لي: - يا «لبنى» بلاش إنتِ بالذّات.

ثمّ تذكّرني بما كنت أفعلُ في طفولتي، فأبتسم وأغيّر الموضوع، ولكنّها في إحدى المرّات رأت أنّي تجاوزت معهم بعصبيتي وشكوتي ممّا يفعلونه؛ وفقدت صبرَها، فقالت لي ونحن نتحدّث على الهاتف:

- افتكري كنت بتعملي إيه فينا وفي الدّنيا، ارحمي أولادك، بلاش تبقي عاملة زيّ صفّارة الحكم طول الوقت عمّالة تصفّري وتصدّعيهم، شوية تغافل، ياما فوّتنا لك!

يومَها، أغلقت الهاتف وجلست حزينةً لأنّها لا تتفهّم طبيعة أولادي المشاغبة، وتتّهمني بقلّة الصبر، وفجأة لا أدري كيف

تذكّرت طفولتي وكنت دائمًا أنحّيها جانبًا لأنّها كانت صاخبة ومدوّية، فتذكّرت أنّني كنت أعاني بسبب رفضي للآخرين، وذلك لأنّ شخصيّتي كانت معقّدة كما يقولون، فمنذُ الصغر وشخصيتي تظهر كلّ المُتناقضات متجمّعة في إنسانٍ واحد، فأنا اجتماعيّة حين أرغب، وانطوائيّة حين أريد، ولأنّني الابنة الوسطى، تلك التي تلقّب (باللّمضة)؛ أرفض أيّ قيود وأيّ قواعد، دائمًا (ليه وعلشان إيه)، فأنا أرفض تمامًا التّمييز الذي يصنعه البشر، فنحن جميعًا عبادُ الله سواءً في التكليف والثواب والعقاب، لكنّ البشر دائمًا يضعون لمساتِهم الظّالمة! فطبيعتي المشاكسة ورفضي قوانين البيت كانت دائمًا تفجّر الموقف الذي عادةً ما ينتهي لصالح عصاية الغليّة وأنا صغيرة، أو الحرمان من الخروج في فترة المُراهقة، ثمّ الخصام بعد أن أصبحت شابّة تعتمد على نفسها!

ورغم اختلافي ونفوري أحيانًا من الآخرين، لكنّني كنت ملكة (المحلسة والقرع) وأنا صغيرة كنت أعتبرُها (تسليك) أمور قبل أن أدرك معناها الحقيقي والقاسي في آنٍ واحد وهو (النّفاق)، فوالله وقتَها ما كانت نيّتي أنّه نفاق؛ بل تشغيل دماغ وذكاء، فقد علّمتني الأزمات مِن أين تؤكَل الكتف، فأنت عندما تكون في وضعٍ لا يُثَمَّن، لست بأوّل فرحة، ولا نوعك ذكر، ولا (جايّة على شوقة زيّ

ما بيقولوا) ستشعر بالرّغبة بالتّصريح وبصوتٍ عال:

- (انا أهو يا عالم، إنتم مش شايفينّي علشان قصير واللّا علشان شفّاف)، ممّا يجعلك مشاغبًا ودائمًا تقبع في مرمي الانْتباه، فالهدف المتحرّك يظهر للكلّ بخلاف السّاكن الهادئ، فكنت أنا القلق الكامن في عقل أبي وأمّي؛ لعجزي الحقيقي عن الإذْعان لأوامرهم، والتصرّف بما يليق بكوْني فتاة ولست صبيًّا مشاغبًا! وكانت أختي نهاد كما يقولون الكبيرة العاقلة (قولًا واحدًا) وأخي محمّد الصغير، آخر العنقود والحيلة وديك البرابر، وحبيب الكلّ، الوريث وحامل اسم العائلة والامتداد، أمّا أنا فالانتكاس، أنا البطّة السوداء أو كما يقال بالإنجليزية (the black sheep of the family).

كانت هذه هي قناعاتي التي تسبّب فيها وضعي في العائلة، وضع مَن جاء دون اشْتياق له، فالكبيرةُ عاقلة والصغيرُ صبي، هذا الكائنُ المزعج الذي يدسّ أنفه في كلّ شيء، هو زيادة وعبءٌ على الآخرين، صاحب مغامرات، ومشاكسات لا تنتهي! فعندما كنت طفلة، كانت قامتي قصيرة جدًّا، وبشكل لافت للانتباه، ممّا كان يثير حفيظةَ جدّتي عندما تسمع صوتي، فأنا لا أكاد أُرَى إلّا إذا رفعْتُ صوتي الذي كانوا يشبهونه بصوتِ صافرات الإنذار، فكانت تقول:

- القدّ قدّ الفولة والصوت صوت الغولة!

فعندما يرتفع صوتي يلاحِظ الموجودون أنّ هناك كائنًا صغيرًا يتحدّث، وله طلبات يدافع عنها بهذا الصّوت البغيض! ولقد ساعدني حجمي الصغير كثيرًا في الهروب والقفز والمراوغة والاختباء الضّروري، وذلك عندما كانت أمّي تلك السيدة الهادئة الرّائقة تجري ورائي لتمسك بي لتعاقبني! فكنت أهربُ منها مثل القط الصغير وأختبئ تحت السرير، أوأقفز قفزةً سريعة لأكون فوقَ الدولاب، وفي النهاية يكون مصيري (علقة سخنة من أبي) فأمّي لم تكن لتضربَنا أبدًا، فهي تهدّد فقط، أمّا أبي- رحمه الله- فلا يهدّد، يفعل.. وبقوّة!

ولقد اعتدتُ على إتيان بعض الأفعال التي لا تليق إلّا بالصبيان، ولأنّي كنت من وجهة نظر أبي وأمّي غيرَ أهلٍ للثّقة لتهوّري واندفاعي، كانوا يغلقون عليَّ الباب بالمفتاح إذا كنت بمفردي، فكنت إذا احتجت شراء شيءٍ ولا يوجد معي أحد في المنزل، أقفز من النّافذة للشارع، فنحن نقطنُ في الدّور الأرضي، وكانت دكّة عمّ راضي وكرسي أمّ عزت أدواتي للخروج من وإلى البيت عبْر نافذة حجرتي.

وفي أحدِ الأيام ألحّت عليَّ رغبة شديدة لشراء بعض الحلوى، فاستخدمتُ طريقي الطّبيعي عبرَ النافذة، لكن يومها عُدت محمّلة بالكثير من المشتريات، وعندما حاولت أن أصعدَ الكرسي الذي

أضعه فوق الدكّة اختلّ توازني فسقطت، وستر ربّنا شملني، فلم أُصَبْ بمكروه، ولكنِ افتُضِح أمري!!

لم تكنْ أبدًا تعييني الحيلة، كنت إذا لم أجدِ الدّكة والكرسي أقفزُ من الشباك إلى الشّارع مباشرة، وعند العودة إذا لم أجد الدّكة والكرسي أجمع قوالب طوبٍ فوق بعضها وأعود للبيت، فكوْن حجرتي تطلّ على ممرّ جانبي كان يمنحني الأمان فهي ليست على الشّارع الرئيسي، وبالتالي من الصعب كشف أمري أو حتى أنْ يرى مساري لصّ!

وكنتُ إذا احتجتُ إلى نقود كنتُ أقترض من عمّ راضي البواب الذي كان دائمًا يساعدني ولا يفضح أمري (كان بيغطّي ضهري) وكانت الأمور بيننا طيّبة، ولولا زوجته الطّماعة التي ما أنْ كشفت سرّي يوم سقوطي من على الكرسي، حتى بدأت تساومني على ردّ النقود أكثر مِن الذي اقترضته، لم أكنْ أعلم حينها أنّها رِبَا، لكني كنتُ أعتبرُها استغلالًا؛ لذا رفضت بشدّة، فكانت النتيجة أنها كشفت سرّي عند والدي، وأخدت علقة لنْ أنسَها مدى الحياة، وطبعًا وضعوا قضبانًا حديدية على نافذتي، ولن أنسى أمّ عزت زوجة عمّ راضي أبدًا ما حييت!

* * *

أُغلق دفتر اليوميّات وألتقط الهاتفَ الخلوي الذي نسيته في الدّرج وألبومَ الصّور الذي سقطتْ منه صورةٌ لأبي وحمايا! فألتقطُ الصور وأنظرُ إلى صورة حمايا، ذلك الرّجل الذي لم يضايقني يومًا، ولم يهينُني، لكنّه كان دائمًا متابعًا صامتًا لكلّ ما تفعله حماتي التي استطاعت بنجاحٍ منقطعِ النّظير وبسكوتِ «يوسف» عنها أنْ تكدّر حياتي تمامًا؛ بل كانت سببًا في تخريب نفسيّته.

فقد عملت على أنْ تؤكّد له في كلّ وقت أنّ الرّجل لا يصحّ أن يظهر مشاعره، ولقد كان؛ فقد كنتُ أقول لأختي عندما يأتي الحديث بالكلام عن الرومانسية والعاطفية أقول:

– الحمدُ لله «يوسف» منشّفها على الآخر، لو قال لي يومًا: تسلم إيدك يا «لبنى» يبقى كده تحوّل ليوناردو دي كابريو في فيلم تايتنيك، وضحّى بنفسه علشان كيت ونسليت.

«يوسف» بخيل عاطفيًّا قولًا واحدًا، ولقد اكتشفتُ بنفسي سرّ هذا البخل، ففي إحدى المرّات، والمرّات النادرة جدًّا، كانت حماتي راضية عنّي وتتحدّث معي ونسيتْ أنّي زوجة ابنها الآخر، وقالت لي تشتكي من بكر ابنها الأكبر:

– تصوّري الخايب طول النهار يقول كلام ناعم وحلوْ لمراته مع إنّي ربّيته على الرّجولة، وإنّهم لازم يحافظوا على صورتهم،

وإنّه لمّا يقول كلمة حلوة لمراته هتتدلّع عليه وهتتمرِغْ، ومش هيعرف يمشّيها!!

(يمشّي مين يلّي تنضربي في أفكارك المسمومة!) طبعًا دي جُملة عبّرت أفكاري وأنا أستمع إليها فاغرةً فمي كالبلهاء، وبعدها تأكّدت أنّ هذه السيدة تمكّنت من مخّ زوجي وخربت له رأسه، فهو غالبًا أكثر واحد في الأبناء تمّ تدمير خلايا التعبير عن المشاعر عنده لأنّه الصغير، والذي مكث تحتَ جناحها أكثر من باقي إخوته! لم أستطعْ أن أفعل شيئًا لهذا التّدمير المتعمّد في شخصية الرجل المصري المتمثّلة في زوجي سوى الصّبر والتغافل أحيانًا.

أنتبه من ذكرياتي على صوتِ «هنية» تغني، فأنادي عليها فتأتي مستفهمة:

- نعم يا مدام، عاوزه حاجة؟

أقول لها: - آه عاوزه، روحي هاتي السّلم، وإيّاكِ تفتحي بؤّك بكلمة.. فاهمة!

تبتسم بخُبث وتقول لي: - عينيَّ يا مدام فورتينه هيكون عندك، السّلم و»هنية».

أضحك لفهْلوتها؛ فوريرة أصبحت فورتينة، تحضر السّلم وتمسكه وهي صامتة ومُبتسمة، فتجربتي السابقة جعلتها أكثر ثقة

في قدرتي على تسلّق السّلالم! أصعدُ السّلم وأطلب منها أن تناولني الصّندوق بعد أن وضعتُ داخله ألبومَ الصور ودفتر يوميّاتي بعد أن سجّلت أحداث الأمس في نقاطٍ فقط ودون وصف، أميل بجسدي لآخذَ منها الصندوق.. يختلّ توازني، فأسقط على الأرض! ويطير الصّندوق والدفتر والأوراق.

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ الع اشر

يوم من غُلْبِي

تدقّ السّاعة الثانية عشرة، ويصدح صوتُ الأذان في المسجد القريب من بيتنا، وتأتيني «هنية» وهي مُنفعلة وتقول:

– يا مدام، يا مدام، الحجي، جدّ حضرتك وصل وجاعد برًّا، تعالي له؛ لأنّه مش عارف حدّ منّنا ومتنرفز جدًّا، ده حتى «رمضان» يوووا.. أجصد رامي واجف معاه ومش عارفه أفهم كلامهم همّا الاتنين! بيكلّموا بعض بكلام غريب جوي، وجدّ حضرتك عمّال يجول له فين «لبنى» حفيدتي؟! ورامي يضحك ويردّ عليه، إثبت مكانك لا تتحرّك وإلّا سأستدعي لك الشرطي ليجبض عليك، يا مدام هي حفيدتي دي معناها إيه؟ وجدّك يحصد بيها إيه؟

وكالعادة قبل أن أردّ أو أنبس ببنت شفة تتابع:

– عارفة يا مدام التّمثليات اللّي بتيجي في «رمضان»؟! أهو جدّ حضرتك بيتكلّم زيّهم!

أصرخ فيها كي توقفَ سيلَ الكلام، وأقول لها:

– بااااااس اسكتي شويّة، إبلعي ريقك، إلهي تتخنقي بيه، إنتِ

بتهرتلي بتقولي إيه؟ إنتِ شكلك أصلًا بتتعاطي حاجة!

تنظر لي بجانب عينيها، ثمّ تقوم بعوج شفتيْها، فأفهم ما تقصدُه بهذه الحركة! ثمّ تقول: - إنتِ حرّة يا مدام، أهو الأستاذ جدّ حضرتك موجود برًّا، روحي اتأكّدي بنفسك! والله ده حتى بيجول كلام كتير مش فاهماه.

ثمّ استدركت قائلة، وفي صوتها جديّة واضحة واستفسارٌ حقيقي:

- هو جدّ حضرتك أجنبي يا مدام؟! أنا بصراحة مش بفهم كلامه! وكلّ مرّة ييجي يزور حضرتك، بتجنّن منّه حجيجي لإنّه بيطلب منّي حاجات مبفهمش منها غير ماء! يعني هو إنتِ بتفهميه إزّاي، هو حضرتك برضيك أجنبيّة زيّه؟!

أتابع الكلام المُنهمر من بين شفتيها (وأزغر) لها بعد أن شارفت على نفاد صبر سيفجّر المكان، فقد كادت رأسي تنفجر بسبب ماسورة الأسئلة والاستفسارات التي فجّرتها «هنية»، ولإيقاف سيل الكلام قلت لها:

- أيوا كلّنا خواجات، يلّا روحي قدّمي له حاجة يشربها وأنا جاية وراكِ.

وتذكّرت أنّها قالت «رمضان» فقلت في نفسي: سترك يا ربّ، رامي مش بيستر وربّنا يلطف بيّا النهارده.

خرجت «هنية» من الحجرة تبرطم بالكلام وتشوّح بيديها وتقول:

- لّما همّا خواجات ليه بيحاسبوني بالمصري مش بالدّورار؟ هي النّاس بجت بخيلة كده ليه!

***

هُرِعْتُ للتّرحيب بجدّي، وما أنْ وصلت للبهو الذي يوجد به الصالون وحجرة السّفرة، حتى وجدت «رمضان» واقفًا ينظر إلى جدّي بذهول، ولا يحيد نظرَه عنه، وعندما سمع صوتي مرحّبةً بجدّي توجّه كالسّهم في اتّجاهي واستوقفني قائلًا:

- استنّي يا ماما، عاوز أسألك على حاجة متروحيش للرّاجل ده إلّا لّما أكلمك.

أقوم بتنحيتِه جانبًا فيبدو عليه الاندهاش والرّفض، ويصرّ على استيقافي فأتجاهله تمامًا ولا أسمح له بتعطيلي عن جدّي عبد الله، جدّي لوالدي، إنسان رائع ومتدفّق المشاعر، لكنّه ينسى كثيرًا، وذلك بسبب تصلّب الشرايين ودخوله في آل زهايمر، ولكنّه الحمد لله مازال في بدايته، وكانت نصيحة الطبيب لنا:

- اتكلّموا معاه كتير، واوعوا تسيبوه يقعدْ لوحده، أو إنّه يتعزل عنكم، كلّ ما هتكلّموه كتير، هتقلّلوا من قوّة آل زهايمر.

ولكنّ مشكلة جدّي أنّه يتحدّث بالفصحى، وكأنّه نسي العامية

كلها؛ لذا عندما يقوم بزيارة أحدٍ من أحفاده أو أبنائه تحدُث أزمة كبيرة في التواصل، لذلك في كلّ مرّة يأتي عندي أُصابُ بهَلعٍ شديد، فمَن يعيش في بيتي همْ كائنات فقدت أجزاءً كبيرة من عقلها (دا رأيي فيهم) وحضور جدّي بتركيبته المختلفة، دائمًا يجعل البيت كأنّ هناك معركةً لا تنتهي بين الدّيناصورات والباندا!

لقد كانت آخر زيارة له هادئة لأنّ (رمضان أفندي) كان عند عمّته في زيارة سريعة وخاطفة، اعتبرتُها جزءًا من رزْقي، حتى أستمتع بقليلٍ من الهدوء، فـ«رمضان» و«بسنت» لا يجتمعان على خيرٍ أبدًا، فهُما وراحة بالي (دونت ميكس). و«رمضان» الآن أصبح أكبرَ وأكثر شغبًا، وجدّي أكثر اختلافًا.

فأذهبُ إليه مرحّبةً به، ثمّ أعانقه وأقبّله، فيبتعدُ عني وهو ينظر إليَّ غاضبًا ثمّ يقول صارخًا:

- ما هذا! ماذا أنت فاعلة؟! ما هذه الرّقاعة وهذا المجون؟! هل يصحّ يا فتاة أن تقبّلي رجلًا غريبًا عنكِ؟! هل أنتِ بلا حياء، أنتِ حقًّا قليلة الأدب!

أنظرُ إليه مستعطفةً إيّاه، بعد أن أزاحني جانبًا، فأحاول أنْ أشرح له، فيشيح بوجهه عني، ثمّ يبتعد ويجلس على الأريكة يستغفرُ ويحوقل من هذه الماجنة التي تريد أن تلوّث تاريخه! أقول لنفسي:

اللّهم صلِّ على النبي.. مجانة ورقاعة!! ثمّ أقنع نفسي: هي فعلًا رقاعة يا بنت عامر، انبسطي يومك ملوش زيّ النهارده.

أقتربُ منه مرّة أخرى وأُرَبِتُ على وجنتيه فيدفعُني بيده، أقتربُ أكثر وأقبّله، ثمّ أجلسُ بجواره وأقول له:

– يا جدّو يا حبيبى، أنا «لبنى» حفيدتك، بنت ابنك المرحوم– إن شاء الله– عامر، يا جدّو افتكرني الله لا يسيئك، اليوم كده هينضرب بدْري بدْري، وأنا أصلًا ماشية برُبع عقل، كفاءته نصّ عمر!

يقتربُ منّي وتظهر في عينِه الرّيبة والقلق، ثمّ يتفحّصني قائلًا:

– مَن أنتِ؟ أنا لا أعرفك!

ويبتعدُ عني ويذهب لآخر الأريكة، فأُصاب بإحباطٍ وقلّة حيلة، ثمّ فجأة ودون أيّة مقدّمات يعود ويقتربُ منّي بودّ، ويحتضنني باكيًا ويقول:

– يا حبيبتى يا ابنة ابنتي، كيف هي أمّك وكيف حالها؟ يا الله كم أشتاقُ إليكما! افتقدتُ ضحكاتكما ومرحَكما، وأين هو أبوك، هل مازال غائبًا؟

أضرب بقدمي الأرض، في محاولة لطردِ غيظي جانبًا، ورغبةً في التماسك حتى لا أُصابَ بنوبةٍ قلبية، فيأتي «رمضان» مسرعًا ويقول:

– ماما، لو سمحتِ هوّ الراجل ده، ويكاد يضع أصبعه في عين

جدّي- بجدّ؟! يعني حقيقي زيّنا! أنا من ساعة ما جَه وأنا مش عارف أتأكّد إذا كان زيّنا واللّا كارتون زيّ الإم بي سي ثري؛ أصله بيتكلّم زيّهم!

سحبتُه من يده، وابتعدتُ عن مكان جدّي، وأحمد الله أن جدّي ضعيف السمع، فقد كان ينظر إلى ابني مبتسمًا، ويظنّ أنّه يقول أشياء لطيفة عنه، قلت له:

- يا ربّ يتفرمَط لسانك الطويل ده! إزّاي بجدّ يعني! وكمان كارتون يا «رمضان» إنتَ متسلّط عليّا! وبعدين إنتَ جاي يا أفندي توقّع بيني وبين جدّي، إمشي إجري على أوضتك.. وفين إخواتك؟!

ينظر لي وكلّه براءة، ثمّ يقول:

- ماما، إنتِ جدّك عايش إزّاي.. وأنا جدّي مات، مش باباكِ مات، صحّ!؟ طيّب إزّاي باباه عايش!

وكأنّي لم أكلمه أو أسأل عن أخته وأخيه، يسألني وينتظر الإجابةَ بشغف يظهر في عيونه القلقةِ التي يقلّب نظراتها بيني وبين جدّي، فأقول له:

- عادي بتحصل مش دي المشكلة، المشكلة إنتَ هتعملها لو سمع كلامك الخايب ده، امشي من هنا، وبعدين هو كلّ ما تشوفه تعمل الفيلم ده، «رمضان» انتهي بقى، ليه بتحاول تستفزّني؟! بابا

مات قبل باباه علشان عمرُه خلص، وغالبًا أنا هاحصّل أبويا علشان ترتاحوا كلّكم.

يصرخ ويقول لي:

- أنا اسمي «رامي»، بلاش «رمضان» دي لو سمحتِ يا ماما.

ثمّ ببراءةٍ شديدة يُرْدِف:

- ومِن فضلك متموتيش؛ أنا بحبّك قوي، وبعدين مين هيعمل لنا البوفتيك اللّي بحبّه، ومين هيعمل لنا الفطار واحْنا رايحين المدرسة، «هنية» مُقرفة، من فضلك يا ماما متموتيش!

ويفلت يدَه الصغيرة ويذهب كالسّهم في اتّجاه جدّي، ثمّ ينظر إليه مرّة أخرى ولكن هذه المرّة كانت نظرةً مطوّلة، ثمّ يهزّ رأسه ويبتعد عنه عائدًا إليَّ، ويقول:

- ردّي عليّا يا ماما، والله لتقولي الحقيقة، هو الرّاجل ده حقيقي؟ أقصد جدّ حضرتك راجل بجدّ واللّا تمثال؟!

فقلت له صارخةً فيه: - ما لكْ يا رامي! معقولة هنفضل نتكلّم في نفس الموضوع؟! يا ابني هو انتَ حقيقي واللّا تمثال؟!

ردّ سريعًا: أنا حقيقي يا ماما والله مش تمثال، بسّ نفسي أعرف.

أقاطعه قائلةً وقد استبدّ بي الغضب، فكيف لي أنْ أتعامل مع «رمضان» وجدّي في الوقت نفسه، وكلاهما يتعاملان معي كأنّي

(سفنجة) أمتصّ المشاكل ولا يكون لي ردّ فعل، على الرغم أنّه مع أوّل ضغطة سينفجرُ كلّ ما بداخلي في وجوههم:

- امشي من هنا بدلْ ما أنا أخلّيك تمثال فرعوني.

يضحكُ بسعادةٍ ثمّ بجدية يقول: - بجدّ! ازّاي يا ماما؟ أنا فعلًا عاوز أبقى فرعوني.

أصرخ فيه، فينتفض جدّي قائلًا: - ماذا بك يا أحلام؟ لماذا تصرخين في الصّغير؟

ترتسمُ على وجهي ابتسامةٌ بلهاء وأقول: - لا يا جدّي متقلقش، أنا بهزّر معاه، وأنا «لبنى» مش أحلام، دي ماما اللّي اسمها أحلام.

وأضعُ يدي على رأسي، فقد بدأ الدّم يندفع إليها، وأكادُ أجنّ، ثمّ أدفع بـ»رمضان» بعيدًا عنّي وأقول له:

- اجري من قدّامي حالًا بدل ما أطلّع فراعيني عليك.

ثمّ أبتسِمُ ابتسامةً سخيفة (كما ينعتها «يوسف» دائمًا) وأجلس بجوار جدّي وأنظر إليه صامتة لعلّه يتذكّر أنّي ابنة ابنه ولستُ ابنة عمّتي «وصوف»، ولم يدمْ صمتي طويلًا حتى رمقني باستغرابٍ وقال:

- مَن أنت!؟ وماذا أنا فاعل هنا؟! وأين عامر ابني؟

شعرتُ بإحساس البطّة عندما تقرّر الطيران فتقع، فتحاول السباحة والغطس فتفشل، ها هو جدّي يتذكّر أبي وينساني، فأقول

له حتى أجعله يطمئنّ لي:

- أنا بنت عامر يا جدّي، إنت ناسيني؟ أنا أحلام.. يووووه أقصد أنا «لبنى»، روّق يا جدّي يا حبيبي ومتقلقش، والله العظيم أنا بنت ابنك.

وأحتضنه حتى يشعرَ بالأمان، وأدعو الله أن يخرجني من هذا المأزق العصيب، يعود «رمضان» مرّة أخرى ويقول لي:

- ماما، مُمكن أقعد معاكم، مش هاعمل دوشة، هابُصّ على جدّ حضرتك، مش هو برضو جدّ حضرتك.. واللّا إيه؟!

أقول له بنفاد صبر:

- أيوا جدّي، ومش هتقعد معايا، ويلّا امشي من هنا على أوضة الليفنج، روح اتفرّج على كرتون، واللّا اعمل أيّ حاجة مفيدة.

يهزّ رأسه ويقول لي:

- سأفعل يا سيدتي ولكنِ احْذري، لا تأكلي البوشار فقد مرّت عليه الفأرة الصغيرة، ولا تمكثي كثيرًا مع هذا الغريب؛ إنّه يشتعل ليلًا! وقد يتحوّل لتلك الفأرة، يا له من موقفٍ عصيب!

لا أردُّ على كلامه، فأنا أعلمُ ما تفعله هذه القنوات بعقله، وأيضًا قد أصبت بإرهاق شديدٍ، ولا رغبةَ لي في الجدال، وقد مرّ على وصول جدّي ساعتان لا أعلم كيف مرَّا، وأنا ما بين جدالِ

«رمضان» و»هنية» وما بين جدّي الذي يرفضني! وقارب العصرُ أن يؤذّن، وكلّ شيء يتمّ ببطء شديد، ولا أعلم لهذا اليوم نهاية.

يتركني «رمضان» مبتسمًا، وأنظرُ لجدي، وأشعر بقلّة الحيلة وأنا جالسة بجواره، أنتظرُ أن يقول أيّ شيء، وأقول في نفسي:

- إيه اليوم ده، ما له بادي بوجع دماغ، من ساعة «يوسف» ما نزل وهو متغيّر معايا كالعادة الأيّام دي (بركاتك ياسعاااد)، ومشاكل العيال و»هنية» وجنّونتْها، وآهو جدّو حبيبي بتعبه وعجزي عن منحه بعض السّلام والرّاحة.

كيف لمركب صغير متهالك أنْ يقوم بإيصال أيّ لاجئ إليه بسلامٍ إلى شاطئ الأمان! وأعيد النّظر إليه مرّة أخرى فأجدُه قد أغمض عينيه وهو جالس بجواري، أمّا أنا فأشعرُ أنّي أوشكت على الجنون، وعلى أطراف أصابعي أتحرّك بعيدًا عنه لأستجمع نفسي، وأرى ماذا أنا فاعلة، فعندما يباغتني حدثٌ أو أكثر أصابُ بالشّلل، والآن أنا لا أعلمُ ماذا سأفعل إذا ما قرّر جدّي أنّني خاطفة أو لصّة سطت على بيته! وأدعو الله أن يجعل اليوم هادئًا، ويرزقني بمددٍ من عنده وعونٍ، وما أن تحرّكت بعيدًا عن جدّي حتى رأيت «هنية» تلوح لي بالهاتف وتنادي: - يا مدام، يا مدام.

فأشرتُ لها أن تصمت، وبمجرّد أن اقتربتُ منها، حتى أسرعت

الخطوات في اتّجاهي، وأعطتني اللاسلكي وهي تقول:

– يا مدام، المدام مامة حضرتك على التليفون، وهي عاوزاكِ ضروري جدًّا، مش عارفه إيه الضّروري ده؟ هوّ في حاجة حصلت؟!

ألتقطُ منها سمّاعة الهاتف وأنا أحمدُ الله على استجابته لدعائي سريعًا، ثمّ أسأل «هنية» قبل أن أتحدّث مع أمّي:

– وحضرتك ما لك بالضّروري واللّا الهايف! اتفضّلي بسرعة اعملي كوبّايتن لمون وزوّدي السّكر، ومتجبيهمش إلّا لمّا أندهلك.

تهزّ رأسها بالموافقة، ودون تعقيبٍ على تقريعي لها، ثمّ تقول بنبرةٍ تحذيريّة:

– لمين الكوبّاية التّانية يا مدام؟! مش إنتِ عاملة رشيم برضو، ولا همَّ قالوا إن اللّموناتوه مش في الرّشيم! ...ثمّ تقلّب شفتيها بسخرية، وتنظر إليَّ نظراتٍ مستفزّة، فأصرخ فيها بعد أن فشلت في التحكّم في أعصابي، فيكفيني ما أنا فيه:

– امشي من قدّامي بدل ما أهبدك بأيّ حاجة في دماغك، رجيم إيه؟! امشي هو أنا ناقصني لَسَعان دماغك دي دلوقت، غوري.

تجري من أمامي وهي تحدّثُ نفسها:

– هيّ المدام النهارده ما لها غريبة كده! همّا الخواجات عصبيّين قوي كده ليه...ثمّ تتابع الحديثَ مع نفسها:

-آه يبقى ده سبب إنّنا مش مرتاحين مع بعض، مهي لو كانت مصريّة زيّنا وبنت بلد مكنش ده حصل! هو أنا دايمًا حظّي عفش كده!

أبتسمُ رغمًا عنّي من تعليقاتها التي تُبهرني دائمًا، وأيضًا على إصرارها أنني أجنبيّة، فجأة أشعرُ بوجود شيءٍ ما في يدي، أنظرُ إليه أجد سماعةَ الهاتف فأصرخ:

– يا خبر أبيض! ماما، أنا نسيتها! آلووو أيوا يا ماما، سامحيني يا حبيبتي، أنا أصلي ملبوخة، حصل كذا حاجة.

فيصل إليَّ صوتُ أمّي بهدوئها الذي لم أرثه وصبرَها الذي حجبته عنّي وبنبراتٍ ناعمة تقول: – «لبنى» يا حبيبتي اهدي شويّة، ما لِك يا بنتي متعصبّة ليه، إنتِ كويسة، والعيال و»يوسف».. كلّكم بخير؟

أردُّ وأنا أتنفّس سريعًا من خوفي على زعلها:– آه يا حبيبتي بخير، كلّهم بخير.

تقول لي: – الحمد لله.

ثمّ تُرْدِف وصوتُها يبدو عليه من رعشتِه أنّها قلقة:

– معلش يا «لبنى» يا حبيبتي عاوزه أسألِك سؤال بسّ إمسكي أعصابك، وإوعي تتخضّي، هو جدّك اتّصل بيكِ أو طلعتْ كلّمك؟ أصل عمّتك «وصوف» هتتجنّن عليه؛ لإنّه كان رايح لها بسّ اتأخّر عليها، وطلعتْ تليفونه مقفول، وإحنا دايخين نسأل عنه، وإنتِ آخر

حدّ طبعًا مُمكن يفكّر ييجي له علشان شقاوة العيال وكدا يعني.

أضحكُ بهستيريا وأقول في نفسي:

- جدّو جالي بالغلط وأنا آخر واحدة يفكّر فيها! الله أكبر! أنا فعلًا حظّي حظّ نادي الزّمالك لمّا يقابل الأهلي..

ثمّ أردّ على أمّي سريعًا:

- أيوا يا ماما عندي، وزيّ ما إنتِ شايفة آديني أهو مش آخر واحدة يفكّر فيها، ده أنا أوّل واحدة، وكالعادة الدّنيا ملخبطة عندي، وهو مش مركّز معايا يا ماما، هو في إيه؟!

جدّو مش عارفني قوي، مقارنة بالمرّة اللّي فاتت كان أحسن من كده بكتير، صحيح مكنش عارف غيري أنا وأمّ كلثوم، يعني أنا والسّت محدّش قدّي، لكن كان مُنتبه، بسّ دلوقت مش فاكر حاجة وبيلخبط في الأسماء، وعمّال يكلّمني بالفصحي ورامي نازل مناكفة فينا، و"هنية" عمّالة تحقّق معايا! ماما أعمل إيه؟!

تضحك وتسري ضحكتُها الرّائقة في أذني فأشعرُ بهدوء يلفّني وهي تقول:

- مش مُمكن إنتِ يا «لبنى» مش هتبطّلي شقاوة، لا هو فاكرِك بسّ علشان تغيير الدّوا، والفصحى إنتِ عارفة إنّها عشقه، معلش يا حبيبتي، طيّب اتّصلي بطلعت السّواق وخلّيه يرجع علشان ييجي

ياخده ويرجّعه البيت.

أصرخ قائلةً:

– طلعتْ مين يا ماما! مش هكلّم حدّ، اتّصلي انتِ، أنا عمّالة أحجّز بين جدّي وبين «رامي»، الولد هيتجنّن، ومُمكن جدّي يزعل من تعليقاته، يلّا يا ماما أحسن الولد شايفاه بيتسحّب ورايح تاني يبحلق في جدّي، سلاااااااام.

لا أنتظر أن تضعَ أمّي سماعة الهاتف، فأعدو ناحية «رمضان»، فألمح «يوسف» قادمًا في اتّجاهي، لقد عاد مبكرًا من عملِه، فلا أنظرُ إليه وأجري في محاولة لسحْب «رمضان» من قفاه، فيختلّ توازني وأسقط أرضًا، أحاول القيام فلا أستطيع، فيأتي «يوسف» مسرعًا لمساعدتي، وبعد أنِ استطعت الوقوف ربَت على كتفي قائلًا: – إنتِ بخير؟ في حاجة بتوجعك؟ ليه بتجري يا «لبنى»؟ إنتِ نسيتِ آخر مرّة اتجبّستِ فيها، مش هتبطّلي دور الباليرينا اللّي عايشة لنا فيه ده؟

أتحسّس مكان الوقعة وأشعرُ بألمٍ شديد في رأسي لكنّي أنفيه تمامًا، خوفًا من سخريتِه التي بالفعل لم أسلمْ منها؛ فأقول:

– باليرينا! ماشي.. عمومًا أنا فلّة، مفيش فيّا حاجة.. وبعدين إنتِ جيت بدري ليه؟! غريبة! مش بعادة! ومِن إمتى بتعمل عامل إنقاذ وبتساعد حدّ؟! ده إنت كبيرك تمسك السّارينة وتضغط على

الزّرار علشان الناس توسّع!

ينظر إليَّ باستنكار، والاندهاشُ بادٍ على وجهه ويقول:

– جيت علشان حظّك، علشان أساعدك تقومي من الأرض، هو انتِ كنتِ هتعرفي تقفي وحدك؟ (ويُرْدِف ونبرات الغيظ تظهر على صوته): وبصرف النظر عن موضوع الرّجيم الفكسان والهري بتاع الجيم وجهاز الجري؛ آسف، (التريد ميل) لسّه برضو إنتِ محتاجة تخسّي كتير، فلا كان جدّك هيعرف يساعدك، ولا «رامي» ولا حتى «هنية»، فهل كنتِ تحبّي تفضلي في الأرض؟ واللّا تحبّي إنّي كنت أفضل ماسك السّارينا وأضغط على الزّرار أقول يا ناس الحقونا في زوجة وقعت على الأرض واتكعورت؟ هو أنا مش هاخلص من سفِّك عليّا يا «لبنى»؟!

أنظرُ له وأنا أراه خمسة أشخاص يتقافزون حولي من أثر الوقعة، وأشعر برغبة عارمةٍ في لكمِه لإحباطه لي! ثمّ أقول له ثأرًا لنفسي:

– أنا بسفّ عليك! والله.. أُمَّال مين اللّي كان بيسفّ دلوقت ويقول باليرينا؟! وعمومًا مش هاردّ عليك، واه تخينة يا «يوسف» ودا اللّي عندنا، وبرضه مش أحسن ما أكون قرْعَة ورفيعة ومعصْعَصة وطالع لي كرش ملوش أيّ علاقة بيّا! بسّ أهو بربّي عداوة، صحيح يا يوسف هو في حدّ وزنه 70 ويكون كرشه 30 كيلو!

يا ريت بلاش نتكلّم على الوزن والجسم، فين أيّام ما كنت رفيعة وتقولِّي اتْخني، مش عاوزك مسلوعة، ولمّا اتخنْ تسفّ عليّا يا مفتري؟!

يصرخ قائلًا:

– خلاص خلاص، ربّنا ياخد اللّي يزعّلك ياشيخة، ده إنتِ كيم كارديشيان، ولا تزعلي ولا بسفّ ولا بتريق.

أردُّ عليه غاضبة:

– إيه يا «يوسف» هو انتَ مُعجب بالستّ كارديشيان دي؟ الله يرحم لمّا كنت أنا كلّ السّتات في عينك! إنت بتعاكس السّتات دلوقت يا «يوسف»؟! ووصلت لكيم كارديشيان! وأنا اللّي عاوزه أخسّ علشان أفرّحك، وإنت أصلًا بتلعب بديلك وعنيك زايغة!

يردّ ساخرًا:

– ديلي إيه هو انتِ شايفاني قطّ واللّا تعلب! أنا بقولك شايفك عاملة زيّ مين.. إنتِ بتدوّري على الخناق، بلاش كرديشيان، خلاص أنا آسف! هاتي راسك أبوسها، بسّ بلاش نكد الله يرضى عليكِ، أنا جاي من برّا مش مستحمل!

وقبل ما أنبس ببنت شفة، تأتي «هنية» لتقول شيئًا، فتلتقط كلمة كارديشيان فتقول:

– يا مدام مش كربشنان دي هيَّ الممثلة اللّي البنات بيحبّوا شكلها

وعاوزين يبجوا شبهها؟! هو حضرتك هتعملي عمليّة وتتحوّلي؟!

ينفجرُ «يوسف» ضاحكًا ويقول لي: - قابل يا معلم، أهو ذنب ناس بتخلّصه «هنية»، اعترضي بقى، هتتحوّلي يا «لبنى»؟! إوعي تقولي حاجة.. أنا رايح لجدّك؛ أجدع راجل فيكِ يا مصر!

ألقي نظراتٍ نارية في اتّجاه «يوسف» الذي يتركني لـ»هنية» ويذهب لجدّي مرحبًا ومقبّلًا إيّاه، وللعجب، جدي يتعرّف عليه ولا ينكره كما فعل معي، وأستعجب من عالم الرّجال!....وأعودُ لـ»هنية»، أقترب منها وأمسك بقفاها وكأنّي سأعلّقها على المشجب، وأقول:

- كربشنان لّما تلحس دماغك، إنتِ يا بنت انتِ متسلّطة عليّا! بتتحشري بيني وبين جوزي ليه؟! نفسي أعرف هو حدّ قالّك إنّي ناقصني جنانك! ما تبعدي عن خلقتي علشان أنا فعلًا هاتحوّل للستّ الخضرا بتاعة الإعلانات، وهاعلّقك في السقف، اخفي من هنا.

تبتعدُ عنّي قليلًا، وتقف تتمتم بكلمات، ثمّ تمصمصُ شفتيها.. أصرخ فيها قائلةً:

- ما لِك واقفة متخشّبة في مكانك ليه؟! عاوزه إيه؟ ما تمشي يلَّا من هنا.

تهزّ رأسها تعبيرًا عن زهقها، ثمّ تبتسم ببلاهة وتقول:

- إدّيني الأمان يا مدام، عاوزه أجولّك حاجة وبلاش تتنرفزي وتزعّجي.

أهزّ لها رأسي بالموافقة فتقول:

- بصّي.. حضرتك هو الأسطى طلعتْ واجف برًّا ومتعفرت وكأنّ حنش جرصه! وأنا مش عارفه أكلّمه من ساعة ما جلِّي انْدهي ستّك وأنا جولتله إنّها مش موجودة، مآهو صحيح وهي ستّي إيه اللّي هيجيبها عندكم هنا؟! فلمّا جولتله كِدِه زمجر وجالّي اندهي سيدك، فجولتله يا عمّ طلعت سيدي وستّي في البلد، راح شاخط فيّا وجالّي غوري اندهي أمّ «أدهم»، ما كان يجولي انْدهي المدام وأنا هافهم، ليه يجول أمّ «أدهم»، وبعدين هو هياخد على حضرتك واللّا إيه؟! جال أمّ «أدهم» جال!

أسألها: خلاص خلّصتِ؟! ممُكن أردّ؟!

لا يبدو عليها أنّها تسمعني وتُرْدِف: - وهوّ صحيح يا مدام ليه بيسأل عن سيدي وستّي، همَّا اتّصلوا وجالوا جايين ياخدوني؟

ثمّ تتقافزُ في مكانها وتقول: بلاش يا مدام، أنا مرتاحة هنا والنّبي، يا مدام بلاش تمشّيني من عندكم.

ثمّ وكأنّ هناك لمبة فهْم أنارت في رأسها قالت:

- بسّ هوّ حضرتك مبتردّيش عليّا ليه؟ وهو ليه كلّ ما حدّ يشوفني يجولي غوري؟!

وبمجرّد أن تغلق فمَها أنفجرُ في الضّحك ولا أردُّ عليها،

فتنظر إليَّ باستغراب ولكن لا تتكلّم، هذه الفتاة حكاية حقًّا على رأي «يوسف»، فـ«هنية» أول مرّة تعمل في بيت كان بيتي، ولم يقلْ لها أحدٌ كلمة «ستّك»، لذا جُنَّ جنونها وارتبكت، لماذا يريد أسطي طلعت جدّتها؟! ثمّ زادَ الطينَ بلّة عندما سألها عن سيّدها وهي ظنّت أنه يقصد جدّها، أنتبهُ إلى أنّها مازالت واقفة تنظر إليَّ وأنا أضحكُ وعلاماتُ الدهشة مُرتسمة على وجهها، فأقول لها: خلاص روحي انتِ، أنا رايحة لطلعت، شوفي «بسنت» عند جارتنا، واتأكّدي إنّها مبتعملش مشاكل، وارْجعي بسرعة، متركنيش ترغي مع سعديّة، بسرعة روحي وارجعي.

تتكلّم بجديّة وقد نسيتْ أسئلتها الكثيرة وقالت:

– شفتِ يا مدام لمّا بتضحكي بتبجي شبهنا ازّاي زيّ المصريّين فعلًا، موش خواجاية!

لا أُعقِّبُ على كلامها فرأسي تكادُ تنفجر، وأُحَوِّلُ وجْهي عنها وأذهب لأرتدي إسدالَ الصّلاة، وأتوجّه إلى طلعت فأقول له:

– مِن فضلك يا طلعت، خلّيك قريّب منا، وهانزلّك شاي مع «هنية»، وأوّل ما جدّو يحبّ يروّح هاتصل بيك.

وعندما ذكرت اسم «هنية» خيِّلَ إليَّ أنّي لمحت على ملامحه الهادئة تحوّلًا، وبمجرّد انتهائي من كلامي وجدتُه يقول لي:

– معلش يا مدام أنا لسّه شارب شاي، مش عاوز حاجة، شكرًا، وبلاش تتعبي «هنية» مش عاوز حاجة، شكرًا، وهانزل استنّى الحاج عبد الله تحت.

أتفحّص ذلك الذي لا يريد (تعب لـ»هنية»)، فأرى في عيونه رغبةً في ذبحها! ويتأكّد لي أنّها فعلت شيئًا ما أثار حفيظةَ الرّجل الهادئ الرصين، وليست فقط كلمة «ستّك» التي استفزّته، أكيد هناك حدث جَلل؛ فأنا أعلم «هنيّة» حقّ المعرفة، وهيئة الرجل تدلّ على غيظ شديد. فأردُّ عليه قائلةً:

– تمام يا طلعت، خلاص، أوّل ما جدّو يقرّر إنّه يروّح هنتصل بيك، شكرًا.

أغلق الباب وأتّجه حيث يجلس جدّي و»يوسف»، والحوار بينهما على أفضل ما يكون، و»رمضان» يجلس بينهما فاغرًا فاه، وأحمدُ الله أن «بوسي» عند جارتنا و»أدهم» في مشوار، وإلّا كانت نهاية هذا اليوم استدعائي بمستشفى الأمراض النفسيّة نزيلةً دائمة!

بعد الغداء، جلسنا جميعًا في حجْرة المعيشة نتبادلُ الأحاديث والذّكريات التي فشلنا جميعًا في إحيائها عند جدّي إلّا البعيدة جدًّا؛ تلك التي حدثت له في أوّل حياته.

ولقد أذهلني النّقاش الدّائر بين جدّي و»يوسف»، ومدى استجابة جدّي لمداعبات «يوسف»، والبهجة التي حلّت على

الجميع، وكنت سعيدة؛ لأنّي لأوّل مرّة أرى جدّي سعيدًا ومتجاوبًا هكذا. وفجأة قال جدّي:

- «يوسف» يا ولدي، لقد مكثت في بيتكم مدّة طويلة ولم يأتِ والدُك المحترم أو والدتك لتحيّتي!

قلّبت نظري بينهما، وظللتُ صامتة لا أنبس ببنت شفة، ولم يصدرْ منّي أيّة حركة، كأنّي تمثال، وراودني شعور أنّي شارفتُ على الجنون، لكنّ «يوسف» يجاوب جدّي مجاريًا إيّاه في الحديث ويقول له:

- الحقيقة يا جدّي همَّا مش موجودين، بسّ لو تحبّ أتّصل بيهم ييجوا علشان يسلّموا عليك عينيَّ، حاضر....فيُرَبِتُ على كتفه، ويقول له:

-سلمتَ يا بُنيَّ من كلّ شرّ، ولكنّي أرى أنّه لا يصحّ أن تمكثَ أنت وأحلام بنت ابني في مكانٍ واحد دون أهلك، وحتى هذا الصغير أخوك المدْعو «رامي» لا يكفي أنْ يكون معكما؛ فهو لنْ يقوم بمقام أبيك وأمّك، وحتى لو كنتم عاقدين، فهذا لا يصحّ، لا يصحّ.

هنا، أدرك «يوسف» مقصدَ جدّي، فابتسم قائلًا:

- حاضر يا جدّو، بسّ إنتَ ماتزعلش.

وفجأة ونحنُ جلوس، ينهض جدّي مبديًا رغبةً مُلِّحَةً في الرّحيل، وكأنّ جلسته معنا كانت بمثابةِ تنشيطٍ جزئي للذّاكرة،

فيرحل عنّا وهو يتذكّرنا جميعًا، فأصبحت «لبنى» بعد أن كنتُ «أحلام» ابنة ابنه مرّة أخرى، وأكّد قبل رحيله مرّة أخرى أنّه لا يصحّ أن أعيش في بيت حماتي إلّا بعد الزّواج. فأُقَبِّلُه قائلةً:

– حاضر يا جدّو، سلّم لي على عمّتو «وصوف» ودادة «فتحية».

فيشاور بيده ويقول:

– آهٍ من عمّتك، إنّها تملأ البيت شغبًا وموسيقى صاخبة، وكأنّه لا يوجد غيرها في المنزل، والله إنّي لأتساءل كثيرًا، متى تتزوّج وأستريح من إزعاجها هذا؟!

أنظرُ إليه والدّهشة تقرّر أنْ ترسم خطوطَها على وجهي! فما أسمعه جعلني أقول في نفسي: (ليه كده! هو في إيه! هو أنا مليش أهل يسألوا عليّا؟!هو أنا بيتعمل فيّا كده ليه؟!)، وأتذكّرُ أنّ كلّ ما يحدث لي بسبب أهلي، فأقول له:

– معلش يا جدّو اصبر عليها، عيّلة صغيرة وبكره تكبر.

يصدِّق على كلامي ويقول لي:

–عندك حقّ يا «أحلام» ربّنا يهديها وتصير مثلك. وعند هذا القدْر من تداخل الأسماء أحمدُ الله أنّه لا يراني أبي.

ونستدْعي طلعت ليأخذ جدّي، ولكنّ «يوسف» يصرّ على مرافقته إلى سيارته كي يطمئنّ عليه، فينزلون جميعًا وأذهبُ أنا إلى حجرة المعيشة في انتظار «يوسف».

الفصلُ الحادي عشر

برّه عنّي وبلح

وما أنْ أجلسُ على الأريكة، وأرفع قدميّ المتعبتيْن في محاولةٍ للاسترخاء، فجأة أتذكّر عمّتي، فأقفزُ من مكاني وأنادي على «هنيّة» لتحضر لي سماعة الهاتف اللّاسلكي من الخارج، لقد نسيتُ أمرَ عمّتي تمامًا، وخفتُ أن تكون أمّي نسيت أن تخبرَها بأمر جدّي؛ فاتّصلت بها: – آلو، عمّتو حبيبتي، إزيّك.. أنا «لبنى».

وعلى الطّرف الثاني بعدم اهتمامٍ أو تركيز:

– أيوا يا «لبنى».. إزيّك يا بنت.. عاملة إيه؟ وإزّي عيالك؟

أضحك، فهي لم تسألْ عن «يوسف»، وهذا طبيعي، وأقول لها:

– كلّنا بخير ياعمتو يا حبيبتي ، وحتى «يوسف».

ثمّ أُرْدِفُ قائلةً:

– عمّتو، جدّو مش هييجي لك، هو هيروح على البيت، هي ماما كلّمتك؟

فما كان منها إلّا أنْ صرخت في أذني قائلةً:

– إنتِ بتستعبطي يا بنت عامر! الله يرحمك يا خويا معرفتش

تربّي! سيبتيه ينزل ليه، ما كان باتْ عندك، أو جالي، هيعمل إيه في البيت وحده، وأمّك طبعًا نسيت تقولّي إنّه عندك، مآهو أنا آخر مَن يعلم، وأنا هاتجنّن! هي أمّك مش هتبطّل حركاتها البطيئة دي؟!

أسمعُ منها كلمات؛ وحده وأمّك وعندك، أشعر كأنّ الأرض تميد من تحتي، أو أنّ هناك غزوًا من الكائنات الفضائيّة، وعلى إثره قام أحدُ الغزاة بتدمير خلايا التركيز والذّاكرة عند عمّتي، أو أنّ هناك جنًّا أحمرَ قد تلبّسها! أحاول أنْ يبدو صوتي متماسكًا، وأقول لها:

– عمّتو يا حبيبتي، جدّو راح بيته ومش هيقعد وحده، إنتِ عارفه إنّ معاه دادة فتحيّة هناك، فاكراها؟

تقول لي: – يووو، آه صحيح، فتحية! قطيعة تقطعها، دي مغلّباني مبعرفش أقول كلمتين إلّا لمّا تصرخ في وشّي وتقول خمستلاف إيه.. بتقولي إيه؟ وبرضو مبعرفش أكلّم بابا! وبعدين يعني إنتِ فاكرة فتحيّة دي أصلًا عايشة مع بابا، دي مش في الدّنيا، هو عايش لوحده، والله صعبان عليَّ.

أحاول أنْ أعيدها على الخطّ الذي نتحدّث فيه حتى لا تستدعي كلّ ذكرياتها وأنسى أنا هدفَ المكالمة، فأقول لها:

– يا عمّتو بشويش على دادة فتحية! ما لك، فيك إيه يا ستّ الكلّ، الستّ خلاص العدّاد قلّب ودماغها بلح!

تقهقه بصوتٍ يكاد يقضي على آخر جزءٍ سليم في طبلة أذني، أُحدّث نفسي: هو في إيه؟ العيلة دي هتخلّيني اتجنّن رسمي.

ثمّ يصل إلي مسامعي صوتُها مجلجلًا:

- آلووووو يا «لبنى» إنتِ يا بنت، رحتِ فين!؟ إيه يا بنت يا لوبي، بتدافعي عن مين؟! دي هتهبلني.

ثمّ تستدرك:

- إستنّي يا دي الخيبة، أنا شكلي داخلة على زهايمر، صحيح دي أمّك كلّمتني قالت إنّ بابا عندك، معلش يا «لبنى»، سامحيني يا بنتي، هو أنا ساعات كده بفصل من الغُلْب.

ثمّ تقول لي وهي تضحك: - بسّ إيه بلح ده! مش فاهمة؟!

أسكتُ برهة وأنا غير قادرةٍ على التّصديق، عمّتي أصابها النسيان، وتتّهمني بالتّقصير، ثمّ أتنفس بهدوء وأقول:

- ولا يهمّك يا عمّتو يا حبيبتي كلّنا بننسى، أمّا «بلح» دي كلمة بيقولها لي «أدهم».. يعني معناها؛ بحّ خلاص مفيش، سيبك من البلح وقولي لي إنت عاملة إيه وإزّي ريهام ومحمود، عاملين إيه وعيالهم؟

تتنهّد بقرف، ثمّ تقول لي:

- زيّ الزّفت، كلّهم زفت، وإنت المحروس أبو دمّ تقيل جوزك

عامل إيه! لسّه رخم؟ يختاااي ده جوزك يا بنت يا «لبنى» والله كئيب، تحسّيه بيخرّ كآبة كده، إنتِ مستحملاه ازّاي؟! سيبك من كونُه كئيب.. هوّ لسّه برضو مستر بني! بيلبس بني واللّا ربّنا هداه؟!

ثمّ تضحك بسخريةٍ وتقول:

- بسّ الحقيقة يا «لبنى» المشكلة إنّه فعلًا حدّ رخم، وملوش قُبول كده في النفس.

أقاطعها متوسّلة إليها أن ترحمَه قليلًا وأقول:

- يا عمّتو حرام عليكِ، إنتِ قرشة ملْحِته ليه؟ مع إنّه حتى وهو لابس البني اللّي مش عاجبك كان، ومازال، آخر شياكة، هو «يوسف» عمل لك إيه؟!

تقهقه وكأنّها ابنة 10 سنوات وتقول:

- أصلي بحسّ إنّ جوزك على المعاش، صحيح ابن ناس ومتربّي، بسّ مش مرح، بصّي يا «لبنى» من الآخر إتِمْ كده ودمّه تقيل.

أستغرب من عمّتي التي لا تترك مناسبة أو مقابلة أو تليفون إلّا ولا بدَّ أن تسخر من «يوسف»، وكأنّ بينها وبينه ثأرًا، أو أنه زوج أمّها، أحاول أن يبدو على صوتي الاستمتاع بالحوار، فأضحك:

- هاهاهاها.. يا عمتو دمّك خفيف والله، يا ستّ الكل «يوسف» دمّه زيّ العسل، متقوليش عليه كده، والله ده حبّوب، بسّ

مش بياخد على النّاس بسهولة! وانتِ مستقصداه، مع إنّه بيحبّك.

تقاطعني قائلة:

– حبّوب في عينك، ده دمّه زيّ السّم، شوفي جوز عمّتك هوّ اللّي بصحيح حبّوب، لذيذ ودمّه خفيف وبيحبّ المرح، وقعدته جميلة، بصراحة إنتِ يا بنت عسل زيّ عمّتك! ومسخرة، مش عارفة ليه اخترتِ واحد بايخ كده؟!

أنفجرُ ضاحكةً وأقول لها:

– إيه يا عمّتو بسّ مشكلتك معاه! ...ثمّ تمرّ ببالي فكرةٌ خبيثة؛ فأقول لها:

– وعمومًا خلّيني بسّ أفكّرك إنّ أبو دمّ خفيف وحبّوب، جوزك يا عمّتو، متجوّز عليك من 10 سنين، من عيِّلَة قدّ عياله ومبسوط معاها، زيّ ما حضرتك بتحكي وتقولي!

فجأة يختفي صوتُها وأسمع صوتَ حشرجة ثمّ تقول:

– آه، منّه لله البعيد حرق قلبي، إلهي ربّنا يحرق قلبه زيّ ما قهرني، ويورّيني فيه يوم، هو واللّي تنضرب في عمرها مراته الحرْباية، كسروا قلبي، وخطفته منّي المُجرمة، وهوّ فرحان بيها وقاعد عندها على طوول، ليه فكّرتيني يا «لبنى» يا اللّي تنقرصي في لسانك انتِ!!؟

ثمّ تضحك بهستيريا وتقول:

- لكنْ أنا رأيى في الرّجالة مش بيخيب، بس خاب في جوز عمّتك، لكنّ جوزك برضو دمّه تقيل.

أعتذر لها وأقول:

- معلش يا عمّتو أنا كنت بهزّر معاكِ، مكنتش أعرف إنّك لسّه زعلانة عليه، ومقهورة كده.

تقاطعني صارخة:

- فشَرْر.. مين يا بنت اللّي مقهورة وزعلانة، أنا بسّ لمّا افْتكرتهم حبّيت أدّيهم اللّي فيه النصيب، أنا أصلاً ولا بفكّر فيهم، إلهي يتطلقوا ويتشردوا.

أقرّر أن أُغيّر الموضوع، فمن الواضح جدًّا أنّ عمّتي نسيت موضوع الزواج لدرجة أنّها ستقتلني إذا لم أصمت، أو أتحدّث في شيء آخر، فأقول لها:

- نفسي أشوفك يا عمّتو، هتيجي إمتى، وخلّيني أشوف هيام وعيالها ومحمود ومراته وعياله.

فترد عليَّ وهي تضحك:

- قطيعة تقطعهم كلّهم، مبيجيش من وراهم إلّا الصّداع، وبيوسّخوا البيت، أنا هاجي لك إنْ شاء الله وحدي، لمّا جوزك أبو دمّ تقيل يكون مش موجود.

أتعجّب من كرهها لزوجي غير المبرّر، وأقول لها:

- معندناش حدّ دمّه تقيل! حرام عليك يا عمّتو.

يُقبل «يوسف» عليَّ متسائلًا ويقول:

- مين دمّه تقيل ومين رخم! إنتِ بتكلّمي مين يا «لبنى»؟

أُسْقِط في يدي، وأقول له:

- عمّتي «وصوف» يا «يوسف»، بتسلّم عليك.

ينظر إليَّ بدهشة ويقول:

- «لبنى» الكدب حرام، عمّتك مش بتطيقني، ومتأكّد إنّها لا يمكن تبعت لي سلام، دي عمرها ما سلّمت علي إلّا لمّا تقولي أهلًا يا خويا، مش معقول هتسلم عليّا وكمان عبْر الأثير! بسّ تعرفي يا «لبني» نفسي قبل ما أموت أعرف هي بتكرهني ليه كده، أنا أصلًا مفيش بيني وبينها أيّ شيء يستدعي النّظرات النارية اللي بتحدفني بيها على طول؟!

وعلى الطّرف الآخر أسمع عمّتي تقول:

- إنتِ يا بتّ يا كدّابة مين اللّي بسلّم عليه! يلّا اقفلي السّكة، مش بسلّم على حدّ دمّه تقيل.

وتقوم بغلق الهاتف بعنفٍ شديد، أبتسمُ مثل البلهاء، وأطلب من «يوسف» أن يأخد الهاتفَ معه، ولا يجعل أحدًا يدخل عليَّ لأنّني

أريد أن أنام قليلًا، فنهاري كان شديد التوتّر، وأشعر بصداعٍ يكاد يمزّق رأسي، فيخبرني أنه سيذهب ليشاهد التلفاز مع رامي وسيغلق الأنوار وينتظر «بوسي» و»أدهم» حتى لا يزعجانِي، ثمّ يقترب منّي ويقول لي:

– تعرفي يا «لبني» لّما بتبقي تعبانة بتضايق، وبشعر بحاجة ناقصاني، أصل بصراحة لّما المفتري يقع؛ الواحد بيحسّ إنّ الدّنيا خربت خلاص... ثمّ يقرصني من خدّي ويقول: المفتري القمر.

أنظرُ له بنصف عينٍ وأشعرُ أنّه قد أصيب في عقله بلوثة، ثمّ أقول له:

– إيه الألشْ البايخ والسفّ اللّي ملوش طعم ده، تصدّق أنا كان نفسي أقدر أحدفك بالتّليفون بسّ مش قادرة.

يبتسم ويشاور لي (خلاص)، ثمّ يتركني أكلّم نفسي! وبمجرّد أن أضع جِسمي على الفراش، وأغمض عيني، أذهبُ في سُبات عميق، وفجأة يدوّي صراخ عنيف في البيت أقوم فزعةً، وقلبي يدقّ بسرعة لدرجة أنّي شعرت أنّه سيتوقف!

***

جلستُ على السرير للحظاتٍ لا أدري ما الذي يحدث، وأنا أحاول أن أتمالك نفسي، ففي اللّحظة التي دخلت فيها في النوم بعد

إرهاقٍ عصبي، أفزع من ذلك الصوت، أتبيّن ماذا يحدث، فأعلم أنّها «بسنت» قد حضرت بزعابيبها، جاءت ابنتي من عندِ الجيران، وصوتها يتردّد صداه في البيت فيساروني الشكّ أنّ وراء هذا الغضب العارم حدوث كارثة سببها «هنية»، ثمّ فجأة يُفتح الباب، وتدخل «بوسي» ساخطة وصوتُها مثل صفير الرياح:

- يا ماما.. يا ماما، شوفي حلّ في الثفته «هنية» دي.

أتابعها في صمتٍ وأنا منتظرة نشرةَ الأخبار التي تحتوي على تسعين بالمائة من الأخبار المؤلّفة العارية تمامًا من الصّدق، ولكن فقط لتؤلّبني على «هنية» (الزّفتة) على حدّ قولها، فسألتها مستفسرة:

- ما لِك يا «بوسي» في إيه يا حبيبتي؟ وما لْها «هنية» عملت إيه؟

فتقترب منّي وتمنحني حِضنًا وقبْلة، كنت سابقًا أحايلها كي تمنحني إيّاها، لكنها الآن في وضعٍ تريد أن تستدرّ عطفي ومحبّتي، وتستعديني على خصمها العتيد «هنيّة»، تمسح دموعًا زائفة وتقول:

- تثولي يا مامي، «هنية» الثفته دي جاية علشان تلجّعني البيت وأنا أقول لها ثيبيني لّما أخلث لعب مع فليدة وبودي وهي تقولّي يلّا ياثت بثنت، المدام عاوثاك بثولعة، وفضلتْ تزنّ، وطبعًا أنا اتكفثت، وانطليت الوّح معاها علشان شكلي بقى علّة قوي!

أُظْهِر الجدية على ملامحي، وأقول لها:

– هيّ وصلت إنّها تخلّي شكلك عرّة! مش معقول يا «بوسي» يا حبيبتي! لا طبعًا أنا هازعّق لها، بسّ انتِ روحي اغْسلي وشّك وإيديك علشان تاكلي.

فتبتسمُ وتنسى كلّ غضبها وتقول: – لا مش جعانة.. أكلتْ أنا وفليدة وبودي، ممكن ألوح أكمّل لعب يا ماما؟

أرفضُ وأقول لها:

– لأ، خلاص، يلَّا على «هنية» تغيّر لك هدومك، وبعدين روحي اقعدي مع بابا ورامي علشان أنا عاوزه أنام شوية.

تقفز على الأرض، وتنظر إليَّ بغضب وتقول:

– على فكلة يا ماما حضْلتك بتقهلينى وبتظلمينى، أنا فلعن ثعلانة منّك.

أبتسمُ وأقول لها:

– أولًا إنتِ شكلك مش بتتدرّبي على الحروف زيّ دكتورة التّخاطب ما قالت لك، الزّين والسّين عندك ث، ليه يا بوثي؟ يووو أقصد يا «بوسي»، وعلى فكرة أنا لا بظلمك ولا بقهرك، يا أمّ ألف لسان، يلَّا، امشي على «هنية»، والرّاء طبعًا مفيش أمل تبطّلي تخلّيها لام؟

تبتسم وتقول: ماما فكّك من الدكتوله دي، كلامها كلّه بالا عني، اللّي عاوث يفهمني هيعلف.

أنفجرُ في الضّحك وأقول:

– الرّاء اللّي لسّه متصلحتش شغّالة بيها وبتنقّي الكلام بيها باقتدار، «بوسي» شكرًا! وبرّه عنّي كمان، مآهو المعلّم بتاعك «أدهم»، هنقوله لازم ينقّي كلام مفيهوش راء!

تخرج محدّثةً جلبةً، وتنظر إليَّ بطرفِ عينيها اللّامعة الغاضبة وتصفق الباب خلفها بعنف. فتفتحُه «هنية» وتدخل خلفها، وقد تبادلا نظراتِ التحدّي قبل دخول «هنية» وهي تحمل في يدِها الهاتف وتقول لي:

– يا مدام، المدام مامت الأستاذ «يوسف» على التّليفون.

وقبل أن أقول أيّ كلمة أو حتى أتناول منها الهاتف تُرْدِف وتقول:

– على فكرة صوتها مش عارفة ما لُه كده غريب، وشكْلِها متنرفزة، هتكلّميها ولا أجولّها إنك نايمة.

أصرخ فيها:

– إنتِ اتهبلتِ!! أنا نايمة واللّا صاحية؟! هاتي التليفون وابعدي عنّي، أيّامك معانا شكلها قرّبت تخلص، بسّ لمّا أفضى لك.

أضعُ السّماعة على أذني فلا أجد إلّا حرارة، وهذا يعني أنّها أغلقت الخطّ!

أصرخ فيها مرّة أخرى: – ارْتحتِ، أهي قفلت الخط، كان لازم ترغي.

أشعرُ بالكارثة المقبلة عليَّ من جرَّاء تأخّر «هنية» في إعطائي الهاتف، ثمّ أنظر إليها بغضب، وأقول لها:

– مبسوطة يا بومة؟! النّهارده أهو بسببك مش هيعدّي على خير.

تردُّ عليَّ بصوتٍ قوي وتحدٍّ غريب:

– ليه يا مدام! الحجّ عليّا عاوزه أوفّر عليك الشّخط، وتسميم البدن، وجلبة الوشّ بعد ما تجفلي التّلافون، مآهي المدام مامة الأستاذ دايمًا تنكّد عليكِ، الحجّ عليّا يعني، هو كده خيرًا تعمل...

ثمّ تصمت، فأقول لها:

آه، كمّلي يا فالحة شرًّا تلقى، مآهو ده اللّي حصل معايا لمّا جبتك من البلد.

لا تهتمّ بالردّ على تعليقي كالعادة وتكمل كلامَها، فالأسئلة تتدفّق على رأسها، وقد قرّرت أن تحاصرني بها:

– إلّا صحيح يا مدام، ومن غير إساءة أدبْ منّي، هي المدام سعاد ليه بتعاملك عفش كده؟! وكأنّك بنت جوزها مش مرات ابنها؟! ثمّ هرشت رأسَها وأضافت:

– واللّا لتكون كانت عاوزه تجوّز الأستاذ «يوسف» لبنت أختها، زيّ المخفيّة مرات عمّي لمّا فضْلت ورا أختي لمّا طلجتها من ابنها، وجوّزته بنت أختها، وأختي يا عينيَّ متلجّحه في بيت

أبويا وحيدة هي وعيالها، بسّ أبويا، جال لها تعيشي في بيتي متكرّمة ومحدّش يذلّك!

ثمّ تضيفُ على الفيلم الذي تقوم بتأليفه:

– يمكن المدام سعاد بتعاملك وحش علشان أبو حضرتك متوفّي وانتِ يتيمة؟!!

أنْهرها بصوتٍ مكتوم، وأقول لها: إخرسي.. وغورررررررررررري

فتعطيني الهاتف وترحلُ وتغلق الباب خلفها، وأنا أشعرُ برعبِ اللّحظات القادمة عندما أتّصل بحماتي أو تتّصل هي، لكنّني أحمد الله أنّها لم تسمع حوار «هنية» معي، أو أظنّ ذلك.ثمّ أنتبه لكلمات «هنية» التي قالتها، وأتساءل:

– أبو مين اللّي بتسرح بيّا وتقول أبوها قال تقعد متكرّمة!! هي مش أبوها مات!! آه من دماغك يا «هنية»!

***

وكأنّها نوبات أو نوبتجيّات يتناوبها عليَّ أهل البيت، تخرج «هنية» والصّداع يكاد يلتهمُني، فيفتح «أدهم» الباب وأنا جالسة أنظرُ لسمّاعة الهاتف لا أدري ماذا أنا فاعلة بها؛ هل أتّصل بحماتي أم أنتظر أنْ تتّصل هي بي، وفي الحالتين سأسمع هجائيّة من هجائيّات

جرير، فقرّرت الانتظار، فاقتربَ «أدهم» منّي واحتضنني ثمّ قال لي:

- ما لِك يا ماما بتتفرّجي على التّليفون كده ليه؟

ثمّ يضربُ بيده على جبهته ويقول:

آه صحيح.. بخصوص التليفون، نسيت أقولّك، عمّتو إيمان اتّصلت بدري قبل ما أنزل وبتقولّك: عاوزاكِ متتأخّريش على المشوار اللّي اتّفقت معاكِ عليه، علشان الشّركا عندها مجتمعين لمناقشة الميزانية، وبتطلب منّك تشتري بيتزا، وتورتة على ذوقك، علشان هيَّ مش فاضية، بتخلّص حاجات تانية.

أهزّ رأسي، وفي سرّي أقول:

- ذوقي! إيه التّهريج ده! هي إيمان حصل لها حاجة؟ هو أنا هانزل مخصوص أجيب بيتزا وتورتة!؟ متجيب هيَّ.

ثمّ يؤنّبني ضميري: هوّ بسّ لولا إنّي بحبّها وهيَ تعتبر القلب الحنيّن في العيلة دي، كنت اتجنّنت عليها وخرَّجتْ غُلْب اليوم فيها، إيمان بالنسبة لي شخص لطيف، لكن أوقات تعتريني رغبةٌ قوية في مشاغبتها ومشاكستها؛ ذلك لأنّها تتصرّف أحيانًا بطفوليّة مزعجة، ورغم ذلك فهي مصدرُ ثقتي وتعتبرني أختًا لها، لكنَّها أحيانًا لا تسلم من المرأة الشّريرة بداخلي، فتلك المرأة تتحكّم في تصرفاتي أوقاتًا كثيرة دون قصد، بالإضافة لتصرّفات سعاد التي تدفعني لأنتقمَ

ممّن يخصّونها، ثمّ فجأة يرنّ الهاتف النقَّال، فأضع على أذني بدلًا منه الهاتف المنزلي، فأنا أنتظرُ مكالمة من حماتي تؤنّبني أو تقرعني، أو على أحْسن الأحوال، ستعطيني أوامر، أنتبهُ إلى أنني قد وضعتُ الهاتف الخطأ، أضعه جانبًا وأفتح الهاتفَ المحمول، فيأتيني صوت إيمان ينضحُ بالرّقة:

– أيلووو أيوا يا «لبنى».. إزيّك يا هني!

في هذا الوقت من ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي تلكمُ الحياة، قد تمَّ شحن الشرّ والسّخافة داخلي بمعدّلات عالية تماثلُ كهرباء برجٍ من أبراج الضّغط العالي! فأقول لها ببلادة:

– مين معايا!؟

فتردُّ عليَّ بصوتٍ مندهش:

– «لبني».. مين معاكِ يعنى إيه؟! هو انتِ مش مسيّفة ركمي، أنا إيمان يا هني!

فأردّ عليها متصنّعة البراءة:

– أهلًا، إزيّك يا إيمان عاملة إيه؟ معلش يا حبيبتي، أنا أصلي مُجهدة، وصوتك غريب قوي، ما لِك فيكِ إيه؟

وبنفس درجة الصوت، والرّقة «الأوفر» تردّ إيمان عليَّ قائلة:

fine my dear كنت عاوزه أسألك question، مُمكن يا «لبنى»؟.

أنا: of course اتفضّلي يا إيمان go ahead..

إيمان بصوتٍ رائق تقول لي وتتجاهل نبرةَ السّخرية، أو لا تدركها؛ لا أدري:

- «لبني» يا دير، معلهش إنتِ عارفة المان اللّي جنب بيتكم بتاع البيتزا

أنا: مين المان ده؟!

إيمان: المحلّ اللّي جنبك على طول.

أسألها: هو اسمه المان؟!

إيمان: لأ يا «لبنى»، أقصد الرّاكل صاحب المحلّ.

أبتسم بشر، فقد طلب منّي الموقف سخريةً ومشاغبةً قدْر استطاعتي وأكثر؛ فأنا لو لم أفعلْ هذا سأقف في الشّرفة أصرخ كالمجنونة! فقلت لها:

- إيه الرّاكل ده، يعني إيه؟!

إيمان: يا «لبني» المان، The man you know!

أنا: آه الرّاجل، إيمان إيه الرّاكل دي، ثمّ أتذكّر، آه نسيت التقويم اللّي انتِ حطّاه، هو هيخلص التقويم إمتى يا إيمان؟

إيمان: آه يا «لبنى»، الدتتور بيقولّي شوية وقت، علشان عاوزه أعمل سناني زيّ أليسا!

أضحكُ حتى تدمع عيناي، وأقول لها:

- دتتور، آه الدكتور، هي الكاف قلبت ته ليه؟!

إيمان: - معلهش يا دير التّقويم مبوّز كلّ الحروف، إيه رأيك في سنان أليسا، واللّا إيه رأيك أعمله زيّ نانسي عجرم؟

أردُّ عليها بجديّة وثقة: لأ، خلّيهم زيّ سنان شعبان عبد الرحيم.

تقول لي: - بسّ ده راجل! معقول سنانه حلوة! إنتِ بتسفّي عليّا يا «لبنى»؟ صحّ! why my dear!

أقول لها: - بسفّ عليكِ! أبدًا يا حبيبتي، أنا بسّ بفكّر معاك بصوت عالي، طيب متزعليش خلاص، أنا بهزّر معاكِ، متعلبيش في سنانك، دول حلوين جدًّا بس اطلبي من الدتتور بتاعك يظبّطهم.

ثمّ أُرْدِف قائلةً: بلاش، أليسا وخلاص.

أشعرُ بأنّي شريرة، فإيمان أطيب قلب في بيت حماتي وأغلبهم، وأكثرهم سذاجة، أغيّر الموضوع وأقول: ماشي يا إيمان، هاجيب بيتزا وتورتة، «أدهم» قالي على ذوقي.

إيمان: طبعًا يا «لبنى».. ذوقك لا يُعْلَى عليه، فعلًا إنتِ amazing.. Unique يا ماي هارت!

وفي سرّي أقول: Unique

، الستّ دي ملهاش علاقة بسعاد، أكيد متبنّياها، الله يرحم (البيئة

واللوه) اللّي كانت على طول توصفنى بيهم سعاد لمّا تغضب عليَّ!

ثمّ أرفعُ صوتي: حاضر يا إيمان، حاجة كمان؟

إيمان: آه من فضلك عصير العنب والصودا.

أصرخُ فيها: ينْهاركم اسود! إنتم هتسكروا عندكم في الشركة؟ ايه دا يا إيمان، وأنا اللي كنت فاكراكي ملتزمة؟ وحجاب إيه ده، وصلاة ايه؟ لا لا مكنتش فاكره انك كده ، ،اخوكي عارف الكلام ده؟ ربنا يسامحك مكنتش اعرف انك كده

إيمان ضاحكة بصوت عال: اهدي يا هني في ايه، انت فعلا وبجد ظريفة والله يا «لبني» so funny، ياروحي طبعًا لأ، العصير مفيهوش أيّ شيء مسكر، والصودا علشان الهضم...على طول كده تظلميني، انت naughty

أقول لها من باب الاحتياط: مش هاعرف أجيب المشروبات، جيبيها انتِ يا هني.

إيمان: أوكْ يا «لبني» يا حبيبتي اتّفقنا، باي يا دير.

أنا: باي يا جرجير! قال دير آل! هو أنا ناقصة يا إيمان! دا اليوم انْضرب وهيختم بطلباتك.

بعد أن أغلقت الهاتف مع إيمان، فردتُ جسدي على الفراش، فأنا أصبحت متأكّدة أنّ هذا اليوم طويل بشكلٍ مُنقطع النّظير، ويأبى

الانتهاء بسلام، فهو ممتلئ بالأحْداث والتليفونات والنقاشات، ورغم أنّ المغرب لم يؤذّن بعدُ؛ فإنّه أطول يوم في عمري! نفسي أنااام، يا بشر الرّحمة.

***

وبمجرّد أن أغمض عيني وأمدّد جسدي في الفراش، يدخل «يوسف» الحجرة بهدوء، ويقتربُ من السرير، ثمّ يضيء النورَ فأفتح عيني، وألمح على وجهه الضّيق، ثمّ يظهر على ملامحه التّجهّم والعبوس، وأرى عيونه كأنّها جمرة نار مشتعلة، تشي بغضبٍ شديد وعارمٍ قادم بسرعة، يعود ليقفل الباب بقوّة ثمّ يغلقه بالمفتاح كأنّ هناك أمرًا جللًا، أو انْتوى العراكَ معي، يقترب منّي مرّة أخرى ويقف أمامي مباشرةً محدقًا فيَّ، وواضعًا يده في جيب بنطاله، وبتحفّز يقول لي:

– «لبني»، على فكرة بابا اتّصل حالًا، وبيقولّي ماما زعلانة جدًّا ومنهارة من العياط، علشان كلّمتك وانتِ مردّيتيش عليها.

ثمّ لا ينتظر ردّي ويقول:

– ليه يا «لبني» محترمتيش ماما وردّيتِ عليها، من إمتى انتِ مبتردّيش على ماما مهْما كانت مضايقاك؟ وبعدين كون إنّ بابا يتّصل بيّا يبقى في كارثة حصلت! وماما زعلانة جدًّا، وماما أكيد

مبتكذبش، وبعدين هافضل لأمتى أفصل بينكم؟!

أتفحّص الواقفَ أمامي يعطيني مواعظَ في التّعامل مع البشر، ويسرد عليَّ بطولاته، كوْنه الحكمَ الفصلَ، ثمّ أرسل نحوه نظراتٍ حانقة ساخطة، وما ألبث أن أعيدها للأرض متجاهلةً تساؤلاته، والشّرر المتطاير من عينيه، وأفكّر في ردّ؛ فكون «سعاد» مُنهارة، كذبةٌ لا أصدقها- فهي لا تنهار- أبدًا، أقرّر ألّا أردَّ على هذا الاسْتفزاز من وجهة نظري، فما تدَّعيه حماتي على لسان حمايا، ظلم وجَوْر بواح؛ فأنا يومي طويل ومُجهدة، وأريد أن أستريح، ولم يسألني هل ما سمعه حقيقةً أم ظنونٌ نتيجةً لعدم التواصل، وسوء النيّة المبيّتة دائمًا بيني وبين أمّه، عاودت النظر إليه بإهمالٍ ولم أهتمّ بما قال، وعندما رأى عزوفي عن الحديث معه، اشتعلَ غضبًا وثارَ، وبدأ في رفع صوته وقال:

- مبتردّيش عليّا ليه يا «لبنى»؟! هو انتِ شايفاني شويّة هوا عدُّوا من جِانبك وصفّروا، واللّا بني آدم واقف يكلّمك! يعني تتجاهلي أمّي وكمان متعبّريش جوزك؟! هو أنا هافضل طول عمري أبرّر في الناحيتين؟!

أرفعُ نظري وأُحَدِّقُ في عيونه بنظراتٍ لا روح فيها، ولم أحاول أنْ أردَّ عليه بنفس أسلوبه المستفزّ؛ بل أتماسك وأقول له:

- عاوز تعرف اللّي حصل واللّا خلاص صدّقت مامتك وباباك

وقرّرت تصدر أحكامًا من غير ما تسمع دفاعي؟ عمومًا اللّي حصل هوّ على ما «هنية» جابت التليفون كانت مامتك قفلت الخطّ.

يرتفع صوتُه ويصرخ فيَّ قائلًا:

– لا يا «لبني» ماما سمعت هنيّة وهي بتتحايل عليكِ علشان تكلّميها وانتِ عملتِ نفسك مش مركّزة ومردّيتيش عليها.

أستمعُ لكلامه وأنا أكادُ أُجنُّ، وأقول له:

– أولًا بلاش تزعّق علشان أنا أصلًا مجنونة ومُمكن أزعّق، ويومي خلاص بيشطّب، والجيران يسمعوا أوركسترا بيت «يوسف حمدي» السّيمفوني؟!

ثمّ أُرْدِفُ قائلةً:

ثانيًا مامتك مش بتقول الحقيقة، وعندك «هنية» تحكي الموضوع كلّه، وثالثًا ودا الأهمّ.. من إمتى إنتَ بتفصل بيني وبين مامتك؟ إنتَ طول عمرك تيجي عليّا وتقولّي اعتبريها مامتك، اصبري عليها، وأنا أمّي عمرها ما عملت حاجة، وفي حالها، وأمّك سعاااااد سعاد ما وراهاش حاجة في الحياة إلّا أنا، على فكرة يا «يوسف» إنتَ مفتري وظالم، وطول عمرك فاهم إنّ برّك بأمّك وأبوك يعني إنّك تنصرهم على زوجتك حتى لو كانوا غلطانين، دا اسمه افترا، برّك بيهم لا يعني ظلمي وأنا ليَّ عندك حقوق ومش علشان خاطرهم

تظلم مراتك وتنصرهم بالزّور، والله ربّنا هيسألك عنّي يا «يوسف» وأنا هاشتكيك له.

ثمّ أُرْدِف بغضبٍ عارم: روح اسأل شيخ واللّا دار الإفتاء، واعرفْ منهم الفرق بين برّك بأبوك وأمّك وبرّك بمراتك، إنت مش عادل، أمّا حمايا فأنا مش مسمحاه، علشان طول الوقت بيتفرّج على أمّك وهي بتبهدلني وتمرمط بيّا الأرض وعامل كإنّه سايح من الصين نزل الصعيد! ومش عارف يتواصل معاهم فبيكتفي بالنّظرات!

يقاطعني قائلًا:

- اسمها أمّك؟! أمّك يا «لبنى»! عيب كده، ليه نغلط بسّ؟

عندما قال جُملته الأخيرة هذه كان قد استبدّ بي الغضب، واشتعل قلبي نارًا، فاليوم طويلٌ مُرهِق، وكنت أرغب في قليلٍ من الراحة، فظهري يؤلمني من أثر السّقوط رغم أنّي لم أحاول أن أُبْدِيَه له، وصداع مُريع يفتك برأسي، وهو يؤنّبني على أنّي لم أكلّم أمّه، رغم أنّها أغلقت الهاتف قبل أن أردَّ عليها، ويلومني على كلمة أمّك فأقول له:

- لمَّا أقول كلمة أمّك، يبقى بغلط يا «يوسف».. ولمّا مامتك حبيبتك تقول إنّي- عليّا أنا مرات ابنها- «لبني» دي سودا كودا، وكارته، ومعرفش «يوسف» اتجوّزها على إيه، مسمعتكش بتردّ

عليها!! ليه يا «يوسف» مبتردّش عليها؟!

مع إنّي لا سودا ولا كودا، وأصلًا مش عارفة كلمة كودا دي يعني إيه؟! بسّ غالبًا سف عليّا وسخرية، وأنا ستّ بتهتمّ بنفسها وعاملة شعري بروتين وبصبغة ومهتمّية بنفسي زيّ ما جارتنا سماح نصحتني، بسّ أمّك بتحبّ التّأنيب والتلقيح والتريقة! ورغم كده مكنتش بعلّق واسكت، أمّك يا يوسف اللّي مفهّمة عيالي إنّي مش مستواكم وإنّي من سلالة عبيد! عبيد يا «يوسف»! هي مامتك عايشة ليه في دور الملكة نازلي؟! واللّا لتكونوا خواجات وجيتوا مصر تحتلّوها؟! كلّ ده علشان لوني قمْحي! واللّي زادْ وغطّى بتقول إنّهم مش ولادي وإنّي مرات أبوهم!

ينظر إليَّ وهو مذهولٌ من غضبي وكلامي الذي يتدفّق مثل شلال في أوّل انْدفاعاته.. وأُرْدِفُ قائلةً:

– على فكرة، أنا حلوة وزيّ القمر ودمّي خفيف، وكوني قمحيّة ميعنيش إنّي مش حلوة، ومامتك اللّي هي لونها أبيض تقاطيعها كبيرة، يعني لو أخدت «تان» هيبقى شكْلها زيّ الأفارقة مع احترامي الشديد للأفارقة؛ لأنّهم أصحاب قلوب طيّبة مش حقودين! يحاول أن يهدّئني فلا يستطيع، وأنا أستطردُ قائلةً وقد أصبحت قابَ قوسين أو أدني من الجُنون:

- وعلى فكرة، أنا بكرهكم كلّكم، بكرهكم كلّكم، وانا مش عاوزه أعيش معاك، وطلّقني يا «يوسف» علشان سعاد ترتاح، وعلشان إنت زوج مش قادر تتحمّل مسئولية الفصل بين أمّك وجبروتها وبيتك واللّي بيحتاجه! وكمان علشان أنا خلاص زهقت من كيلك بمكيالين، كأنّي أنا وأمّك متجوّزين راجل واحد!

يا أخي دي مش بتغير على أبوك زيّ ما بتغير عليك! هو أنا مش كفاية عليّا البيت وعيالك اللّي هبْلينّي وكلّ أمور حياتنا اللّي بعملها لوحدي، كمان مش قادر تسمع وتفوّت من أمّك وابوك، يا ما سمعت وفوّت لهم علشانك، إنتَ دايمًا تيجي عليّا، خلاص يا «يوسف» أنا ماشية وابعت ورقة طلاقي على بيت أمّي، وهات سعاد تعيش معاك هنا، وأنا مش هاقعد لك فيها.

ثمّ تركتُه وذهبتُ إلى الدولاب أستخرجُ منه ملابسي، وبدأ ينتابني صداعٌ رهيب، أضعُ يدي على رأسي من الألم، وخيالات أمام عيني، وأتذكّر السّلم وسقوطي، أحاول الجلوس، أشعر كأنّ هناك مَن يسحبني من رجلي ليوقعني أرضًا، أقاوم، وأتحاملُ على نفسي، ثمّ أحاول المقاومة، وشعورٌ بالقهر والحزن العميق يملؤني، خاصّة وأنا أرى «يوسف» جالسًا لا ينظر إليَّ كأنّه مشغول بشيء في يده، فلم يحاول أنْ يمنعني أو يستوقفني، وقتَها نما ليقيني أنّه افتعل

هذا الموقف فقط لكي أرحلَ وأترك له البيت، وعندما تمكّنت منّي هذه الفكرة اتّجهت بتثاقل إلى باب الحجرة أحاول أن أفتحَه لأرحل من البيت، فقد اعتراني إحساسُ الغريق الذي يحاول الصّعود لسطح الماء فيفشل، ليجدَ صعوبة في الكلام وجفونه أصبحت ثقيلة، فجأة أشعرُ بدُوَار شديد، وعدم تركيز وأرى الأشياء كأنّ عليها سحبًا بيضاء؛ فالبكاءُ أحالَ رؤيتي إلى ضباب، فيُخَيَّلُ إليَّ أني ألمحُ من خلالها «يوسف» كأنه يجلس على الغمام ممسكًا في يده كتابًا صغيرًا، فيستفزّني هذا المنظر، فأقوم بمحاولة لفتح البابِ المغلق فلا أستطيع، أحاول مرّة أخرى ولكنْ هذه المرّة بقوّة أكثر فلا أعرف، وما أنْ يشعر «يوسف» بجديّة ما انْتويته من خلال جذبي البابَ بقوّة في محاولة لكسره، يقوم مسرعًا ليمنعني لكنّي أسقط من الإجهاد والتوتّر، وأشعر بألمٍ حادّ في جسدي.

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ الثّاني عشر

الغيبوبة

وبصوتٍ كلّه حنان وحبّ، وهزّة رقيقة، وبرفقٍ شديد:

- «لبنى».. إنتِ صحيتِ؟، أيوا يا «لبني» أيوا إنتِ فُقْتي، الحمدُ لله يا حبيبتي، الحمد لله يا بنبونتي.

بصعوبةٍ شديدة فتحت عيني، وصداع قاتل يلفّ رأسي! مَن حبيبته هذه، زوجي يناديني بحبيبتي! لم يقلْها ونحن مخطوبان! يقولها لي الآن؟ مَن هي بونبونته تلك! نظرتُ إليه من خلال غشاوةٍ تظلّل عينيَّ لا أعرف سببًا لها! ثمّ فركت عينىَّ بيدي مثل الصّغار، وبدأتُ أتحسّس طريقي إلى رفيقتي نظارتي، فوجدته يعطيني إيّاها، وضعتُها على عينيَّ ونظرت إليه، نعمْ إنّه هو، هو زوجي، ولكنْ ما هذا الذي بيده؟ وردة حمراء! ويقول:

- الحمدُ لله يا حبيبتي، إنتِ فُقتي يا «لبنى»! الحمد لله والشكر لله، ويسجد شكرًا لله!

أُغلق عينيَّ ثمّ أفتحهما جيدًا، وأنظر مَن هي حبيبته تلك التي يتحدّث إليها! وهل هذه الهزّة الرقيقة ليست بفعل الصَداع أو أنّ

هناك زلزالًا ضرب المكان على استحياء! أم إنّه فعلًا زوجي يناديني بحبيبته ويدلّلني ببونبونتي! إذًا «يوسف» زوجى أصيب في عقله وعاقَرَ الخمر، خمر يا «يوسف»! أنا أعلم أنّي كما قلت من قبل حظّي تعس، لكنْ زوجى يشرب الخمر؟!

جلستُ وأنا أشعر بألمٍ شديد وأتخيّل أنّي أرى ابتسامة غريبة تبدو على مُحيًّا يوسف» بالإضافة لرقّته! يبتسم.. وهو الذي إذا استيقظ من النوم ظلَّ عابسًا إلى أنْ يشاء الله، ولا يبتسمُ في وجهي، ولا يوقظني إلّا بصوتٍ مثل بوق المعسكرات! هل ما يفعله الآن صحيح؟! ويناديني برقّة، ثمّ أتلفّتُ حولي فأجدني في مكان غريب، وكأنّي في حجرة في مشفى، فأسأل «يوسف»:

أنا فين؟ هو أنا فعلًا في مستشفى؟

ثمّ أتحسّس رأسي وأقول له: وليه راسي بتوجعني كده؟

يُرَبِتُ على كتفي بحنانٍ ويقول لي: - إنت فعلًا في المستشفى.

أسأله وأنا في حالةِ فزعٍ رهيبة من المقدّمات السابقة، ووجودي في مكان لا أدري أين.. ومتي نُقلت إليه:

- في إيه! مين من العيال اتعوّر؟ يا لهوي يا «يوسف»، أكيد «بوسي»، أصلها مش بتتهدّ، وأكيد اتخانقت مع «هنيّة»، آه يا راسي، ما تردّ عليّا يا «يوسف»؟ إوعى ليكون «رامي»؟ يا حبيبي يا ابني،

الواد ده قليل البخت، ليه يا يوسف سيبتني مغمى عليّا مفوّقتنيش؟ آه، أكيد أنا أغمى عليّا لّما شفت الجرح بتاع «رامي»، أنا أصلي مش بستحمل الدّم، شوف أنا تخينة إزّاي، أقصد مليانة بسّ أقع زيّ الناموسة لّما تتكبّ على وشّها من شوية فليتّ اتْرشّوا عليها.

ثمّ أنظر إليه وهو لا يجيب على سيل أسئلتي الهادر، وأستعجب قائلةً:

– وهو احنا جينا هنا أصلًا ازّاي؟! أنا مش فاكره حاجة غير إنّي كنت بتخانق معاك ووقعت على الأرض وأنا بحاول أسيبلك الأوضة وأخرج علشان أسيب البيت.

يهمس لي بصوتٍ حنون.. آه والله حنون! ويقول:

– حبيبتي، إنتِ اللّي تعبانة، الولاد كويسين مع مامتك و»هنية» في البيت، لسّه ماشيين كلّهم من شوية صغيرين، علشان تغدّيهم وتطمّن عليهم وبعدين ترجعلك تاني، والحمد لله إنتِ بقيتي أحسن.

أقول بذهول، وفمي مفتوح مثل الطفل في فترة التّسنين:

– حبيبتك! وقلبي! الاتنين مع بعض، وكان قبلهم في وردة! تاني يا «يوسف» بتسفّ عليّا! وأنا أحسن من إيه، آآآه أنا مصدّعة قوي.

ثمّ أتذكّر فاقول له:

أيوا صحّ.. السلّم، أنا اتكعورت من على السّلم، مهيّ الأرّارة «هنيّة» فضلت تزنّ عليّا هتجعي يا مدام لغاية ما وجعت أقصد

وقعت، بس أنا كنت كويّسة، وحتى بعدها، جدو جه وزارني، وقعدنا مع بعض، فاكر يا «يوسف»!؟ واليوم كان طويل وكلّه مناكفات، وأنا تعبت قوي، وإنتَ كمّلت عليّا بخناقك معايا علشان أمّك، أقصد مامتك!

يبتسمُ ويهزّ رأسه ولا يردّ عليَّ كأنّه محتاج مترجمًا لكلامي فوجهُه يبدو عليه الانْدهاش! ثمّ يُرَبِتُ على رأسي، ثم ينادي الطبيب الذي يسلّم عليَّ ويقول لي:

- إنتِ أفضل بكتير، والحمدُ لله إنّك خرجتِ من الغيبوبة!

أقاطعه قائلة:

- غيبوبة! مين اللّي كانت في غيبوبة؟!

يكمل كلامَه كأنّي لم أتكلّم، ويقول:

- إحْنا كنا مرْعوبين عليكِ لغاية ما اتأكّدنا إنّك في semi coma!

ولمّا لقيناكِ حاسّة بينا اطمّنا، والحمد لله إنّ اللّي حصل مدخّلكيش فيdeep coma، لأن دي الخروج منها صعب، وإنْ حصل بيكون في إصابة شديدة في المخّ، والحمد لله الإصابة مكنتش قويّة فمدخلتيش في غيبوبة عميقة، يعني تقدري تقولي مُمكن ارْتجاج في المخّ مع فقدان وعي مؤقّت! بسّ هتفضلي معانا يومين نتأكّد إنّك بقيتِ كويّسة، وبعدها ترجعي البيت على طول.

أنظرُ للطبيب باندهاش، وأقول له:

- غيبوبة! مين اللّي في غيبوبة!.. إيه.. ازّاي؟! أنا كنت نايمة شوية.

يبتسمُ ويقول لي: حمدًا لله على السّلامة يا مدام.

وكأنّي عفريت لا يراه ولا يسمعه! ولستُ إنسانًا أتحدّث إليه، لم يردّ عليَّ، وتكلّم مع «يوسف» ليعطيه بعضَ التعليمات، وتركني مندهشةً ورحل، تبًّا لهذا المغرور!

***

وبعدَ أن خرج الطبيب، حكى لي «يوسف» ما حدث بالظبط، قال:

- بعد وصوله للعمل بساعتين تقريبًا، اكتشف أنّه نسي بعض الأوراق المهمّة، فعاد البيت لإحضارها، وعندها وجدني ملقاةً على الأرض، و»هنيّة» بجواري تبكي، حاولا إيقاظي فلم ينجحا، ولم يحرّكاني من مكاني، واستدعوا الطبيب من المستوصف الصّغير، فقال لهم:

- إغماء نتيجة سقوطها مِن على السّلم، أنا هاحاول أفوّقها، بسّ احتمال لو ما فقتش معايا يبقى لازم ننقلها المستشفى...وفعلًا حاول الطبيب إفاقتي، ففشل؛ وتمّ استدعاء الإسعاف ونُقلت إلى المشفى ومكثتُ في الغيبوبة يومين تقريبًا.

نظرت إلى «يوسف» بحبّ وقلت له:

– معقول يا «يوسف»! أُمَّال أنا ليه كأنّي لسّه بتخانق معاك بعد أطول يوم في حياتي؟!

يضحك «يوسف» ويقول: – تقصدي يوم من غلبي!

أنظرُ له باندهاش، فهذا هو الاسم الذي كنت أطلقته على هذا اليوم بالفعل لأنّي أقوم بكتابة اسم لكلّ حدث في مذكّراتي.

ثمّ تذكرت أنّه في نهاية هذا اليوم لم يغشَ عليَّ، ولم أترك البيت، أنا تركت الحجرة وذهبتُ إلى البلكونة أبكي، ثمّ جاء «يوسف» ورائي يصالحني، بعد ما شعر بأني فعلًا لم أتعمّد الإساءة إلى أمّه، يبتسم إليَّ ابتسامته المحبّبة عندما يهمّ بمشاكستي ويقول:

– بصراحة اليوم ده يوم من غلبي أنا.

فأسأله مُندهشة:

– واشمعنى اليوم ده بسّ اللّي فُقت من الغيبوبة فاكراه، أو حاسّة إنّي كنت عايشاه؟!

يقبّل يدي ويقول:

– إنتِ كان عندك شبه غيبوبة، يعني سامعة وحاسّة بسّ مش قادرة تتواصلي، وأنا لمّا رجعت البيت علشان اطمّن الأولاد وارتّب أمورهم،بعد ما جبتك المستشفى، لقيت دفترك، فأخدته وحطّيته في جيبي، ولمّا جيت المستشفى قعدت أقرأ فيه، سامحيني، بسّ هو كان

لازم أعرف إيه اللّي مضايقك، ومن حظّنا إنّك مكنتيش في العناية المشدّدة، فكنت بعرف اتصرّف مع الممرضين وادخل أقعد جنبك أقرأ بصوت عالي، علشان أنبّهك، معرفش ده صحّ واللّا لأ؟ بسّ ده اللّي جه على بالي، زي ما بشوفهم بيعملوا في الأفلام الأجنبي!

أبتسمُ لبراءته التي لم تستطعْ يدُ سعاد أن تشوّهها كليًّا، فيُرْدِف قائلًا:

- وكنت أنا والأولاد هنموت من الرّعب عليكِ، و«هنية» كمان، طول الوقت تعيّط وتقول: يا حبيبتي يا مدام، البيت من غيرك جبر ملوش طعم، هههه..

قال يعني في قبر له طعم! إنتِ مستحملة الكارثة دي إزّاي، بحسّ إنّها لغمْ قابل للانفجار في أيّ وقت، ومش قادر أوصفلك اللّي كانت بتعمله هي و«بوسي»، والله يا «لبني» أنا مكنتش أعرف إنتِ بتتعبي كده قوي!! سامحيني.

فأبكي من تأثّري، وأقول له: - «يوسف»، أنا كمان مقدرش استغنى عنكم، إنتم حياتي، بسّ أنا تعبت من الضّغوط. ثمّ أعتدل قليلًا، وأقول له: عاوزه ورد يا إبراهيم.

ثمّ أبتسمُ له بوهنٍ وأقول:

- أقصد عاوزه أسافر أغيّر جوّ، بسّ وحدنا.

يقبّل رأسي كأنّي أمّه التي عادت من السّفر، ويقول لي:

- إنْ شاء الله نسافر، ده حتى ماما..

فأقاطعه ويرتفعُ صوتي قليلًا وأقول له:

- «يوسف»، مامتك ما لْها ومال اللّيلة دي! إنت هتخلّيني أقول ياريتني ما خرجت من الغيبوبة.

فيقول بحنانٍ وبصوت رقيقٍ متغاضيًا عن ردّة فعلي السّخيفة تجاه والدته:

- ماما مستنيّة برَّا علشان تدخل تطمّن عليكِ، كلّ يوم تيجي وتستنّى على أمل. أقاطعه قائلةً:

- على أمل تلاقيني ميّتة طبعًا، صحّ؟

يضحك ويعاتبني بحبّ:

- حرام عليكِ! دي ماما بتحبّك قوي والله.

أزغر له وأرفع حواجبي استنكارًا، وأقول:

- ماما مين؟! تقصد مامتي.. صحّ؟

يقول لي:- لا يا حبيبتي.. ماما سعاد، حماتك يا «لبنى».

أصرخ:

- سعاااااااااااااااااد جايّة تزورني! ليه؟! في إيه حصل في الدّنيا، «يوسف» بلاش كده، أنا مش مستحملة بالله عليك، هو أنا هاموت يا «يوسف».. حالتي متأخّرة؟ ما لِي، قول الحقيقة، ما هو ماما سعاد؛

مامتك مش مُمكن تيجي تزورني إلّا وهي متأكّدة إنّي هاموت وأريّحها منّي، «يوسف» طمنّي، أنا بجدّ حالتي خطيرة وهاموت، أنا كنت زهقانة منكم صحيح بسّ كان نفسي أشوف عيالي وهمَّا بيكبروا، طمنّي هو الوقوع من السّلم دمّر خلايا مخّي؟!

يحتضنني ويقول لي:

- اهدي يا «لبنى»، إنتِ زيّ الفلّ والله، بسّ ماما والعيال.. كلّنا بصراحة لمّا حسّينا إنّنا مُمكن نفقدك حياتنا أصبحت سودا، لكنِ الحمد لله روحنا ردّت تاني فينا، «لبني» هترتاحي يومين في المستشفى وبعدين نروّح، وإن شاء الله ترجعي بيتك في أحسن حال.

أستكينُ بين ذراعيه، فوجودُه يشعرني بالأمان، حتى ولو لمْ أخبره بهذا. لحظات ثمّ يخرج ليطمئنَ أمّه وأباه، فتدخل حماتي ويبدو على وجهها القلق، آه والله، وحمايا أيضًا يبدو عليه التأثّر، ثمّ تقبّلني وتقول لي:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي.

أنظر إليها مندهشةً وأقول لنفسي:

- حبيبة مين! هو أنا نايمة وبحلم، واللّا دخلت الغيبوبة تاني ودي هلاوس!

ثمّ تُرْدِفُ وأنا مثبّتة ناظري عليها:

- تصوّري أنا نفسي مكنتش أعرف إنّك غالية عندي زيّك زيّ إيمان والله، ومعرفتش إنّي بحبّك إلّا لمّا لقيتني خايفة عليك أحسن تروحي منّنا، وكلّ ما أشوفك وانتِ نايمة زيّ العيّلة البريئة، وطبعًا محدّش بيصدّق إنّ اللّي نايمة دى إنتِ أمّ خمستلاف لسان! أقول يا ربّ تخفّ لعيالها ومش عاوزه أشوفها تاني، أقصد ومش عاوزه حاجة منها غير إنّها تبقى مبسوطة مع جوزها وعيالها!

أُقَلِّب نظري بين «يوسف» وأمّه وحمايا الصّامت دائمًا وأبدًا، فيسارع «يوسف» لائمًا أمّه وهو يقول:

- ماما الهزار مينفعش دلوقت، علشان «لبني» لسّه تعبانة، ومش متصوّرة خوفنا عليها، وهتفتكر إنّ كلامك جدّ، وممكن تزعل.

تقترب منّي أكثر، ثمّ تجلس بجواري وتُرَبِّتُ على شعري، وتقول لي:

- الحمدُ لله إنّك خرجتِ من الغيبوبة بالسّلامة، اسمعي بقى، بطّلي رجيم واهتمّي بصحّتك، خلاص إحنا راضيين بيك تخينة كده، مش أحسن ما كنتِ زمان عاملة زيّ القلم الرّصاص! اسمعي، خلصنا مفيش داعي تموّتي نفسك، وجوزك أصلًا متجوّزكيش مارلين مونرو وفجأة بقيتِ أوبرا وينفري، إنتِ زيّ مانتي أقصد يعني إنتِ متغيّرتيش قوي كده، لكن الرّجيمات واللّي بتعملوه ده

هيخرّب صحتك، شعرك بيقع وهتبقي قرعة، وياريت تصبغي شعرك الأبيض ده، علشان الألوان بتصغر وتّديكِ عمر أقلّ بكتير، ومش هتحتاجي تحسّي ولا تعملي شدّ ونفخ، ولمّا تخرجي هابقى أقولّك على نوع صبغة حلوة أنا عارفاها.

أستمعُ إلى الدّرر التي تلقيها في وجهي ولا أنبس ببنت شفة، وأقول في سرّي وأنا باصّة ليها كأنّي هتشنق خلاص:

– شدّ ونفخ وأوبرا وينفرى، لاااا، كده كتير يا أمّ «يوسف» يا حلوة!

فجأة تقترب وتطبع قبْلةً على جبيني، ثمّ خدّي وتمسح دمعة سقطتْ من عيونها وتقول: – يلّا أسيبك ترتاحي، حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي! يا بونبونتي.

أفتحُ عيوني وأنظرُ في اتّجاه سعاد، وأقول بصوت عالٍ من المفاجأة:

– يا لهوي بتقولي حبيبتى تاني يا سعاد؟! أقصد يا حماتي، يووو يا ماما، بونبونتك! حماتي تعالي أبوسك....وفي سرّي تعالي علشان أشمّ نفسك، إنتِ ضاربة مخدّرات قبل ما تيجي واللّا شاربة خمرة!

تُربِتُ على كتفي ولا تعقّب وترحل هي وحمايا الذي لم يقلْ سوى حمدًا لله على سلامتك يا بنتي!

وبعد مغادرة حماتي تتّصل أمّي، أسمع وأرى فرحتها ودموعها من خلال صوتها الذي يصل إليَّ عبر الهاتف، وأيضًا عمّتي

«وصوف» التي تتّصل لتطمئنَ عليَّ هي الأخري وتمازحني، وينال «يوسف» نصيبَه الدائم من السّخرية، ثمّ يتّصل الأولاد و»هنيّة»، وبعد أنْ أغلق الهاتف، أشعر بسعادةٍ رهيبة؛ لأنّي استمعت لأصواتهم الحبيبة واطمئننت عليهم جميعًا، ثمّ أنزلق في الفراش غائبةً في النوم، وأطلب من «يوسف» أن يغلق أصواتَ الهواتف، حتى أستطيع النوم في هدوء، فيفعل ما سألته، ويغلق أيضًا الأنوار، ثمّ يجلس بجواري صامتًا حتى أذهب في نوم عميق بفعل الأدوية.

ساعات قليلة لكنّها من وجهة نظري كافيةٌ لأشعر بالرّاحة، أستيقظ على وصول أمّي، لقد جاءت إليَّ ملهوفة، بعد أنْ تركت الأولاد و»هنيّة» مع جدّتهم «سعاد» التي أبدتِ استعدادها للمبيت مع الأولاد إذا استدعى الأمر، فقدّرت لها هذه المبادرة الحسنة؛ لأنّ المبيت مع الأولاد يعتبر بالنسبة لها بمثابة الإقدام على الانتحار، وسعدتُ بهذا التقدّم- غير المتوقّع- في العلاقات!

عندما دخلت أمّي الحبيبة، شعرتُ بحضورها من عبيرها الذي يسبقها دائمًا، فهي كالنّسمة الفوَّاحة، رغم أنّها لا تتعطر، لكنّها- في رأيي- عطرٌ في ذاتها، وشممت رائحةَ المسْك التي تصاحب مسْبَحتها، وعندما فتحت عيوني ورأيتها واقفةً بجواري تنظر إليَّ، لم أستطعِ السيطرة على دموعي التي انهمرت كسيول؛ لأنّي شعرت في

وجودها أنّني طفلة تريد الارتماء في أحضانها، ورغبة في أنْ تضمّني بقوة، اعتدلتُ من نومي وجلست فاقتربتْ منّي فدفنت رأسي في حضنها، ولقد تأثر «يوسف» من الموقف، وشعرَ بوجوب انصرافه، فتركنا لبعض الوقت، وذهب بعد أنْ وضع كرسيًّا لأمّي لتجلس في مواجهتي، وعلى مقربةٍ منّي في الوقت نفسه!

احتضنت أمّي يديَّ بكلتا يديها، وقالت: الحمدُ لله يا بنتي إنّك بقيتِ بخير، أنا كنت كلّ يوم أمشي وانتِ لسّه مرجعتيش لوعيك أحسّ إنّ قلبي بيموت، الحمد لله إنك رجعتيلنا! إنتِ يا حبيبتي ملح العيلة اللّي ملهاش طعم ولا روح من غيره، الحمد لله إنّك بقيتِ بخير، إنتِ لازم تنتبهي على نفسك يا «لبني» بلاش تهوّر، سلّم إيه اللّي تطلعي عليه!

أرفع رأسي من حضنها وأقول لها:

- حلاوة روح يا ماما، هاعمل إيه! عاوزه أحسّ إنّي راقصة بالية، بسّ اكتشفت إنّي فرقة كاملة، كان لازم أحترم سنّي ووزني.

تضحك أمّي من سخريتي من نفسي وتقول:

- مفيش فايدة فيكِ.. مش هتبطّلي تريقة حتى على نفسك! ثمّ تُرْدِفُ وتقول:

- نهاد أختك اتّصلت أكثر من مرّة علشان تطمّن عليكِ، هي

وأخوكِ، وسفرهم برَّا مصر مخلّيهم هيتجنّنوا عليكِ، ولمّا عرفوا من «يوسف» إنك بخير، قالوا هيتّصلوا تاني ويكلّموكِ بنفسهم علشان يسمعوا صوتك، وهمَّا بيدعوا لك كتير.

ثمّ فتحت حقيبة يدِها، وأخرجت منها منديلًا ومسحت دموعها، وربَتتْ على شعري وهمست:

- اسمعي يا «لبنى»، عارفه إنّ الكلام مش وقته، لكنْ يعلم ربّي إزّاي قلبي كان هيقف من خوفي عليكِ، بسّ كمان أنا تعبانة من قلقي عليكِ، هوّ صحيح إنتِ تعبانة ومفروض إنّي مرغيش معاكِ كتير بسّ عاوزه أقولّك على حاجة، اللّي حصل خلّاني أحسّ إنّي لازم أنصحك، وبسرعة علشان متضيّعيش فرصة إصلاح حياتك، إنتِ طول الوقت عاملة زيّ القطّة اللّي لازق في ديلها ورقة ومش عارفه تجيبها، وكلّ ما حدّ يقرّب منها علشان يساعدها تبخّ في وشّه أو تخربشه، بِصراحة أنا شفت من جوزك وولادك وكمان من حماتك، قلق عليكِ لا يمكن تتصوّريه، فصورة الديناصور اللّي مصوّراهم بيها مش صحّ، فيها مبالغة شديدة، وإوعي تنسي إنّ شخصيتك عليها عامل، إنتِ قيادية، ديكتاتورة، صعب ترويضك، لكنْ «يوسف» أكتر واحد عرف يتعامل معاكِ، ورغم كده مش عاجبك، صابر وهادي وبيفوّت كتير، ياما اشتكى من تقصيرك وأنا أقولّه إنتَ

مدلّعها يقولّي مآهي شايلة كتير، بسّ لو تنْصحيها من غير ما تحسّ إنّي اشتكيت منها، جوزك بيحبّك وبيقدّرك، هو بسّ مبيعرفش يعبّر! نموّته يعني يا «لبنى»! أحاول مقاطعتها، تُسكتني بحركةٍ حازمة من يدِها، وأشعر أنّي بحماقاتي سأفقد حليفي الدّائم رغم اختلافنا.

أكملت أمي:

- يا «لبني»، الرّضا بيخلّي الحياة تمشي بهدوء، والتغافل مهمّ جدًّا، إنتِ ازّاي قاعدة لكلّ اللّي حواليكِ على الواحدة كده، مبقولش إنّك شريرة أو بتكذبي، ولا إنّهم ملايكة وبجناحات، بسّ اقبليهم زيّ ما همّا، ومتحاوليش تغيّري حدّ، ولا حتى تغيّري نفسك، بسّ هاقترح عليك فكرة فكّري فيها، وقت ما اللّي حواليك يكونوا مأفورين (زيّ ما بتقولوا الأيام دي) ومزوّدينها ابعدي شويّة، ولمّا يهدوا قرّبي، وإدّي لهم مساحة يتحرّكوا فيها بعيد عنك ومنْ غير ما تطولهم سِخريتك ولا ملاحظاتك، ملكيش دعوة غير باللّي يخصّك انتِ بسّ، المنكر انْكريه مرّة واحدة، العيب ارْفضيه مرّة واحدة، إنتِ مش مدرّس ولا مفتش، ليه تصرفات كلّ الناس مجنّناكِ، اهدي يا بنتي، وبصراحة أكتر لو كلامي منفعش معاكِ وما عرفتيش تطبّقيه، روحي لدكتورة نفسيّة تعدلك دماغك الملخبطة دي أو تدّيكِ أدوية تخلّيكِ أكتر سلام، علشان ترتاحي والنّاس ترتاح، لازم تعيدي

ترتيب أوراق حياتك وأولويّاتك!

أستمع لكلّ حرف، وكلّ كلمة، ولا أستطيع غير قول:

- حاضر يا ماما، هاحاول يا حبيبتي، أنا والله بحبّهم، حتى سعاد، سعاد بحبّها.. بسّ بشكل مُختلف، لكنْ هي بتجنّنني.

تقاطعني: ها.. قلنا إيه؟ نعيد ترتيب أوراقنا متبصّيش وراكِ، واحدة واحدة الدنيا هتروق، وزيّ ما الناس فيها عيوب إحْنا كمان، مفيش ملايكة بتعيش على الأرض. ثمّ تعتدل في جلستها وتهمّ بالوقوف وهي تقول:

- فكّري في كلامي كويس متحدفيهوش ورا ضهرك كالعادة، الحادثة دي زيّ ما حسّستهم بقيمتك لازم تحسّسك بقيمتهم، هاقوم أسيبك ترتاحي وتفكّري في كلامي، أستودعك الله.

ثمّ تنهي حوارَها معي بالدّعاء، وتقبّلني في جبيني، ثمّ تخرج وهي تكفكف دموعها، أمّا أنا فأجهش بالبكاء، ثمّ أدير ظهْري لباب الحجرة حتى إذا ما دخل «يوسف» لا يرى دموعي، فأنا الآن في حالةِ فوضى نفسية، وأريد ترتيبَ نفسي، ودون أن أشعر، أغطُّ في نومٍ لا أستطيع القول إنّه عميق لكنّه نومٌ فيه راحة لم أشعرْ بها من قبل.

***

الفصل الثّالث عشر

العودة

استيقظتُ من النّوم على صوت شخير «يوسف»، فقد نام على المقعد وهو ممسكٌ بدفتري كأنّه ينتوي تحضير الدكتوراه في يوميّات «لبنى»، أشفقت عليه من نومته تلك، وكانت السّاعة قد قاربت على العاشرة، وميعاد الزيارة قد انتهى، ولولا العلاقات الطيّبة التي أقامها مع الأمن والتّمريض ما تركوه يرحل آخرَ شخص في المشفى، رغم إنّني موجودة في حجرة، لكنّها ليست مجهّزة لمرافق، ويكفيه ماعاناه في اليومين السابقين، فأيقظتُه وطلبت منه أن يرحلَ ليرتاح ويعود في الصباح.

ناديتُ عليه لأوقظه من النوم، فهو عندما يستيقظ من النّوم، يحتاج وقتًا لينتبه ويعرف أين هو، كأنّه دائمًا ما يسقط في غيبوبة، فقال لي:

- إيه ده، أنا فين! ثمّ يبتسم ويقول:

- آآه، أنا نمت من غير ما أحسّ...ثمّ يهرش في رأسه ويدعكُ عينيه ويعتدلُ في جلسته، ثمّ يُرْدِف: - لا مش هامشي، خلّيني للسّاعة 12 وبعدين ابقى أروّح.

ثمّ قام وصبَّ لنفسِه كوبًا من الشاي، فقد كان في الحجرة تُرمس للشاي أحضرته حماتي لعلمها مدى حبّه الشّديد للشاي، وسألني إذا كنت أرغب في شيء، قلت له لا، ولا أدري لماذا رفضت، وهززتُ رأسي مؤكّدة على الرفض، وداخلي يتمزّق؛ فأنا أشتاق لقطعةٍ من الباذنجان المخلّل وقرنِ فلفل حرَّاق، لكني أبيتُ أن أظهر رغبتي في الأكل؟ لا أدري لماذا أظهرتُ عكس رغبتي!

هل كان رفضي خوفًا من «يوسف»، فقد ينعتني بالمجنونة إذا صرّحت له برغبتي هذه! وما الضّيْرُ فهو يعرفني، لكنَّ هاتفًا داخلي أقنعني، فكتمتُ شوقي في نفسي ولذتُ بصمت العازفين، وادّعيت الشبع وعدم الرغبة، وأنا أتلوّى من الشوق، ومنّيت نفسي بكلّ ما تشتاقه عند العودة للبيت.

وللعجبِ وعكس طبيعتِه، قابل رفضي بمحاولاتٍ كثيرة لجعلي أتناول أيّ شيء، زبادي أو عصير أو قطعة خبز بالجبن، وكلّما عرض عليَّ صنفًا من طعام المشفى رفضت بشدّة، فما كان منْه إلّا أنِ استسلم، وقال لي مغيّرًا الحديث:

– على فكرة، إنتِ بتكتبي حلو وأسلوبك يشدّ، رغم إنّك كاتبة كلام كلّه ضدّي تقريبًا، فكونه شدّني علشان أكمّل للنهاية وأشوف آخره إيه.. يبقى فعلًا إنتِ مميّزة!

ثمّ كأنّ ضوءًا شمسيًّا أشعل رأسَه بالنّور، فقال لي فجأة وبصوتٍ كلّه حماس: إيه رأيك مُمكن تكتبي كتاب عن مضمون رسايلك دي.

ثمّ يستدرك: صحيح ليه مفكّرتيش في الموضوع ده قبل كده، وخاصّة الرسايل اللّي كتبتيها في الجون بصراحة، ما عدا بتاعة ماما وبابا، مينفعش طبعًا تتنشر.

أنظر إليه وفمِي مفتوح مثل الذي رأى عفريتًا، وأقول:

- «يوسف»، إنتَ طبيعي يا حبيبي، أصله عـادي.. جوّ المستشفيات مُمكن يخلّينا عاتشفيّين شوية، يووووسف مين يألّف! إنت بتسفّ عليّا؟ ليه كده تقلب على الوشّ البلاستك بسرعة، مـ الوشّ العسل كان ملزّق المكان وكنت فرحانة فرحِةِ النملة! وعمومًا لو فكّرت أنشر الرّسايل أوّل رسالة هتتنشر هي رسالتي لمامتك، حماتي حياتي!

الغريب في الأمر إنّه ابتسم كأنّي لم أذكر سيرة حماتي وتعامل مع الكلام ببساطة، واستمرّ في مناقشة الرّسائل بشكل أذهلني، وجعلني أتفكّر هل زوجي أصيب بالفراغ أم رُفِدَ من العمل، وقرّر أن يبحث عن وظيفة فرأى أنْ يكون مديرَ أعمالي أفضل من الغريب، على اعتبار أنّني وافقتُ أنشر غسيلي، أعني تفكيري، فالرّسائل بعضٌ منّي سطّرته حروفًا!

وقال لي: هي الرسايل بتنقدي فيها الأشخاص، ولكنْ يا «لبني» مفيش حلول، الانتقاد والسّخرية سهل، وضع الحلول هو الجزء الأهمّ، وعلشان الموضوع يكون ناجح لازم العقدة وحلّها!

فجأة أشعرُ بزهو وسعادة، وتعجبني طريقة تفكير زوجي، بيْدَ أنّي أردّ عليه عكس ما أشعرُ به وأقول له:

- «يوسف» أنا معنديش استعداد أقدّم حلول، النّاس هي اللّي لازم تشوف حلّ لعيوبها المعروضة بعدسات مكبّرة، أنا حاولت أوضّح لهم حجم الأذى اللّي بيتعرّض له النّاس من تصرّفاتهم، ويمكن أحاول أقدّم حلول بسّ أكيد مش دلوقت، أنا حاليًّا هاحاول أرمّم حياتي! مش قادرة أفكّر في حلول للنّاس ولو إنّ العيوب واضحة، اللّي أقدر عليهم همَّا عيالي وبيتى وبسّ في الوقت الحالي.

لا يبدو عليه الاقتناعُ بكلامي، ولكنّه لا يضغط عليَّ، فهو يعلم أنّني لو أستطيع تنفيذ ما يفكّر فيه لفعلت دونَ تأخير، بالإضافة لرغبته في عدم تعريضي لمزيدٍ من الضغوط، فيقول لي:

- اتّفقنا، وعمومًا إنْ شاء الله أنا اللّي هانشر لك رسايلك دي في كتاب هدية منّي، أصلْ بصراحة عاجبني أسلوبك، ويظهر إنّ تريقتك علينا طول الليل والنهار نمّت عندك ملكة الكتابة السّاحرة.

ثمّ يقول كأنّه تذكّر شيئًا مهمًّا: - صحيح لو اتنشر كتاب هتسمّيه إيه؟

أستغرب سؤاله لكنّني في الوقت نفسه أستشعرُ اهتمامه وحنانه، وهذا الشعورُ غمرني بسعادة وأحاسيس لم أشعرْ بها من قبل، فهذه أوّل مرّة يهتمّ «يوسف» بي كإنسانٍ خارج منظومة الأسرة، فأنا كنت بالنسبة إليه مجرّد أمّ، وزوجة فقط، أمّا اليوم فهو يتعامل معي على أساس أنّني بشر، وهذا أعطاني ثقةً في نفسي، دعّمتني ورفعت من معنويّاتي!

أردُّ على سؤاله: غالبًا هاسمّيه بوز البرّاد.

ثمّ طلبت من «يوسف» متوسّلة:

- عاوزة أروّح من فضلك، ما دامت التحاليل والأشعّات كويسة، أرجع بيتي، مش قادرة، الولاد والبيت وحشوني.

فوافقني على أنْ نسأل الطبيب، فنحن على حدّ قوله لن نستطيع المغادرة دون إذنه، فصبرتُ للصباح، وقلت لنفسي «أليس الصبحُ بقريب»، وقد بدأت أفقد السيطرة على إدراكي، وصوتي يذهب بعيدًا بسببِ أقراص المهدئات، نمت وأنا سعيدة أنني لن أقضيَ ليلة أخرى بعيدًا عن أولادي.

***

واستيقظتُ على قُبلةٍ حانية على جبيني، ففتحتُ عيني لأنظر مَن هو صاحب تلك القُبلة الرقيقة، فوجدتُها إيمان! اعتدلت من رقْدتي ثمّ جلست، وأحضرت هي وسادة ووضعتْها خلف ظهري

وأحضرتْ لي الإيشارب الذي أضعه على رأسي تحسبًا لدخول أيّ غريب علي الحجرة، ثمّ قالت:

- صباح الخير يا هني، عاملة إيه يا ماي دير دلوقت؟

ابتسمُ وأقول لها:

- أنا بخير يا دير! يا أحنّ قلب في الدنيا، أنا تعبتكم معايا يا إيمان قوي، إنتِ فعلًا أخت غالية.

وقبل أن تردَّ عليَّ، دخل علينا الطبيب، فقد جاء مبكرًا عن المتوقّع، وسمح لي بالمغادرة، فكانت فرحتي لا تضاهيها فرحة، فسوف أعود لأبنائي، وبيتي وحياتي مرّة أخرى، فقد وهبني الله فرصة؛ بل وهبنا جميعًا فرصة لنراجع أنفسنا ونقيم كلّ الأشياء المحيطة بنا، ويخرج الطبيب ومعه «يوسف»، فأبكي من فرحتي، وأقول:

- الحمدُ لله يا ربّ.

وألتفتُ لإيمان قائلةً: أشكركم بجدّ، مش عارفة كنت هاعمل إيه من غيركم!

فيظهر التأثّر على وجهها وتقول لي: - متقوليش كده يا my dear إحْنا إخوات بجدّ.

أداعبها قائلةً: - تاني يا إيمان هني ودير وجرجير، النّبي عربي

يا ستّ الكلّ، إيه حكاية العفريت خريج أوكسفورد ده اللّي ماسك فيكِ! يا my love إنتِ!

تضحك حتى تظهر أضراسُها، وتقول:

- أنا بحبّ أعاكسك يا «لبني» علشان بحبّ تعليقاتك، المهمّ يلّا يا ستّنا يلّا آحاجّة علشان تلبسي ونخلص من المشوار ده، ورانا مصالح كتيرة! حلو كده، أهو جبت لك عفريت من حيّ شعبي، مناسب؟

أبتسم لردِّة فعلها وأقول لها: - تعالي قرّبي جنبي.

فتأتي إليَّ وهي مندهشة من رغبتي هذه، ثمّ أقوم باحتضانِها، فتردّ هي العناق بحبّ وحنان، ثمّ تساعدني على ترك الفراش والذّهاب للحمّام لأرتدي ملابسي! وبعدها قامت هي و»يوسف» بترتيب حقيبتي الصغيرة، والتأكّد أنّنا لم نترك شيئًا وخاصّة الرّوشتات والأشعات، وبعد أن ارتديت ملابسي، جلست أتابع بهدوء ما تفعله إيمان، تلك السيدة الطيبة التي تحمل قلبًا يحتمل الآخرين دون تذمر، فزوجها النّسخة الرّجالي من «سعاد» حبيبتي، ولكن مع بعض التعديلات التي تسمح لها بأن تتنفّس، فهي «إيمان» تحتمل أمّها وتحتملني، وزوجي وأبنائي، وزوجة «بكر»، فكلّنا نشاكسها ونستغلّ طيبتها، لكونها من أنقى الشخصيات التي من المُمكن أنْ تقابلها في حياتك!

ورغم أنها لم تُنجب، فلم تكنْ يومًا متبرّمة أو مبدية شعورًا بالنّقص أمام باقي أخواتها، بل العكس كانت ترى أنّ الله لم يرزقها أطفالًا لعلمِه أنّها لا طاقة لها على تربية الأبناء، وكنّا للأسف أشرارًا نستغلّ كونها ليس لديها أبناء، لتساعدَنا جميعًا كلًّا حسب احتياجه، وهي لا تقصر؛ بل تتفانى معنا، فهي بعد عودتها من عملها تقريبًا متفرّغة للجميع، فزوجها يسافر كثيرًا، وكانت، ومازالت تتقبّلنا بعيوبنا وشغبنا، فقلبُها يسعُ الكلّ، فإيمان لا تعاتب ولا تلوم ولا تنتقدك، هي من وجهة نظري عكس شخصيتي؛ لذا أرتاح معها؛ فأنا لا أحتمل التّعامل مع شخص مثلي، ولأوّل مرّة أجدني أنتبه إلى أنّه من المُمكن عدم ارتياحي مع حماتي، إنّنا متماثلتان، وأظنّ أنّي قد أفعل ما تفعله بي حماتي في زوجتَي «أدهم» و»رمضان» إلّا إذا انتبهت لذلك، وابتعدت عن حياتهم، ليعيشوا بسلام، فأنا رغم كلّ شيء أرى أنّ برَّ الوالدين لا يلغي أبدًا حقوق الأزواج وبرَّهم، أنتبهُ من تحليلاتي على صوتِ «يوسف» وهو يقول لي:

- إحْنا خلاص جاهزين، ودفعت الفلوس وعملت تشك أوت، إنتِ تلعبي أكروبات وأنا أدفع فلوس، مش كنّا بالفلوس دي يا «لبني» سافرنا الغردقة أو شرم الشيخ، نستعيد ذكريات شهر العسل.

ثمّ يبتسم بحبورٍ ويُرْدِفُ: فاكره!

أنظرُ له غير مصدّقة أنه مازال يذكر شرم الشيخ رغم ما فعله فيها وأقول له:

- فاكر انت! «يوسف» إنت بتفتحْ على نفسك فتوحة ليه؟ شرم الشيخ إيه يا حاج؟! تبتسم إيمان وتتساءل: ما لْها شرم يا هني، دي مكان يونيك! أنا بحبّ أروحها كتير.

ابتسم «يوسف» وقال مرتبكًا: - يلَّا يا «لبني» علشان ننزل.

فقلت لها: أيوا هي فعلًا جميلة، بسّ مش هننزل إلّا لمّا أخلي إيمان تقرأ اللّي كتبته عن شرم وجَمالها، هات لو سمحت الدّفتر. وفتحت الصّفحة التي كتبت فيها ذكريات شرم الشيخ، وقلتلها:

اقرئي يا إيمان!

فبدأت تقرأ بصوت مرتفع:

أسبوع شرم الشيخ..

ذهبنا لقضاء أسبوع العسل في شرم الشيخ، وبالطبع لم تكنْ سيارة المنتجع في انتظارنا، نظرًا لأنّنا لم نسافر في يوم الحجز، فوقفنا في المطار فترةً إلى أنْ أقلّتنا سيارة ميكروباص للمنتجع، وما أنْ وصلنا إليه حتى غمرني شعورٌ بالانتعاش وتسلّلت إلى أنفي رائحة البحر، وداعبَ وجهي شعاعُ الشّمس الدافئ، فقد كان الطقس أكثرَ

من رائع، وسبحان الله! كان الجوّ في النهار صيفيًّا، وفي الليل شتويًّا!

جلست في بهْو الفندق الخاصّ بالمنتجع في انتظار «يوسف» الذي كان يقوم بتسجيل الدّخول، فأخذت أجول ببصري في المكان، فرأيت المباني عبارة عن تحفةٍ فنية من النّقوش والحفر الأندلسي الإسلامي الرّائع، والأثاث وثيرٌ ومريح، والخضرة في كلّ مكان وتوجد في الأسقف فتحات، وأيضًا الحوائط تُدْخِلُ نور الشمس دون حرارتها، وبعد قليلٍ شعرت أن «يوسف» قد تأخّر في تسجيل الدّخول(كأنّه يقوم بعمل فيش وتشبيه)! فقمت من مقعدي واقتربتُ منه، وقلت له:

- «يوسف»، هوّ انتَ مش هتعرّفهم إننا عرسان جداد، علشان يهتمّوا بينا وكدا!

صحباتي قالوا لي لّما بيعرفوا إنّنا في ال Honey MOON بيحتفلوا؛ ورد وحركات لطيفة قوي....نظر لي باستغراب ثمّ قال:

- إيه الهيافات وقلّة القيمة دي! اكبري يا «لبنى»، يعني إيه أقول إنّنا عرسان في شهر العسل!

اقتربتُ منه ونظرتُ في عينيه وجدته يتكلّم بجديّة شديدة، فقلت له:

- «يوسف»، على فكرة معلومة بسّ، أنا أوّل مرّة أروح شهر

عسل لأنّي أوّل مرّة أتجوّز، وبيتهيّألي برضو من المعلومات اللّي عندي إنّك زيّي متجوّزتش قبل كده، ليه بتتعامل معايا على إنّي مطلّقة واللّا أرملة متجوّزها من خمستلاف سنة وجاي تفسّحها؟! مش شهر عسل ده!

لم يردّ عليَّ وكأنّي هواء صفر بجوار أذنه، وكانت تلك هي أوّل مرّة أشعر فيها بغصّة في حلقي وقبضة في صدري منْه، فكوْنه لا يحبّ أن يخبر الفندق لأنّه يرى الأمر تافهًا من وجهة نظره، هو منتهى الإهانة لي، ولأنّ الأمر من وجهة نظري يستحقّ فحزنت بشدّة، وأسررت الموقف في نفسي، فأنا عروسة، تزوّجته بعد رفض الكثير، وبعد ظنّها أنّ هذا هو الفتي المتيّم الذي سيحقّق لها أحلامَها، ويفتخر بزواجه منها (مش يقول هيافة وقلّة قيمة)؟!

ذهبنا إلى غرفتنا، وكان ملحقًا بها غرفةٌ أخرى وضعنا فيها الحقائب، وقرّر «يوسف» أن ينام قليلًا، أمّا أنا فقرّرت أن أذهب إلى الغرفة الأخرى لأُفْرِغَ محتويات الحقائب، فوجدت بين الحقائب حقيبةً غريبة لم أقمْ بترتيبها، أو حتى وضعها مع حقائبنا، وعندما فتحتها، كدتُ أصرخ، ما هذا الذي يملؤها؟! ما هذا! لقد قمنا بأخذ حقيبةِ راكبٍ آخر! فذهبت إلى «يوسف» أوقظه:

- «يوسف»، اصحى.. اصحى، في شنطة مش بتاعتنا وأنا

برتّب الشنط لقيتها، قوم كلّم إدارة الفندق، أحسن يكون صاحبها هيتجنّن عليها، غالبًا صاحبها بقّال أو مندوب سوبر ماركت، قوم أحسنْ أكيد الرّاجل هيتجنّن على البضاعة بتاعته.

رفع رأسَه، ثمّ أشار إلى أنْ أرحل بعيدًا عنه، فقلت له:

- «يوسف»، قوم صحْصح ضروري.

ثمّ جذبت الغطاء فجلسَ غاضبًا، وقال:

- إيه يا «لبنى».. بتصحّيني ليه، حرام عليك، أنا يادوب عينيَّ شبكت.

قلتُ له ساخرة:

- يادوب عينك شبكت، هو انتَ أصلًا كنت سايق الطيّارة ومُجهد، ما السّاعة إلّا ربع اللي قعدناهم في الطيّارة إنتَ نمتهم، والرّبع ساعة من المطار لهنا نمتُهُم، إيه.. إنتَ قرصتك ذبابة التسي تسي يا أخي؟! قوم، في شنطة مش بتاعتنا لقيتها وسط الشنط.

فهرش رأسه ثمّ تثاءب وقال: - فتحتيها؟

فقلت له: - أيوا، ما أنا قلت لك شكلها بتاعة بقّال، فيها علب تونة وجبنة مثلثات، وعسل ومربات وحلاوة، ده ميني ماركت! تفتكر صاحبها بيتاجر في البقالة!

سحبَ نفسَه تحت الغطاء وقال ببرود:

- دي شنطة الأكل بتاعتنا، بسّ طلّعي الحلاوة أحسن ييجي لها نمْل.

نظرتُ إليه برهة، وأنا أريد أن أستوعبَ ما يقوله، فقلت له:

- يا حلاوة! إيه يا «يوسف» ده؟! إحْنا هنعيش على البقالة والنّواشف؟! إنت من أوّلها هتخلّيني أربط الحزام! وطبعًا غلّاية الميّة، والشاي والعيش، بمناسبة إنّنا هنعمل كامبنج في الصّحرا.....

لم يردّ عليَّ، وأكمل نومَه.

تركتُه وذهبت لغرفة الأغذية والمشروبات؛ أقصد للغرفة التي بها الحقائب، فقمتُ بعمل شطيرة من الجُبن وكوبٍ من النسكافية، فقد كنت جائعة وأعاني من الصّداع، جلست أمام التلفاز أُقَلِّبُ في قنواته، فشعرتُ بالضّيق والزّهق فلم يكن به سوى قنوات إيطالية أو فرنسية، وأُسْقِطَ في يدي، وقلت لنفسي:

- شهر عسل إيه ده يا خايبة! ما كنتِ قعدتِ في بيتك معزّزة مكرّمة؟!

ثمّ قمتُ وارتديت ملابسي، وجلست في شرفة الحُجرة أشاهد النّاس وهي تستمتع بالجوّ وتمارس كلّ أنواع التّرفيه المُتاحة، وأنا أمارس المشاهدة الإجباريّة؛ لأنّ زوجي يمارس هواية النوم التي اكتشفتُ بعد الزواج أنه يدمنُها، ثمّ نظرت إلى البحر الممتدّ أمامي بزرقته الرّائعة؛ تلك الزرقة التي لم أرها في شواطئ الإسكندرية أو السّاحل الشمالي، وسرحت بناظري فيه، ثمّ اعتراني شعورٌ خبيث

ورغبةٌ لئيمة، تمنّيت أن يكون هناك في هذا البحر قرشٌ صغير جائع يخرج منه ويأكل «يوسف» وأرتاح منه، هذا هو «يوسف»، زوجي العزيز، روقان وحلاوة، والحلاوة الحمد لله مجاش عليها نمل!

وبمجرّد ما أغلقت إيمان الدّفتر، حتى انفجرتْ ضاحكة وقالت:

– «يوسف» يا دارلنج، إيه ده! إنت كنت فيلن قوي وشرير، ليه كده يا هني، دي «لبني» سو سو كيوت! بصراحة إنت أوفر قوي، وانتِ يا لبنى يا هني استحملتِ كده ازّاي!

ينظرُ إليها «يوسف» وقد احتقن وجهُه خجلًا، ثمّ قال لي: ههههه إيه الصّفحة دي، أنا مشفتهاش، إيه يا لبنى الافترا بتاعك ده، والله أنا ورّيتك هناك سعادة وهناوة محدّش شافها!

أبتسمُ وأقول له: – يمكن كانت مكتوبة بحبر سرّي؟! بيتهيّألي إنت قريتْ بسرعة.

وحتى أمنع عنه مزيدًا من الحرج قلت له:

– عمومًا لو سافرت شرم الشيخ تاني هتكون بطقوس تانية، وياريت بلاش ذكريات بقى عن أيام الخطوبة والجواز علشان كانت أيّام سعيدة جدًّا! ويلَّا بينا ننزل علشان العيال وحشوني.

قام بمساعدتي على الوقوف، فلقد كنتُ أعاني وهنًا شديدًا؛ ربّما من فرط تناول الأدوية في الفترة السّابقة، أو لرقدتي مدّة طويلة عن المعتاد بالنسبة لي.

غادرنا المشفى إلى البيت، وفي الطريق انتابني شعورٌ غريب أنّ الحياة قد اختلفت، وأنني أرى الدّنيا بعيون لم تختبر الألمَ ولا المعاناة، كأنّي طفلة مولودة من جديد؛ فأنت عندما تشعر أنك قد اقتربتَ من الموت- حتى ولو كان تهيّؤات- ستكتشف أنّ هناك أشياء كثيرة داخلك قد تغيرت؛ فأنت تثمّن ما أضعته من فرصٍ نادرة جاءت لك ورفضت استغلالها، وأنّك قد منحت عودة للحياة، وستكون هناك فرصة جديدة لتتدارك ما فاتك، وستتمكّن من إصلاح ما سبق وخرّبته برعونتك وطيشِك، ونزق طول الأمد الذي تظنّ أنّك تملكه.

أقلّتنا السيارة باتجاهِ منزل إيمان التي بمجرّد ما رأت أنّنا في اتجاه بيتها حتى شجبت الفكرة، وأصرّت على الذهاب إلى بيتي، ورفضت تمامًا الانصياعَ لرغبتي بأن تعود لبيتها، وسبحانَ الله! لم يزعجنى إصرارها هذا، (يمكن لو كانت سعاد كنت فضلت في المستشفى أحسنلي) ونزولًا على رغبتها غيَّرنا اتّجاهنا وسلكنا طريق بيتنا، وكانت الطّرق شبه خالية، فاليوم هو السبت إجازة في أماكنَ كثيرة، وقد قام زوجي بقيادة السيارة كعادتِه ببطء شديد؛ لقد كنت دائمًا أتذمّر من طريقة قيادته؛ لأنّني عادةً على عجلةٍ من أمري وهو لا يكترثُ للوقت، بيْدَ أنّ هذه المرّة كان الوضع مختلفًا، لم تضايقني قيادته الهادئة؛ لأنّه قد أُتيحت لي الفرصة لمشاهدة

الشّوارع والبيوت والمحالّ التجارية بتمعّن واستمتاع، لا أحصل عليه في الغالب عندما أقود السّيارة بنفسي، فعندما تقوم بالقيادة يكون كلّ تركيزك على كيفية الوصول للمكان الذي تريده دون خسائر، لا في الوقت ولا في الأشياء؛ لذلك قد يفوتك الكثير من جمال ومعالم الأماكن التي تمرّ بها أو تقصدها، ولا تستشعر حلاوتها إلّا إذا سلّمت المِقُود لغيرك.

لا أدري لماذا استدعيتُ تلك الفكرة عن قيادة السّيارة؛ (فكرة أنّك إذا ظللتَ ممسكًا بمِقود الحياة طوالَ الوقت ستفقد المتعةَ، ولن ترى الأشياء الجميلة فيها، ولنْ تحصل أيضًا على ذكريات، لتسترجعها عندما تتوقّف الحركة والحياة مِن حولك؛ ذلك لأنّك كنت مشغولًا بعلامات الطريق ولم تعِرْ معالمه اهتمامَك)!

يا الله! لقد اكتشفت الآنَ فقط كم كنتُ حمقاء لأجلس خلف المقْود طوال الوقت، ولم أمنحْ نفسي فرصةً لأهدأ، أو حتى استراحة محارب!

الفصلُ الرّابع عشر
صفحة جديدة

وقفتِ السّيارة أمامَ المنزل، وانتظرتُ لحظاتٍ قبل أن أترجّل منها، ثمّ لحقتني إيمان وأمسكتْ بيدي، ثمّ استندنا إلى السيارة، وقام «يوسف» بإخراج الشّنط من حقيبة السيارة ووضعها على الرّصيف وهو يتلفتُ بحثًا عن الحارس، ثمّ نادى عليه فلم يستجبْ لندائه، فقلت له:

- ريَّح نفسك، ده العادي بتاعه يا «يوسف».. مش هتلاقي حدّ منهم! أكيد في مشاوير فيها أكلْ عيش زيّ ما بيقولّي، أو بيلفّ على عمارات علشان شغلته الأصليّة السّمسرة.

يضحكُ «يوسف» معلقًا على كلامي:

- تعرفي والله أنا كنت مراهنْ نفسي وقلت يا واد يا «يوسف» والله مراتك لا يمكن تتغيّر وتبطّل سخرية، دي مُمكن تبطّل أكل أو تبطّل نوم، لكنْ لا يمكن تبطّل سفّ على خلق الله، الرّاجل أكيد راح يجيب طلبات، الرّحمة حلوة!

أردُّ عليه بهدوء، وأقول له:

- نفسي أعرف بتدافع عنه ليه؟ ده انتُم لو عاملين سوا تشكيل عصابي مش هتدافع عنه كده، بتدافع عن الرّاجل المفتري ده ليه يا «يوسف»! ده ظالم مراته بشكل مخلّيني نفسي أقعد معاها أنصحها وأفهّمها حقوقها، علشان يبطّل استبداد.

يصرخُ بهلع:

- أبوس إيدك سيبي الستّ تعيش، هي معندهاش مشكلة في حياتها، لو صعبانة عليك، طبطبي عليها هتفرح، إدّيها فلوس هتبقي حبيبتها وكفاءة، «لبني» بلاش مشاكل، إنتِ لسّه راجعة تعبانة، وفّري طاقتك لعيالك وبيتك.

تتدخّل إيمان قائلةً:

- صحيح يا dear ليه بتوجعي راسك الجميل بـ people دول؟! يا «لبني» روّقي يا هني، إنتِ لسّه خارجة من الهوسبتل ومجْهدة، take care بنفسك يا روحي، دونت ووري ..أكيد الجارد بتاع العمارة بتاعتكم في مشوار.

أنظرُ في اتّجاهها وأقول لها:

- يا خبر يا إيمان، أنا نسيت من سكوتك إنّك موجودة! يا بنتي مفيش حدّ محترف سكوت زيّك، والله إنتِ بتسكتي ازّاي! إزّاي.. ده انتِ بنت سعاد، أقصد طنط سعاد.

ثمّ أقول لها وأمنحُها ابتسامةً جزلة: برضوا بترطُني، مان إيه وبيبول إيه يا ستّ الكلّ، تصدّقي إنتِ حبيبتي.

يقهقه «يوسف» ويقول لي:

- طيّب وصلة الغزل دي حوشي منها شويّة لسعاد؛ أقصد لماما، يخرّب عقلك، هاغلط مرّة وأقول لها سعاد!! ادخلي بشويش إنتِ وإيمان وأنا هاتصرّف، واللّا أقولّك خلّيكِ ساندة على العربية أنا هارجع لكم.

يأخذ «يوسف» الحقيبة والشّنط البلاستيكية ويضعهم في مدخل العمارة، ثمّ يعود ليسندني، فهو يعلم مدى حالة الضّعف والوهن التي أعاني منها رغم رفضي الاعتراف بذلك، وفي تلك اللحظة التي عاد لي فيها «يوسف»، لمحتني «هنية» وهي تسقي الزّرع الذي يكسو جدار الشرفة والسور الحديدي، ذلك الزّرع الذي كانت ترفض سقياه في هذا التّوقيت، وتقتلني جدالًا في دورات السقيا ومواعيدها، وكنت أطلب منها بعد أنْ يفيض بي الكيل من كثرة جدالها وشغبها أن تتركَه لي وسأقوم بريّه بنفسي لأوفّر على قلبي مزيدًا من المناهدة! ثمّ يا للعجب! ها هي تراعيه في غيابي وتهتمّ به!

«هنية» تلك الصغيرة المشاغبة، يا الله كمْ كنت أفتقدها! وبمجرّد أن تلاقت نظراتنا قفزت كأنّها قطّة صغيرة تحاول الوصول لسورِ

الشّرفة، وأشعلت البناية بالزّغاريد والصراخ، وقالت وهي تتدلّى حتى كادت تسقط:

– حمدالله على السّلامة يا حاجَّة، أجصد يا مدام، كفّارة! يوو أجصد يعني نوّرتِ بيتك ومطرحك، ألف سلامة.

ثمّ تنادي على «بسنت» قائلة: يا «بسنت».. يا «بوسي»، أمّك أجصد مَامتِك وصلت.

وظلّت على هذه الحالة، ما بين الصّراخ والضّحك حتى ظننتُ أنّها قد أصيبت بلوثة! فشاورت لها أن تتوقّف، فصوتها وصراخُها جعل الجيران يتوافدون على الشّرفات ليروا ماذا يحدث؛ ذلك لأننا نقطنُ في حيّ لا تحدث فيه جلبة إلّا بمطاردة اللّصوص أو القبض عليهم، غير ذلك صمتٌ وكأنّنا نعيش في السحاب!

ورغم إشارتي لها أن تتوقّف وأن تهدأ، فإنّها لم تُعِر إشاراتي اهتمامًا، وطفقتْ تغنّي، نصرة جويّة وفرحة وألف سلامة، كأنّها تحتفل بخروج سجين من اللّيمان، ثمّ تنادي على «بوسي» وتعود للغناء (يالّي على الترعة حوّد عالمالح)، وعندما وجدتنا نقترب من مدخل العمارة تركت الشرفة واختفت!

سلّمت أمري لله ولم أحاول معها ثانية ثمّ دخلنا العمارة، فنزلتْ مسرعة تطوي الدرَج طيًّا، استقبلتني بالقُبلات والأحضان،

فضمَمْتها لصدري وربَتّ على رأسها، فأنا أعلم صدق مشاعرها، فيتمُها جعلها ضعيفة، خاصّة أنّها لم ترَ أباها، وقد كانت حياتها خالية من الأب بوفاته، والأمّ بزواجها، وتركها عند أخوالها وجدتها؛ لذا أشعر أنّها ابنتي الرّابعة مكرّر بعد «يوسف»، فكلاهما ابناي بالتبنّي!

أدفعُها بعيدًا عنّي برفق، وأستلم «بوسي» التي تقرصُها في ذراعها حتى تبتعد عنّي، وما أن تعانقني حتى تقول:

– ماما حبيبتي لحتك أثجخانة، هو حضْلتك كنت عايشة هناك؟

أغمرُها بالقبلات وأحتضنُها، حتى كادت ضلوعها تتداخل، ثمّ قلت لها:

– حضرتِ مرّة واحدة! لا يا ستّي ريحتي مش أجزخانة، ريحتي مستشفى! وحضرتي مُمكن تعيش هناك وتسيبكم لو مبطّلتوش شقاوة.

هنا تتدخّل «هنية» وتقول:

– ما بسّ بقى يا ستّ «بوسي»، المدام تعبانة مش ناجصها رغيك ده، إنزلي من على دراعها، إنتِ مش شايفاها مفرفرة زيّ الفرخة المدبوحة اللّي بتتخبّط في الحيطان، إنزلي بلاش تضايجيها.

تتركني لتجري خلف «هنية» التي تصعدُ الدرَج بمجرّد ما تلمح نيّة «بسنت» في ملاحقتها، فتلحقها تقول لها:

– يا «هنية» يا ثفته، إنتِ ما لك ومال مامتي؟!

والأخرى تشوح لها بيدها فيما معناه (اتْلهي)! كلّ هذه الجلبة والعراك، وإيمان و»يوسف» يقفان مُبتسمين ويتابعان المشهد دون تدخّل، إلّا عندما قال «يوسف» لـ»هنية»:

- بسّ بطّلي دوشة وإنزلي خدي الشّنطة والأكياس، يلّا بسرعة.

فتعود أدراجَها متخطّيةً «بوسي» حتى لا تضربها.

***

لم أفطنْ لغياب «أدهم» و»رمضان» بسبب البنات، فما فعلته الفتياتُ شغلني عن السؤال عنهما، ولكنْ بمجرّد وصولنا بالمصعد إلى طابقنا حتى فقدت الرّؤيا من جرَّاء انهمار الألعاب الخاصة بالاحْتفالات، تلك التي كانت دومًا تزعجني، وأصبحت في لحظاتٍ مثل الشبح الأبيض المخيف، لقد احتفل «أدهم» و»رمضان» بعودتي على طريقتهم الخاصّة، تلك الطريقة التي دأبتُ على رفضِها، بيدَ أنّ هذه المرّة استقبلتُها بترحابٍ وسعادة، قبَّلاني ثمّ أفسحا لي الطريق حتى أدخل..هذا الاستقبال جعلني أندهش، فأنا طوالَ الوقت أظنّ أنّني بالنسبة لهم كابوسًا يطاردهم أيقاظًا ورقودًا! أمّا هذا الاستقبال، فقد عني لي الكثير، ومنحني طاقاتٍ إيجابيةً رهيبة!

وما أنْ خطوتُ بقدمي داخل البيت، حتى رأيتُ أمّي تقف مستندةً بيديها إلى المنضدة في البهو، فذهبتُ إليها واحتضنتها، ثمّ

أخذتها وجلستُ بجوارها وقد التصقتُ بها تمامًا، فقالت هامسة:

- وحشتيني ووحشني جنانك، البيت من غيرك صعب، الحمدُ لله يا حبيبتي إنّك بخير يا قلبي. ثمّ تمسح دموعَها وتحتضنني، وتقول لي:

- متتصوّريش فرحتي برجوعك قد إيه، عملتلك كلّ الأكل اللي بتحبّيه، والولاد ما شاء الله كانوا هاديين، حتى «هنية» و«بوسي» كان بينهم هدنة غير مُعلنة، بسّ للأسف كسروها دلوقت!.

أضع رأسي على صدرها، وأقول لها:

- ربّنا ميحرمنيش منّك يا ماما، يا ستّ الكل، بيتنا نوَّر بوجودك، لو بسّ تيجي تعيشي معايا بدل ما انتِ عايشة وحدك.

تضحك وتقول:

- لا.. خلاص معدش عندي دماغ للموريستان بتاعك، أنا كبرت على كده، ربّنا يقوّيكِ..ثمّ تُرْدِفُ قائلةً:

- شايفة يا «لبنى» النّعمة اللّي انتِ فيها! شايفة الحبّ، يا ربّ تكوني استوعبتِ الدّرس، واتخلّصتِ من عقدة الاضطهاد اللّي ملازماكِ طول عمرك، رغم إنّي كنت دايمًا أقولك والله كلّ اللّي بتشتكي منه خيال وِوَهم، المهمّ ابدئي صفحة جديدة معاهم كلّهم، وأوّلهم حماتك.

أبتسم وأظلُّ واضعةً رأسي على صدرها أستشعرُ دفء حضْنِها

ولا أنبس ببنت شفة، فحضن أمّي هو الأمان؛ ففي وجودها أنا صغيرة وبدونها الحياةُ باردةٌ مُخيفة، ورغم مشاكستي الدائمة، فهي كانت- ومازالت- بوصلة الحقّ في حياتي.

أرفعُ رأسي لأجدَ «هنية» تقف مبتسمةً وتهزّ رأسها بسعادة، أُبادلها الابتسامة، وفجأة تختفي من أمامي؛ لأنّ «بوسي» نادت عليها لتحضرَ لها شيئًا.

***

بعد التفكّر في حديث أمّي معي، قرّرت أن أبدأ صفحة جديدة مع الكلّ، داعية اللهَ أن يمنحني القدرةَ على الصّمود والتّغير، فأنا مُنِحْتُ بفضل الله فرصةً جديدةً للحياة، ومُنِحْتُ رؤيةَ الأشياءِ بشكلٍ مُختلف، ومازالت رغم ذلك، «لبني» الإنسان نفسه، لم أتغيّر، نعم نظرتي لكلّ شيء اختلفت، لكنّ التطبيق سيأخذ منّي وقتًا، فالصبرُ والهدوءُ صفتان يصعب عليَّ الاتصاف بهما، ولكنّي سأتعلّم، لم أحبّ حياتي السابقة، ويجب أن أحبّ القادمة، ولن يحدث هذا إلّا إذا تغيّرت!

بعد عودتي بيومين كنت أجلسُ أنا و«يوسف» في حجرة المعيشة نشاهد بعضَ البرامج، وفجأة اقترحتُ عليه فكرة هو دائمًا متبنّيها، فكرة الصفحة الجديدة، فقال لي:

– يا ما قلت لك يا «لبني» نفتح صِفحة جديدة وإنت تقولي الكتاب خلاص اتقطّع كلّه، أهو يا ستّي علشان خاطرك هنشتري كتاب جديد!

أقاطعة قائلةً:

– بصّ يا «يوسف» لو هنبدأ نعاير بعض إنتَ عارف، أنا في دقيقة أتحوّل وابقى «لبني» أمّ الخلول، فبلاش موضوع المعايرة ده هو والرّخامة، وفي تلك اللحظة الحرجة التي أحاول أن أضعَ فيها النقاط على الحروف، تأتي «هنية» مسرعةً وتقول لي:

– يا مدام.. الستّ أم رجب الطبّاخة اللّي بعتتها مامة حضرتك، عـاوزاك ومستعجلة..ومش عارفة ليه مستعجلة، هي الدنيا هتطير!ثمّ تهرش رأسها، وتقول:

– صحيح يا مدام، هي مامة حضرتك جابت لك طبّاخة ليه، مكنتي علّمتيني الطبيخ وزوّدتِ مرتّبي، أو مُمكن يعني بدل ما تزوّديه تجيبيلي دهب وصيغة أو آخد دورارات.

أقول لها:

– وليه دهب ودورارات يا فصيحة؟!

تنظر لي بذهول وتقول:

– هي وصلت لفضيحة يا مدام، ليه كده؟ دا الواحدة منّا عايشة

بشرفها، أنا عمري ما عملت حاجة غلط، والله أنا بصلّي ومش بعمل أيّ حاجة تغضب ربّنا! ليه كده؟!

أنظرُ إلى «يوسف» الذي لم ينبس ببنت شفة، وجلس يتابع باستمتاعٍ بادٍ على ملامحه ثمّ أقول لها:

– فضيحة إيه وشرف مين يا طرشة يا مُصيبة، أنا جيت جنبك؟! بقولّك فصيحة فصيحة، يعني بتعرفي تتكلّمي كويس وشاطرة...ثمّ أعيد السؤال:

– مقولتيش ليه دهب ودولارات؟

تبتسم في زهو وتقول:

– أيوا أنا فعلًا بحسّ إنّي فظيعة زيّ ما حضرتك ما بتجولي، طيب يا مدام هاجولّك، أصلي سمعت إنّ الدّهب والدورارات مش بيخسّوا زيّ الفلوس.

ثمّ بمنتهى البراءة تسألني: هو الكلام ده صحيح؟ واللّا بيجذبوا علينا علشان ياخدوا فلوسنا!؟ بهدوء أقول لها:

– الكلام صحيح، بسّ أنا بدفع بالمصري عاجبك واللّا لأ؟

تقول بجديّة:

– طيّب غيّريلي المصري دورارات، أو اشتريلي بيهم دهب.

أنهرُها بصوتٍ حادّ:

– إيييييه، إنتِ فاكراني شركة استثمارية، واللّا شركة توظيف أموال؟! امشي، امشي، أنا مش ناقصني توتّر، دهب إيه وفضّة إيه! إنتِ مجنونة، يا بنتي هتشلّيني، ابعدي عني يا «هنية».

تنظرُ إليّ بتمعن، ثمّ بمنتهى البرود تقول:

– يا مدام إحْنا جولنا إيه؟! مش جولنا مش هتتنرفزي وهتفتحي صفحة جديدة؟! مش لسّه حضرتك بتجولي الكلام داهوّه للأستاذ «يوسف»؟!

فجأة أجدُ «يوسف» ينحني وقد كاد يسقطُ أرضًا، فلم يستطعْ أن يتحمّل كلام «هنية» وقال لي:

– هاسألك مرّة تانية، إنتِ عايشة مع المخلوقة دي إزّاي؟! دي اختراع يا «لبنى»!

تستفهم «هنية» وتقول لـ«يوسف»:

– أيوا مين يا أستاذ «يوسف»؟ تجصد أمّ رجب الطبّاخة، صحّ؟ والله يا أستاذ «يوسف» أنا جلت للمدام ملهاش لازمة، وأنا أطبخ وأعمل كلّ حاجة، أصل الستّ دي بتيجي تدوّخني وتطلب منّي طلبات بزهجْ منها والله، يعني هتبجى هي وعيالكم؟ الرّحمة حلوة! صحّ يا مدام؟ واللّا انتِ لكي رأي تاني!

أخبّأ وجهي بيدي كأنّي مصابة بصداع؛ حتى لا ترى ابتسامتي،

وأقول لها من بين يدي: - امشي قولي لأمّ رجب أنا جايّة لها، وبعدين روحي اسقي الزّرع ولمّي الغسيل، ومتدخليش علينا إلّا لمّا تخبّطي، قلت لك ميت مرّة الموضوع ده.

تقترب منّي وتقول:

- أخبّط ازّاي والباب مفتوح! وحضراتكم جاعدين جدّامي وشايفاكم وسمعاكم، دا صوتكم جايب لآخر الشجّة، وعلى فكرة يا مدام لمّا تحبّوا تتوشوشوا ابجوا اجفلوا الباب عليكم.

لم أملكْ نفسي، فقمتُ من مكاني ثمّ جذبتها من يدِها وأخرجتها إلى خارج الحجرة، وقلت لها:

- روحي جهّزي هدومك، هتروّحي البلد حالًا يا «هنية»، وهاتّصل بطلعت يوصّلك؛ علشان أنا تعبت منّك، لأنّك مش بتسمعي الكلام، وفعلا خلاص انا جبت أخري منك

تصرخُ وتدقّ بقدميها وتقول:

- بلاش البلد يا مدام والله هبجا كويسة، بلاش صفحات جديدة، إنتِ كويسة خلّيكِ بالكتاب الجديم، يا مدام أنا مش عاوزه أرجع البلد، أنا بحبّكم وبحبّ عيشتكم!

أغلق الباب خلفي، وينفجرُ كلانا في الضحك، ولكنّي أحرص على ألّا تسمعني «هنية» حتى لا تتمادى، فيمسح «يوسف» دموعَه

ويقول لي بصوت مرتفع:

- مش مُمكن يا «لبني» البنت دي ميح خالص، دي محتاجة تتعلّم ازّاي تتكلّم وتتعامل مع البشر! إيه رأيك نبعتها لماما يومين في الأسبوع لغاية ما تظبّطها لك!

أسمع صوتَها من خارج الحجرة وهي تقول:

- يا مدام «لبني» أنا جاهزة أروح البلد، يا أستاذ «يوسف» بلاش الستّ سعاد!

أقتربُ من «يوسف» وأهمسُ له حتى لا تسمعني:

- شفت.. حتى «هنية» المهبولة مش عاوزه تروح لمامي سعاد!

أنهي حديثي مع «يوسف» قائلة: كده تمام على البركة، هنفتح صفحة جديدة!

***

أذهبُ لأمّ رجب فأجدها تصرخُ في «هنية» قائلةً: - إنتِ يابتّ رحتِ فين، جهّزي اللّي قلتلك عليه.

وعندما تراني تغيّر من صوتها، وتقول:

أهلًا يا مدام، إيه أخبارنا؟ هنطبخ إيه الأسبوع ده؟

فأردُّ عليها بحزم:

- يا أمّ رجب ما أنا قلتلك امبارح، علشان تجيبي الحاجة معاك.

...ثمّ شرحت لها المطلوب، ووجدتُ «هنية» تقف ووجهُها عليه علامات القلق، فقلت لها:

– متخافيش مش هتسافري، بسّ بطّلي دوشة..انا فعلا مش مستحملة قرف!

ضحكتْ وبصوتٍ عالٍ وقالت:

– ولا هاروح للستّ سعاد؟ ثمّ رقصتْ وقالت:

– من النهارده مفيش خوف تاني، من النهارده مفيش رعب تاني.

قلت لها:

– ليه يا ستّ الثورجيّة؟! كلّ ده علشان مش هتروحي البلد؟!

قالت بثقة:

– لا كلّ ده علشان مفيش ذلّ تاني، مفيش جهْر تاني، مفيش مدام سعاد..ثمّ تستدرك كأنّها تذكّرت شيئًا:

– على فكرة يا مدام، مش لازم أروح عند مدام سعاد علشان أعرف إنّ العيشة هناك هتكون مجرفة وبطّاله وعفشة، يعني الخمس دجايج اللّي بتيجي فيهم البيت هنا، كلّه بيترعب، وحضرتك يا مدام وشّك بيتجلب وبيبجا عامل زيّ كيس المخدة المكرمش، جال أروح جال! يا روح ما بعدك روح، دا عشرتكم إنتم الخواجات، وحضرتك يعني حتى جابل الصّفحة الجديدة أرحمْ بكتير! يا مدام

أنا نفسي من جيوه مليانة وحاطّة في جلبي وساكتة وأجول اللّي بتعملوا الستّ سعاد معايا ده ولا حاجة، دي بتمرمَط حضرتِك يعني وانتِ مرات ابنها!!

أقول لها ساخرة:

– هو انتِ خلّيتِ فيها حضرتِك، عمومًا اسكتي خالص، مسمعش صوتك، مامي سعاد ستّ زيّ الفلّ.

تقترب منّي، وبخبث تقول:

– صحّ، أيون هي كده شكلها الصّفحة الجديدة اتفتحت، يحيا العدل.

ثمّ تهمّ بالابتعاد عنّي، فأقول لها:

– تعالي عاوزه أعرف منّك حاجة قبل ما تمشي!

تتلفّت بقلق وتقول:

– في إيه رجعتِ في كلامك تاني!؟ هو ده اتّفاجنا يا مدام!

أطمئنُها وأقول لها:

– لا مش هترجعي البلد، ده موضوع تاني موضوع يخصّ الأسْطى طلعت، هو مِن فترة كان متضايق منّك، وطول الوقت اللّي فات مبيبصّش في وشّك، وأنا نسيت أسألك، إنتِ عملتِ إيه في الرّاجل الطيب؟ وكلّ ما آجي أسألك أتلبخ وأنسى.

تنظرُ إلى الأرض ولا ترفع رأسَها وتقول:

- خلاف في النّظر بينا وراح لحاله..ثمّ تُرْدِف:

- يعني يا مدام، ما حضرتك والستّ سعاد على طول عندكم خلاف في النظر، وعادي يعني!

أدفعها بهدوءٍ بعيدًا عن المطبخ، وأدخل معها إلى الشّرفة، وأقول لها:

- خلاف في النظر! تقصدي مُختلفين في وجهة النظر، اللّي هيّه إيه؟ وطلعت بينك وبينه خلاف إزاي؟

تصرخ وتقول:

- أيوا هي دي يا مدام أصلي بسمعها كتير مع الستّ المذيعة دي اللّي اسمها أليس الحميدي، إنتِ عارفاها، اللّي جوزها أجْرع كده وصوتُه عالي، أهي أنيس دي، ولا أليس، دايمًا تجول خلاف أجصد الاختلاف ده..

أنفجرُ في الضّحك من فصاحتها المرعبة، فلو سمعت لميس الحديدي اسمها ينطَق بهذا الشّكل لاعتزلت الإعلام! أتوقّف عن الضحك و»هنية» تنظر إليَّ باستغراب، ثمّ أقول لها:

- أيوا يا «هنية» إيه بقى اللّي حصل؟!

تفرُك أنفها، وتفرُك يديها وتقول:

- الحجيجة يا مدام أنا طلبت منه إنّه يعلّمني السّواجة وأنا

أساعده، يعني أعمل مشاوير لكم، ويدّيني حاجة من مرتّبه، مآهو الواحد لازم يفكّر ويشغّل دماغه علشان يزوّد دخله، أنا سمعتهم بيجولوا كده برضك في فيلم للأستاذ عادل إمام!

وبعدين هو عمّ طلعت هيخسّ عليه إيه لمّا يعلّمني السّواجة، مآهو طول النهار جاعد في العربيّة مبيعملش حاجة، طيّب يعلّمني علشان أفسّح الستّ «بوسي» وجدّ حضرتك،

بسّ مرضيش برضيك وجلّي يا مجنونة إبعدي عنّي، وهدّدني إنّه يروّحني البلد، فأنا جلت له ربّنا الرّزّاج، وهاخلّي أيّ حدّ يعلّمني، ووجتها هاسوج عربية حضرتِك وأبجى السّواج الخصوصي، وهاوديكِ الأهرامات والمفتح المصري بتاع الأصنامات والنّاس المتحنّطين! علشان حضرتك خواجاية، وأكيد بتحبّي تروحي الحتت دي!

أستمعُ لِكَمِّ البراءة في كلامها، وأقول لها بهدوء:

- أيوا ماشي الأستاذ عادل أمام قال تزوّدوا دخلكم، هو انتِ يا»هنية» قاعدة عندنا بتعملي إيه، مآهو إنتِ كده بتزوّدي دخلك، والسؤال المهمّ إنتِ عرفتِ معنى كلمة يزوّد دخله دي من مين؟! وإيه حكاية الأصنام دي يخرّب عقلك، هو احْنا في قريش! جبتِ الكلمة دي منين كمان؟!

بهدوء لا يليق بالحماسِ الذي تتكلّم به قالت:

- سألت الأستاذ «يوسف» وهو اللّي شرح لي معناها، أمّا الأصنامات دي يا مدام هي اللّي بشوفها في التلافزون، وبعدين إيه يعني الجبنة الجريش دي، هو حضرتك جعانة.

ثمّ تعيد الطلبَ مرّة أخرى رغم إنّني منذ نصف الساعة كنت قد نهرْتُها وشرحت لها أنّني لن أدفع إلّا بالمصري:

- هو يا مدام صحيح ينفع تدّيني حسابي بالدورار؟

أمسكها من رقبةِ البلوزة وأقول لها:

- ينفع أدّيكِ بالبوكس في وشّك؟ إيه رأيك! ومفيش صفحات جديدة وهاخلّيك تبطّلي زنّ!

تبتسم ببلاهة، وتقول لي:

- خلاص يا مدام مش هاتكلّم، هاآخد بالمصري.

***

أتركُ «هنية» وأتوجّه إلى حيث يجلس «رمضان» أمام الكمبيوتر، احتويته بين ذراعيَّ، ثمّ أقول له بصوتٍ حنون:- حبيب ماما بتعمل إيه؟

نظر إليَّ بتوجّس وقال:

- أنا بتفرّج على حلقات تجارب علميّة للصغار، الحقيقة يا ماما أنا محتاج معمل صغيّر أعمل تجارب بسيطة، والله متخافيش منّي، مش هافرقع الدّنيا.

أشجّعه على أن يكمل حديثه قائلةً:

– قول عاوز إيه وأنا أجيبهولك، بسّ نعمل حاجات مفيهاش تفاعل كيميائي، لو موافق أنا من بكره إنْ شاء الله آخدك وننزل نجيب اللّي يعجبك.

يحتضنُني ويقول:

– على فكرة عايز أقولّك إنّ البيت من غيرك كان وحش، ومكنتش عارف أقولّك إنّي بحبّك كتير قوي، بسّ أنا فعلًا بحبّك قوي، ومن ساعة ما رجعتِ من المستشفى وأنا حاسس إنّك أحلى أمّ في الدّنيا، بسّ يا ماما في مشكلة، حضرتك مش عارفه تبعدي عنّي «بوسي»، دي إنسانة سخيفة بتضايقني طول الوقت، وموضوع المعمل هيفشل بسببها، أصلها...

وفجأة، وقبل أن أردّ أجد «رمضان» قد وقعَ على الأرض و«بسنت» تمتطيه مثلَ الجرو الصغير، وتقول له: – أنا ثخيفة يا ليخم.

أقوم بالفصل بينهما فيقول لي:

– يا ماما، أنا بكره البنات، كلّ شوية أقولّك كده، فعلًا سخاف قوي، دول أوحش حدّ في الدنيا، ويا ربّ يا «بوسي» تتسخطي بُرص!

تصرخُ في حركةٍ تمثيلية تريدُ من ورائها تشتيتَ غضب «رمضان» وتقول:

- يا ماما مش عاوزه أبقى بولص.

ثمّ فجأة تظهر خوفًا حقيقيًّا عندما يقول لها:

- هتتحوّلي وانت نايمة لبُرص صغير.

فتستجديه وتقول:

- حلاام أنا اثفة يا لامي ثامحني، بلاش تحوّلني لبولص.

فيقفُ عاقدًا يديه أمام صدره، ويقول:

- لا مش هاسامحك، ومخاصمك يا «بسنت»، وإنْ شاء الله هتتحوّلي برص، وعلى فكرة أنا أصلًا زهقان منّك ومن كلامك اللّي مش بيتعدل ده، رغم إنّي صلّحت لك حرف السّين، لكنْ برضو بتقوليه غلط.

ويسخر منها قائلًا:

- ويا ماما وفالي فلوث الدكتولة، مفيش فايدة فيها، دي تافهة!

تقتربُ منه وتقول له:

- ثامحني يا لمضان، أنا مش قثدي، إنتَ بتغلث عليّ، خلاث ثماح بقى، وأنا تافهة عادي كلّ النّاس تافهين حتى ماما تافهة!!

أنظرُ إليها مذهولة: - وأقول لها أنا تافهة يا «بوسي».. مش عيب كدة؟!

تردّ عليَّ بمنتهى البراءة وتقول: - مآهو يا ماما، تافهة يعني

حضْلتك طيّبة! أصل بثمع تيتة ثعاد بتقول عليكِ كده! وبعدين تقول: «لبني» طيبة، فأنا عالفة التّافهين طيّبين، ثح يا ماما؟

ماما اللّي هي أنا، أنظرُ لها وأنا فاغرةً فمي:

– ثعاد أقصد سعاد بتقول عليَّ تافهة! طيّب الكلام ده قبل الصّفحة الجديدة واللّا بعدها؟ أضطرّ لتغيير الموضوع، وأقول لها: إنتِ طيّبة، ورامي طيّب، وهتتصالحوا علشان خاطر ماما صحّ؟ من فضلك يا رامي سامحها.

يبتعد عنْها ويرفض المُصالحة؛ لخطئين ارتكبتهما؛ الأوّل لأنّها تعاملت معه بعنف وهو كائن مُسالم يرفض القَسوة والغلظة، والخطأ الثّاني مناداته بيا «رمضان»، وهو لا يحبّ أن يطلِق عليه أحدٌ هذا الاسم، أشعرُ أنّه يحتاج وقتًا ليهدأ من تصرّفها، فأطلب منها أن تذهب لأبيها وتتركنا معًا، فتقول لي:

– طيِّب هالوح لبابا، دي عيشة تخنق.

أحتضن «رمضان» وأقول له:

– إنتُم أحلى أولاد في الدّنيا، وأنا بحبّكم قوي! بسّ لازم تطوّل بالك على أختك، خلّيك إنتَ الكبير، «بوسي» أختك عيّلة صغيّرة يا «رامي».. تفكيرها صغير، غيرك انتَ ما شاء الله تفكيرك كبير! يردّ عليَّ وقد استعاد هدوءه بعدَ أن غادرتنا:

- حاضر، بسّ برضو خلّيها تبطّل سخافة وتسيبني في حالي!

أعدُه أنّني سأحاول معها، وأنا في داخلي شكّ؛ فهي مستنسخة من جدّتها سعاد، صعب جدًّا أنْ تتغيّر.. عندما قرّرت أنْ أكون أكثر هدوءًا، وحنانًا، وتقبّلًا وصبرًا وتسامحًا مع أولادي وأيضًا تغافلًا عن السفاسف؛ وجدت أنّ مساحات الاتفاق بيننا ازدادت، حتى علاقتي بحماتي، مع بعض التّغافل منّي، وبعض الرّفق منها، سارت الأمور أفضل، لم نتغيّر تمامًا، لكن قُمنا بتوسيع المساحة التي قد تحتملنا معًا، وأخرجنا «يوسف» من دائرة النّزاع قدْرَ استطاعتنا! فبدأت حياتي تأخذُ شكلًا أكثرَ هدوءًا، وحاولت أنْ أرى الحياة خارج حدودي.

الفصلُ الخامسُ عشر

السّلم والتّعبان

مرّ على خروجي من المشفى حوالي أسبوعين أو أكثر بقليل، في تلك الأثناء أمور كثيرة في حياتي أخذت تتحسّن، وازداد شعوري بالهدوء النّفسي والسكينة. وفي أحدِ الأيّام وأثناء تدويني لبعض الملاحظات في دفتري لأستخدمها بعد ذلك في كتابة مقالة! دخلت عليّ «هنية» وهي مُرتبكة، وقالت بصوتٍ ضعيف مرتعش:

- مدام، عاوز أجولّك حاجة تجيلة على جلبي جاوي، ومكدّرة عيشتي، بصراحة في موضوع أنا مخبّياه على حضرتك، ومش جادرة أشيله في نفسي أكتر من كده، تعبت والله!

فقلتُ لها مشجّعة إيّاها على الحديث: - خير يا «هنية» ما لِك؟ في إيه؟

تقول: - هوّ عمّ طلعت اتكلّم معاكِ في حاجة جريّب!؟

أقول لها مُستفسرة: - حاجة زيّ إيه يا «هنية»؟ خير.. عملتِ إيه يا بلوة!

تتمتم ثمّ تطرق بنظرها إلى الأرض وتقول:- هوّ زعلان منّي

تجريبًا، حصلت حاجة جريّب يعني، بسّ والله عادي مش عارفة ليه إضّايج وزعّج لي!

أقول لها: - أنا والله قلت إنتِ عاملة مصيبة، طيّب ليه ضميرك الميت نقح عليك دلوقت؟!

لا ترفع رأسَها لتواجهني، وتقول بخجل شديد: - بصراحة أنا معرفش ليه حسّيت إنّي عاوزه أجولّك، يمكن ضميري صحي، زيّ ما انتِ بتجولي، مش عارفه، أهو عاوزه أجولّك وخلاص، أصل الموضوع ده أنا جلته لعمّ طلعت من جريّب، من كام يوم كده، مش زمان يعني مش في نفس اليوم اللّي طلبت منه إنّه يعلّمني السّواجة، لا ده جريّب جوي، وخايفة هو يجولّك جبْلِي، فتزعلي منّي وتفهمي كلامي غلط.

أهزّ رأسي وأقول لها: - اتفضّلي قولي، متخافيش هافهمك صحّ! أنا أصلًا فاهماك كويس، انطقي!

قالت: - بصراحة هو أنا طلبت منه يجيب لي عريس علشان أنا كبرت ولازم أتجوّز، أنا خايفة أعنّس.

قلت لها: - هتعنّسي وانتِ لسّه مكمّلتيش 17 سنة؟!

لم ترفعْ رأسها، وظلّت منكسةً إيّاها وقالت: - يا مدام البنات حَدانا كلاتْهم اتجوّزوا، ولمّا بروح زيارة في البلد بيبصّوا لي على إنّي

فاتني الجطْر، وأنا الحكاية دي بتحس في نفسي جوي! وببجى تعبانة وعايزه أعيّط من الجهر.

أضحك وأقول لها: - بتحسّ في نفسك؟! بجدّ هو انتِ أصلًا بتحسّي علشان تحسّ، وبعدين اسمها تحزّ.

تردّ بهدوء:

- يا مدام، إنتِ فهمتيني، ليه بتسفّي عليّا على رجْي «أدهم»! يا مدام أنا بيعيروني إنّي لسّه متجوّزتش، بلاش تتمألتي عليّا.

أجد أنّ الموضوع جدّ مُهمّ بالنسبة لها فأقول لها:- طيّب وانتِ عملتِ إيه مع طلعت! خلّيتيه يتعفرْت كده، أصل موضوع يجيبلك عريس مش أزمة!

قالت: - هو أنا، وبدأت تتلجلج، بصراحة يا مدام أنا جلتله: إنّي موافجة إنه يتجوّازني، لو مفيش حداه عريس ينفعني!

أفتح فمِي في ذهول، وأقول لها: - موافقة إنّه يتجوّزك! ليه هو كان طلب إيديك يا مخبولة؟ وليه متكلّمتيش معايا الأوّل؟ كنت سألته لو عنده حدّ يجوّزهولك!

تصدر همهماتٌ غاضبة وتقول: - إيه يعني لمّا يتجوّزني، ما هو متجوّز واحدة بسّ «أمّ فتحي»، وعندنا في البلد عادي يتجوّز اتنين وتلاتة وأربعة كمان.

قلت لها بسرعة: - وفي كلّ الدّنيا مباح، أقصد مسموح للرّاجل يتجوّز أكتر من واحدة، بسّ بضوابط أقصد بشروط، وانتِ إيه اللّي يخلّي طلعت يتجوّزك لو أمّ فتحي مريّحاه وراضي بيها؟ اللّي عملتيه ده نوع من خراب البيوت.

تضرب بيدِها على صدرها وتقول لي:- يا لهوي، ليه كده يا مدام! أنا كنت هاتجوّز عمّ طلعت وأخدم أمّ فتحي، عادي يعني، زيّ كلّ النّاس ما بتعمل عندنا!

أقول لها: - وليه!؟ علشان إيه يا «هنية»؟ حرام عليكِ إنتِ لسّه صغيّرة، لازم تتجوّزي واحد قدّك صغير، طلعت قدّ أبوكِ، طبيعي الرّاجل يتخضّ منّك، إن شاء الله أدوّر لك على عريس وبطّلي تتصرّفي من دماغك، ارجعي لي بسّ في أيّ فكرة غريبة تيجي لك، بلاش هبَل.

في حركةٍ مفاجئة تحتضنُني وتقبّلني، وتقول لي: - أنا بحبّك يا مدام، بسّ لولا عصبيتك أنا كنت جعدت معاك ومش مهمّ أتجوّز، وممكن كمان أستنّى واتجوّز لمّا ابجي في سنّك لمّا انتِ اتجوّزتِ، ولو إنّ السّت سعاد جالت إنّك كنتِ عروسة كبيرة في السنّ علشان كده عصبيّة ومش طايجة نفسك، وانّ ربّنا ستر معاكِ وخلّفتي!

أقول لها: - الستّ سعاد تقول اللّي عايزاه، إنتِ لازم تعرفي

الكلام الجدّ، محدّش بيتجوّز إلّا وقت ما ربّنا يشاء، وبعدين إنتِ سمعتِ مدام سعاد إمتى قالت كده؟

تتخابث وتقول: - مش فاكره إمتى، بسّ هي العادي إنّها دايمًا تجيب سيرتك بالبطّال، يووو بالحلو، أيوا بالحلو، (وتغيّر الموضوع) المهمّ إنتِ بجيتي طيّبة أكتر من الأوّل، بسّ لو تبطّلي تزعّجي وتجفشي كده على رأي «أدهم»؟!

أستغربُ من قدرة حماتي على الخوض في سيرتي في أيّ وقت، ومع أيّ إنسان، حتى الشّغالة! ثمّ أقول لنفسي:

- خلاص يا «لبني» إحْنا فتحنا صفحة جديدة، وأصلًا «هنيّة» دي في دنيا تانية.

أخرج من أفكاري على صوت «هنيّة» تقول: يا مدام، أسجي الزرع واللّا هتسمعي كلامي ونسجيه بعد المغرب!؟

لأوّل مرّة أقول لها:

- لا.. اسقيه بعد المغرب، ويلّا روحي للطبّاخة بسرعة.

جلست أتفكّر في حال البنات والـزّواج والاستعجال على الارتباط، وقد تكون الاختيارات خاطئة؛ لأنّها تحت ضغط الرّغبة في الزواج فقط، دون التفكير في عواقب اختيار الزّوج الخطأ، «هنية» فتاة بسيطة، لم تتعلّم، ولا تعرف عن الحياة شيئًا، أمّا المتعلّمات

خريجات الجامعة والمثقفات، فما الذي يدفعهنّ للارتباط بمَن لا يقدّرهنّ ولا يليق بهنّ اجتماعيًّا وثقافيًّا وماديًّا؟! لماذا اللهفة، والزّواج رزقٌ يأتي في الوقت المناسب، أو قد لا يأتي لعدم صلاحيتِه للإنسان الذي لم يوفّق في الارْتباط! لو توكّلنا على الله، ولم نرفض أقْدارنا؛ لكانت حياتنا سعيدة.

***

أعودُ لأوراقي، وأستأنفُ ما كنت أقومُ به قبل دخول «هنية»، أراجع ما كنت أدوّنه، فجأة يدخل «يوسف» سعيدًا متهلّلًا وهو يقول:

- «لبنى»، عندي لك خبر حلو، عندنا ميعاد مع صاحب دار نشر، صاحب صاحبي.

أقاطعه وأقول: - مفيش صاحبي يا صاحبي يا صاحبي، هاهاهاها.. إيه.

ولا أدري سبب تعليقي، وأشعر أنّني سخيفة، خاصّة عندما رأيت «يوسف» ينظر إليَّ بتحفّز وقال:

- إيه السّكّر ده؟! أنا فصلت منّك، إنتِ قطّعتيني من الاستظراف، هتبطّلي واللّا محكيش؟

خجلتُ من نفسي وقلت له:

- والله يا «يوسف» ساعات القافية تحكم، وعمومًا حاضر.. هاحاول أمسك نفسي.

قال: – أخدت منهم ميعاد، يوم التّلات الأسبوع الجاي، هيكون مع صاحب دار نشر السّلم والتّعبان، ابعتِ لهم الملفّ النهارده على صفحة الدّار على ما نروح يكونوا قروه.

قلت له وأنا ممتعضة:

– «يوسف» دي دار نشر واللّا لعبة! إيه الاسم ده؟! لا أنا عاوزه جرير، أو العبيكان!

قال لي ساخرًا:

– في جرجير ينفع! جرير مين يا ستّ المغمورة إنتِ، مش لمّا تقبِّي على وشّ الدّنيا؟!

قمتُ من مكاني وأنا أشاكسُه، وقلت له:

– بهزّر يا «يوسف»، إيه حرام أهزّر؟! خلاص هابعت وأشوف صاحب صاحبك ده، والله فكّرتني بفيلم عوكل، يا ابن بنت بنت بنتي.

فقذفني بوسادةٍ صغيرة، فابتعدت عنه، فجاءت في «بوسي» التي صرخت، وقالت:

– إيه يا بابا ده، مش عالف تنشّن؟! قولّي وأنا أولّيك!

ضحك وقال لها: – حاضر يا «بوسي»، تعالي أقولّك.

قفزت وجلستْ في حضن أبيها، وجعلت تحكي له حكايات، وعندما نظرتْ في وجهه عرفت أنّه يعاني معها، فهو لا يفهم نصفَ

الكلام؛ لأنّه لا يعرف مفاتيح الحروف، ودائمًا يسألني:

- هي بتقول إيه؟!

أضحك وأقول له:

- على رأي المثل القديم اللّي بيقول: أمّ الأخرس تعرف لغته، مقالوش أبو الأخرس.

وعليه ظلّ «يوسف» لا يدرك ما تقصدُه «بـوسي»، تركتهما يتجادلان، وذهبت لحجرة الأولاد، وقرّرت أن أجلس مع «أدهم» قليلًا، فأخبرته عن توجّسي من التّجربة، وأنّ دار النشر لا تعجبني فقال:

- شوفي يا ماما المنطق بيقول إنّ حضرتك لسّه كاتبة مش معروفة، يعني مجهولة للقرّاء، ومحدّش يعرف حاجة عنّك، يبقى التّجربة دي هي اللّي هتخلّي النّاس تتعرف عليك، ووقتها تقدري تملي شروطك الأدبية والمالية وتختاري بمزاجك!

***

أستمعُ لنصيحته وأنا لا أصدّق نفسي! هل نضجَ ابني هكذا دون أنْ أشعر! كيف لمْ ألْحَظ هذا؟! شعرتُ بالنّدم لانشغالي بإصْلاح الكون عن الاستمتاع بزهوري وهي تنمو وتشعل الكونَ جمالًا وبهاءً! قبَّلتُه وقلتُ له:

- ماشي يا فيلسوفي، تمام يا فندم هانفّذ إنْ شاء الله.

لقد كان لحواري مع «أدهم» وقعٌ في نفسي أعطاني القوّة والثّقة، لكنْ كان بداخلي رفضٌ للتنازل، لا أدري لماذا شعرتُ بصراع ما بين اقتناعي بكلام «أدهم» ورغبتي في عدم التّنازل، أعلم أنّه من السّابق لأوانه أن أتوقّع أنْ يكون لي القدرة على التّفاوض، لكنّي خائفة من التجربة، وأيضًا من هذا الوسط، ولا أريد تنازلات.

***

يجلسُ «يوسف» أمامي، وعلى الجانب الآخر مديرُ دار النشر، وتبدو عليه الثّقة الزائدة، يوجّه الكلام إليَّ قائلًا: - أهلًا بيكِ يا أستاذة.

أردُّ عليه: - أهلًا بيك.

يكمل كلامه:- أنا قريت الرّسايل، مبدئيًّا موافق عليها، لكنْ لي سؤال: هوّ ليه حضرتك ماسبتيش حدّ إلّا لمّا سخرتِ من أدائه وأسلوب تعامله؟! هو انتِ النّاس كلّها حواليكِ صعبة كده!؟

ثمّ يستطرد قائلًا:

بسّ الحمد لله إنتِ متكلّمتيش في السياسة، كانت هتبقى مشكلة.

أجاوب ساخرة:

- آه علشان مفيش فايدة من الكلام، أصدّع نفسي ليه؟! واللّا إنتَ إيه رأيك؟!

فيردُّ عليَّ سخريتي بتهكّم محبِط:

- يعني إنتِ شايفة إنّ رسايلك دي مُمكن تجيب فايدة؟!عن نفسي شايف إنّه والله مفيش أمل، لكن ده كتابك وانتِ حرّة فيه، وعمومًا هادخّلهم لجنة قراءة، وأردّ عليكِ ولو اتوافق عليهم، يبقى حضرتك هتدفعي نصّ المبلغ اللّي يتحدّد لطبع الكتاب.

أشعر بتدفّق الدماء إلى وجهي، وكأنّ شحنات حرارية تخرج منه، أنظرُ إلى «يوسف» الذي يغمز لي بطرفِ عينه، تتبعها نظرةُ استجداء (بلاش يا «لبنى»)، وكان ظاهرًا على تعبيرات وجهِه أنّه يطلب منّي ألّا أبدأ وصلةَ (الرّخامة)، تجاهلته وتظاهرتُ بأنّي لم أفهمه! ثمّ بصوتٍ حادّ مثل صوتِ سنفرة الزجاج أقول:

- حضرتك مش عاجبك حاجة؟! مش عاوز الرّسايل، براحتك عادي، لكن تتّريق على كتاباتي يبقى بلاش منها يا سيدي، وخلّيك في الكتابات الرّومانسية والحبّ!

فيستغربُ من لهجتي الحادّة ويقول:

- في إيه يا أستاذة؟! أنا ما قولتش حاجة، إحْنا بنتناقش، وبرضو براحتك.

أستطردُ وكأنّني قطارٌ انْفصلت عنه القاطرةُ فيدهس برجوعِه للخلف كلَّ ما هو قادم: - وإيه حكاية لجنة القراءة ولوْ عاجبهم أنا اللّي هادفع؟ هو انتَ دار نشر واللّا مطبعة؟! شكلي كده مش هارتاح

معاكم، وأكيد هاكتب رسالة عنكم في الكتاب ده لو نشرتوه أصلًا، ودي لازم هتكون آخر رسالة.

يبتسم ببلادةٍ كأنّه يرى مختلًّا عقليًّا يريد أن يهاوده، ويقول لي:- هننشر كتابك لو اللّجنة وافقت عليه، ولو زكّته هننشره من غير ما ناخد منّك فلوس، ورغم كلّ اللّي قلتيه أنا لسّه بقولّك مفيش أمل إنّ الرّسايل دي تجيب فايدة مع المُرْسَل إليهم، بس علشان أبقى مش ظالم هادخّله لجنة، عاوزه أكتر من كده إيه! وبعدين إنتِ بتكلّميني كده ليه يا أستاذة؟! لازم يكون عندك مرونة أكتر من كده.

ثمّ يوجّه كلامه لـ«يوسف» الذي كانت لديه رغبة ظهرتْ في عيونه أن يسحبني من يدي ويخرجني من المكتب حتى لا أورّطه في خناقة:

- مش كده واللّا إيه يا بيه؟! إنتَ أصلك جاي من طرف راجل عزيز عليّا قوي.

ينظر له «يوسف»، ولا يردُّ عليه في الحال، والحقَّ أقول: لا أدري سبب هذا التصرّف الغبي والحدّة في الكلام، والهجوم على صاحب دار النشر! يبدو أنّني لم أتخلّص من عيوبي واندفاعاتي وحماقاتي! ولم أفتح بعدُ صفحةً جديدةً مع العالم، يبدو عليه وكأنّه إنسان تورّط مع مسجّل خطر في مصلحةٍ ما، ويقول موجّهًا كلامه لي:

- إيه يا «لبني» ما لِك متنرفزة ليه؟ الأستاذ بيقول رأيُه في الفكرة

مش في كتاباتك، وحتّى لو قال، ما لِك؟! من حقّه ينتقد كلام مش مناسب له.

ثمّ يوجّه كلامه لصاحب الدار:

– طبعًا إنتَ حبيب حبيبي، وربّنا يوفقنا إنْ شاء الله، بعتذر عن عصبيّتها، أصلها لسّه خارجة من تعب ومتوتّرة و.. و..

وقتها تذكّرت فيلم «باب الحديد» عندما كانوا يقومون بتكتيف «قناوي» ويعدُونه بالزّواج من «هنّومة»، وأقاطعه وأنا أبتسمُ ابتسامة صفراء ساخرة، وأقول:

– «يوسف»، فاضل تقولّه دي بتتعالج من الجنون! أنا مش عاجبني الكلام، وأنا بعتذر، مش عاوزه أنشر كتابي.

ثمّ أغادر المكتب، فأنزلُ مسرعةً وأنا أشتعلُ غضب، فأنتظرُ «يوسف» أمام سيارتنا، لكنّه لم يلحق بي، فوجدتها فرصةً لأقعد بين النّاس في الشّارع، فهذا شيء– يمتعني– أمارسه منذ كنت شابّة صغيرة، فمتابعة تصرّفات النّاس عندما لا يشعرون برقيب تجعلك ترى مخلوقات بريئة، على سجيّتها، خاصّة وأنت لستَ في وضع القاضي، فقط تشاهد دونَ أيّ توجيه، فاقتربت من مقعدٍ خال في محطّة حافلات، وجلست عليه، ثمّ بدأت أتابع النّاس، فاكتشفت أنّ معاناة الناس من حوْلي كثيرة ومتفاوتة، ولكنّها صدقًا

معاناةٌ أكيدة، وفجأة تظهر أمامي سيّدة صغيرة في السنّ، بدأت تقتربُ منّي وهي تدفع بيدِها كرسيًّا متحركًا، يجلس عليه فتى وفتاة؛ كلاهما مُعاق، تبتسم لهما وكأنّها تتحاور معهما بالعيون، ثمّ تجلس بجواري، وتُخرِج علبةً صغيرة وتبدأ في إطعامهما وتتحدّث إليهما، فيتجاوبان معها ولكنْ دون أن تصدرَ منهما أصواتٌ سوى همهمات، ما هي إلّا دقائق حتى خطفا قلبي، وبدأت أتفاعل معهما، لم أتحدّث إليها ولكنْ أظهرت اهتمامًا بحبّات قلبها، وشعرت بضآلتي، واكتشفتُ أنّي حقًّا أحتاجُ إلى تأهيل نفسي، حتى أرضى وأتأقلم مع الناس، وأكفّ أذاي عنهم.

نسيت نفسي ومعاناتي وعصبيّتي وانصهرت تمامًا مع الصغيرين، وبدأت أداعبهما، ثمّ تحدّثت مع الأمّ ودعوت لها، وبعد نصف ساعة لحقني «يوسف» فقد كان يظنّ أنّي أنتظرُه في سيارتنا، وعندما لم يجِدْني اتّصل على هاتفي الخلوي، وخلال الطريق حكى لي حواره مع صاحبِ الدّار بعد مغادرتي المكتب غاضبة، والذي أثار حفيظتَه فقال:

- بصراحة يا «لبنى»، مش شايف أيّ داعي لتصرّفك مع صاحب الدار، مش عاجبنا كلامه خلاص، وهو قالّي بعد ما نزلتِ غضبانة زيّ الأطفال، إنّه بيتكلّم وبياخد ويدّي مع الناس اللّي بينشر

لهم، ولازم يعرف عاوزين ينشروا ليه، وفهمته إنّك كنت بتكتبي لنفسك وإنّ أنا اللّي أقنعتك تنشري

وعلشان كده مش لازمك النّقاش ومتوقّعتيهوش، وقالّي يا «لبني» إنّ أسلوبك كويس، وهو مقصدش اللّي فهمتيه.

شعرتُ بإحراجٍ واعتذرت له فقال:

– ولا يهمّك، بسّ حاولي تظبّطي انفعالك شوية، لو هتكتبي للنّاس، لازم تتوقّعي رفض البعض وموافقة البعض، إحْنا بشر، مش كلّ الناس هتحبّ اللّي بنعمله.

أسلوب «يوسف» الذي لم يكنْ يومًا جافًّا أو محبِطًا ساعدني على استرجاع هدوئي، بيدَ أنّه رغم هذا، مازال صامتًا، ومتجاهلًا، ولكن الحقَّ أقول عندما أتعرّض لموقف مؤلم لا يتركني أبدًا دون دعْم، قد أكون حقًّا أنثى العنقاء وأحتاجُ تهذيبًا لانفعالاتي، لكنّي أحبّ زوجي، وأعاني من بخله الذي ثبت لي أنّه غير مقصود!

مرّ أسبوعان على لقائي مع الناشر، وجاءت الموافقة والتّزكية، طار عقلي فرحًا؛ فالكتاب سيرى النّور، وعندما أخبرت «يوسف» بتواصل دار النشر معي، فرح كأنّ الكتاب له وليس لي، فرحته أثلجتْ صدري، واقترح عليّ اقتراحًا؛ الحقيقة عندما سمعته سعدتُ به جدًّا، فهذا الاقتراح سيتيح لي فرصةَ نشر الكتاب دو أن يثير حفيظة أو غضب أحدهم.

قال: علشان تخرجي من حرج (التّلقيح) وميبانش إنّك بتتكلّمي على الناس اللّي حواليك ياريت تغيّري شوية من تفاصيل الرّسايل، يعني بلاش ماما أو بابا أو «أدهم» يفهموا إنّك تقصديهم (رغم إنّهم هيفهموا، دي مش محتاجة فتاكة) بسّ مش هيكون في إديهم أو أيّ حدّ من اللّي وجّهتِ له الرّسالة أي دليل، كمان هتوسّعي النقد وهيكون لقطاع أكبر، هي دي الفرصة علشان محدّش يلومك، فتكتبي رسايل تانية، بالإضافة للرّسائل اللّي في دفترك.

أستمع لكلامه وأنا في حالةِ انبهار، فهذه الفكرة من أرْوع ما سمعت منه؛ أقول له:

- يسلم فومّك يا «جو»، إيه ده يا «يوسف»! إيه الإبداع ده، يا سلام عليك لمّا تشغل دماغك معايا وتساعدني!

ثمّ أُرْدِفُ قائلةً بسببِ الشّريرة التي تخرج مني دون قصْد:

- صحيح هوّ في سؤال كده كنت عاوزه أسأله لكْ من زمان، هو انتَ بتخاف على تفكيرك من إنّ حدّ مُمكن يسرقه منّك وتعيش من غيره، لو اتْعرف إنّك عندك تفكير مميز، أو بتفكر تأجّر دماغك الألماظ دي بنظام المفروش؟ وخايف لمّا تفكّر في أيّ شيء يخصّني أو يخصّ البيت يقلّل من كفاءتها أو جودتها، ودا يقلّل من قيمتها في السوق، بجدّ إنتَ محافظ على أفكارك دي لمين؟! يستمع إلى

سخريتي، ويقول:

- أهو ده اللّي باخده منك! لو أسكت، إنتَ مفيش منك فايدة، لو اتكلّمت تتريقي، وإنت بتحوّش الأفكار دي لمين! تصدّقي إنتِ يا بنتي مكانش ليكِ الجواز أصلًا!

أقاطعه قائلةً:

- هات إيدك أبوسها.. أخيرًا عرفت! أقسم بالله صادق يا باشا، أنا فعلًا مكنش ليّا لا جواز ولا خلفة ولا عيشة في الأرض، أنا عاوزه أعيش في كوكب تاني!

يسخر منّي ويقول:

- كوكب تاني! ليه يا «مدحت صالح»! ما الكوكب ده أحسن من غيره. ثمّ يستدرك قائلًا:

إيه رأيك؟ هاتعدّلي الملفّ قبل ما تبعتيه واللّا عاوزه تعيشي في كوكب تاني؟! فأقولُ له:

- «يوسف»، خلاص ألشة وعدّت، بلاش تبقى غِلس كده وخلّينا نتكلّم جد، إشطة؟ يقلب شفتيه وهو يقول:

- إيه إنتِ بقيتِ لوكال قوي يا «لبنى»، إيه إشطة دي؟!

أقرصه في خدّه قائلة:

- مآهو عيالك كلّهم بيقولوا كلام غريب، بلح وإشطة وافتكسي

وسَفّ، ومعلّم وبرًّا عني، وعوء، وجات عليّا أنا يا جو؟!

ثمّ أردف سريعًا وبصوتٍ كارتوني:

– بصّ يا «يوسف» أنا شامّة ريحة طنطي سعاد، بلاش العِرق التّركي بتاعها يبوّظ لغتنا العربية! ثمّ أعود لصوتي الطبيعي وأقول: من فضلك إحْنا دلوقت عاوزين ننجز، أنا موافقة على فكرتك جدًّا، يلّا على البركة! لو عندك أفكار مفتكسة علشان أكتب عنها قولي..

ابتسم وقال: – اتّفقنا يا حضرة الكاتبة العظيمة..

واقترح «يوسف» العديدَ من الأفكار المذْهلة، كم أنتَ رائع يا زوجي المشاكس فعندما تتخلّص من صندوق اللّاشيء الذي تعشق الاعتكاف داخلَه تصبح «يوسف» آخر، «يوسف» لا مثيل له!

❋❋❋

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصلُ السّادس عشر

كتاب حياتي

عندما أستعرض شريطَ حياتي، أستغرب ممّا حدث لي فيها، فأنا كنت أخطّط في اتّجاه مختلف عن ذلك الذي عشته وعايشته، فأنا لم أكنْ أريد الزّواج نهائيًّا، وكنت أريد الحصولَ على محلّ صغيرٍ، في مكان مميّز، أجعله للأنتيكات والمصنوعات اليدويّة، وبدلًا من المحلّ! تزوجت وتعطلت كلّ أحلامي بفعل فاعل، فالزّواج والمسئوليات التي تترتّب عليه تفقّدك القدرة على التشبّث بأحلامك، والعودة لاحقًا لتحقيق ما كنت ترجو عمله، وتأمّل أن تمارسه باقي حياتك! لقد حاولت النّجاح وأن أكون مختلفة عن الآخرين، بيدَ أنّي فشلت بشدّة! فعندما تخلّيت عن أحلامي وطموحاتي فشلت في أنْ أكون متميّزةً في أيّ شيء سوى الشكوى!

حتّى عندما كنتُ أكتب، كنت متبنّية نظرية تفريغ الشّحنات (بوز البرّاد) حتى أستطيع العيش دون أمراض، ورغم ذلك كنت أُدَوِّنُ أمراضي بيدي وأُثقل كاهلي بحمْلها، وأمشي بكلّ معاناتي مدوّنة، دون علاجها أو التخلّص منها، لقد لجأت لأسهل الحلول وهو الهروبُ

بدلًا من العلاج الحقيقي، وأقنعتُ نفسي أنّ ما أفعله هو الصّواب، وأنّ تقليل الضغط يقلّل فرص الانفجار، وبذلك أعبُر بسفينتي إلى بَرّ الأمان، كلّ النتائج كانت معروضة ومتاحة إلّا أن أتخيّل يومًا أن يتحولَ (بوز البرَّاد) منفذ التّخفيف والتهدئة؛ إلى كتاب!

***

تمرّ الأيّام سريعًا وتتمّ الموافقة على الكتاب، وبعد التعديلات التي اقترحها «يوسف» والتي لاقت اسْتحسانًا لديّ ولدى المدقّق اللّغوي يدخل الكتاب المطبعة، وأحاول من خلال أسلوبٍ ساخر تسليطَ الضّوء على بعض الأشياء السّلبية في حياتنا وحياة الآخرين، أردت أن أخرجَ من أنانيتي لطرح معاناة غيري.

وأخيرًا (بوز البرَّاد) سيكون كتابًا ورقيًّا، وليس فقط صفحات في دفتري الأثير!

كانت المقابلةُ الثانية مع صاحب الدار مختلفةً لكلينْا، أُعجبتُ بإخراج الكتاب، وسعدت به أيَّما سعادة! فأمسكته بين يديَّ، ومررتُ بأصبعي على الاسْم المكتوب وأنا أكادُ أطير من الفرحة، أمّا صاحب الدار فانْشغل مع «يوسف» في تفاصيل التّوزيع والنشر، لم أنتظر العودة إلى البيت، وأنا في الطريق بدأت القراءة.

« بوز البرّاد »

مقالات ساخرة

دار البشير للثقافة والعلوم

دار البشير للثقافة والعلوم

المقدّمة

أحيانًا التمسُّك ببعض الأحلام يكون هو العقبةَ الحقيقية في تحقيق ذاتنا، أو الوصول لنجاحاتنا أكثر ممّا نتصوّر.

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهداء

إلى أغلى النّاس

زوجي الحبيب، أشكرك على حبّك، الذي طالما اشتكيت من صمتِه

فبهرني بأفعاله

إلى نور العين والقلب

«أدهم»، «رامي»، «بسنت»

دار البشير للثقافة والعلوم

الشّكر

إلى كلّ من تسبّب في ألمي فتحوّل ذلك الألم إلى نور.

وبدأت أطوي صفحاتِ الكتاب بشغفٍ ملأ قلبي، وتشمّمت رائحة الطباعة، مرّرتُ يدي على الغلاف وجعلت أقلّب الكتاب مرّة أخرى، حالة من النّشوة احتوتني، هدأت من حالي، ثمّ بدأتُ أقرأ مقالاتي، وكانت أوّل مقالة هي:

(1) أصحاب المناخير

يا أهل الخير، أحبّ الأوّل أعرف إيه هي المشكلة عندكم؟ ليه حاشرين نفسكم في تفاصيل الناس؟ هل هي إنّ عندكم مناخير كبيرة مضيقاكم! طيب ما كلّنا عندنا مناخير وأوقات بتضايقناعادي خالص، لكن مخلّينها في وشّنا عادي مبنحشرهاش في أيّ مناسبة وأيّ مصلحة وخلاص زيّكم يا بهوات!

اتّقوا الله.. إيه اللّي بتعملوه في خلق الله ده، تمسكوا البني آدم اللّي يقع تحت إيديكم، وتعصروه أسئلة وحشريّة، لو كانت بنت؛ تبيّنوا لها الاهتمام بمستقبلها وحياتها، وهات يا أسئلة؛ متجوّزتيش ليه لغاية دلوقت، ولا هو في حدّ وانتِ مخبّية علينا؟! طيب إنتِ مواصفاتِك إيه؟ ولو قالت المواصفات تبدؤوا في سلْخها وتقطيعها، وبعدين مصْمَصة شفايف، طيب ما ترضي بالنّصيب وبلاش تطلعي فيها قوي!

اللّي هو إيه حضراتكم؟ يعني اشْرحوا لها؛ علشان هي غالبًا في KG1 ومحتاج حدّ يفهمها إيه المناسبة لها، ومتنسوش تجيبوا لها المصّاصة والشّيتوس واللبان! نصيب إيه اللّي ترضى بيه؟ إنّها تبقى

في حمى راجل، طبعًا ميهمّش الرّاجل ده؛ صنف ولا نوع ولا مواصفات، وكأنكم شايلينها على راسكم من فوق، أو بتاكل أكل عيالكم، أو حتى بتتصدّقوا عليها،

دي أحيانًا بتكون موظّفة مرموقة وبنت جميلة وبرضو مبتسلمش من غلاستكم، ولو حتّى لو بنت عادية، إنتم مالكم ومالهم، تعرفوا البنات دول دماغهم توزن بلد، ليه عاوزين ترموهم لأيّ واحد يحمل نوع ذكر في البطاقة؟ مش مهمّ إنّه يبهدلها! مش مهمّ ياخد فلوسها، يقهرها ويهينها، تستحمل، مش أحسن من العنوسة! المهمّ تتجوّز علشان الحسّاسية اللّي عندكم، واللّي مش بتخلّيكم تناموا وترتاحوا؟!

لا يا بهوات لا يا أفندية «العنوسة» لو انتم مصريّين تسمّوا عدم رغبتهم في الجواز من أيّ حدّ «عنوسة» تبقى دي شرف للبنات الأذكيا، اللّي لا يمكن ترمي نفسها في عصمة فردِة شراب واخد الصّنف ذكر، يهينها ويبهدلها ويطلّع عُقد النّقص بتاعته عليها، البنات دول أذكى من إنّه يقعوا في مصيدة ضلّ راجل...

أمّا إنتم يا أصحاب المناخير لازم تتقصّ مناخيركم علشان مفيش فايدة منها؛ لأنّ لو البنت ربّنا أهداها وأنعم عليها برزق طيّب واتجوّزت شخص مناسب لها، تبدءوا الأرّ.. هه مفيش حاجة

جاية في السّكة؟ يا بنتي إنتِ أصلًا متجوّزة كبيرة (كبرت علتكم ومصيبتكم) وانتُم مالكم؟! ولّما ربّنا يكرمها وتحمل وتخلّف فيكون النّونو» بنت»! يا عيني يا ختي، معلش المرّة الجاية تجيبي الولد، ولو كانت أوّل خلفتها صبيان يبقى اللّي مجابش بنات مخلّفش للمات، لازم تخلّفي تاني علشان ربّنا يرزقك بالبنات، طيّب مش ناوية تخاويهم! هتفضلوا حاشرين مناخيركم لغاية إمتى؟!

سيبوا النّاس في حالها، محدّش مستحمل تطفّلكم! وسبحان الله اللّي يبصّ في حياتكم يلاقيها غمّ وسواد، وبتطلّعوه على غيركم، ده أنا متكلّمتش بسّ غير عن البنات لو اتكلّمت عن باقي الناس، وباقي تفاصيل التفاصيل أكيد هاحتاج كتاب لوحده! بسّ علشان مناخيركم الطويلة المحشورة في أيّ مصلحة. اخْتِشوا!

تمّت

أدخلُ حجرتي وأنا محتضنةً الكتاب، لا أتحدّث مع أحد، أستلقي على السرير بعد أن بدّلت ملابسي، أستكمل قراءته وأنا سعيدة سعادةً غامرة، أغلقه بعد أنِ انتهيت منه، وقد امتلأت فخرًا، وكاد قلبي يطير فرحًا، لم أكنْ لأتخيّلَ أنّ خروج الكتاب بشكل مميّز له هذه الفرحة، ولا أنّ رؤية كلماتي التي سطّرتُ من خلالها معاناتي الحقيقية مطبوعة، سيكون لها هذا الأثر في نفسي وسيمنحني كلّ هذه

السّعادة! الحمدُ لله على نعمه عليّ.

أهزّ رأسي بفرح وأتقمّص شخصية إيمان، وأقول: yes yes، عندما أتذكّر أنّني كنت دائمًا أكتب لنفسي خوفًا من مواجهة الجميع، وبفضل الكتابة (التنفيسية) أصبحت كاتبة؛ أقول رأيي دون خوف، وتعلّمت المواجهة بحزمٍ ولين في الوقت نفسه، لقد أصبحت أكثر تفهمًا وإدراكًا لمعنى الانْدماج دون الانصهار.. واكتشفتُ مؤخّرًا أنّ الناس تقبل أنْ تندمج معك، لكنها لا تقبل أن تنصهرَ فيك، وكلّ إنسان منّا يرغب في مساحة ليتحرّك فيها دون قيود، وأن يحتفظ بالناس حول حياته لا داخلها، حتى الصّغار اكتشفت أنّهم أولى الناس باحترام خصوصيّتهم مع مراقبة ما يحيط بهم من مخاطر، تتخفّى في هيئة أشخاص وأماكن.

تجربة التّأليف منحتني صبرًا وقوةً وطولة بال كنتُ أحتاجها عند تعاملي مع الآخرين، وسبحان الله لقد استخدمت (بوز البرّاد) هربًا من مواجهة الناس، فكان هو بداية مواجهتهم ومواجهة نفسي!

❊❊❊

يأتي زوجي متحمّسًا لمعرفة رأيي في الكتاب فأقول له:

- رائع، لكنْ في حاجات ضايقتني، منها وجود بعض الأخطاء الإملائية وقواعد النحو، أنا مش هابعتْ أيّ كتاب بعد كده لأيّ دار

نشر قبل تدقيقه عند مدقّق لغوي قوي.

فيقول لي وهو سعيد:

- مرّة وعدّت متزعّليش نفسك، وإن شاء الله نتدارك أخطاء أوّل مرّة.

لقد تمّ توزيع الكتاب بشكلٍ رائع، وحاز على إعجاب العديد من المهتمّين بالأدب الساخر، لدرجة أنّه قد تمَّ استخدامُ بعضٍ من رسائله في أحد البرامج الساخرة التي تقوم بانتقاد الأوضاع الاجتماعية البالية في البلد، وذاع صيته في المواقع الإلكترونية، ممّا جعل دور النشر ترغب في التّعامل معي! فأحمد لله على هذا النجاح!

وبعد نجاح كتاب (بوز البرّاد) كتبت كتبًا أخرى وامتهنتُ الصّحافة، وخاصّة الإلكترونية، ولكن دون أن تطغى على حلمي الذي أخطط له وسأنفذه قريبًا، محلّ للأنتيكات، والأشغال اليدوية!

ما تقرؤونه الآن هو قصّة حياتي، نعم أنا الكاتبة «لبنى عامر»؛ سطرت لكم فيها تجربتي ونقاط التّغيير في حياتي، وكلّ معاناتي ومواجهتي مع نفسي والآخرين، وتلك التحوّلات التي لم أكن أفكّر فيها ولم تكنْ لتخطر ببالي، فطموحاتي وآمالي قبل الزّواج كانت في اتّجاه آخرَ تمّ تقويضه من وجهة نظري- وقتها- بالزّواج؛ ليفتح الله لي بابًا آخر أكبر وأكثر سعةً وحياة، وأكثر جمالًا، ولعلّ بابًا يغلَق تظنّ

أنّ خلفه الخير الكثير، فيأتي من وراء غلقِه الخير كله!

وكيف كان الدفتر الذي استخدمتُه وسيلةً لتقليل الغليان والضغط النفسي، يكون كتابًا وفاتحةَ خيرٍ حتى أدخل عالم الكتابة السّحري؛ ذلك العالم الذي لا يعرفه إلّا محبو الكتابة!

لقد تعلّمتُ أنّ كلّ شيءٍ في الحياة مقدّر بقدر الله، وكلّ تصاريفه فينا خير! فقط نرضى ونراقب الله في أعمالنا وتصرّفاتنا، مع إدراكنا أنّنا بشر نخطئ ونصيب، وأنّ الآخرين يعانون مثلنا، فقد نكون نحن وهُم عبئًا متبادلًا، ولو تقبّلنا بعضنا البعض ومنحنا أنفسنا مساحاتٍ من الودّ والاحترام، لعشنا في سعادة وراحة بال.

عندما تصبحون حكامًا، تفصلون بين الناس، تَبادَلوا الأدوار معهم، وقتها ستكونون أرقّ قضاة الأرض، فالقاضي العادل لا يحكم على الآخرين دون سماعهم، ودون أن يعرف مبرراتهم. كونوا عادلين.

***

تمّت

2015/12/12

دار البشير للثقافة والعلوم

كلاكيت تاني مرّة
إيناس ماهر

يغمر الحجرةَ ضوءٌ باهر.. أسحبُ نفسي من تحت الغطاء، ورأسي تئنّ من صداع شديد، أركّز بصري في اتّجاه باب الغرفة، فأرى أمّي تقف مبتسمة، أجلس في محاولة لاستجماع ما الوقت الآن؟ وما الزّمن الذي أعيشه حاليًّا فقد نمتُ نومًا عميقًا، أنظر إلى الساعة لا أستطيع رؤية شيء، ومازالت غشاوةُ النوم تغطّي عيني! أشعر بشيء صلب ينخرُ في جانبي، أبسط يدي تحت الغطاء وأستخرج اللاب توب، فأتذكّر! لقد انتهيتُ اليوم باكرًا من كتابة رواية «يوم من غُلبي»، ونمت من شدّة الإرهاق، فقد ظللت أكتبُ فيها أكثر من 10 ساعات متواصلة، كنت فقط أقوم للصّلاة، وأعود مرّة أخرى، لأنّه قد حان وقت تقديمها لدار النّشر، وقبل أن تَهُم أمّي بالدّخول، أطلب منها أن تطفئ النور، على أنْ أضيء الأباجورة بجواري، فأنا لا أستطيع الآن تحمّل ضوء مصباح الحجرة القوي.

تسألني أمّي مستفسرة:

– إيه كلّ النوم ده يا إيناس؟

أدفعُ إليها «باللاب توب» وأقول: - اتفضّلي يا ستّ الكل، آخر جزء كتبته في الرّواية.. اقرئيه، وقوليلي رأيك، أنا الرواية دي هلكتني.

تأخذ اللاب وتغادر لتقرأ آخرَ ما سطّرته، فأمّي هي أوّل النقّاد وأهمّهم على الإطلاق، أمسك هاتفي النّقال وأجري اتّصالات مع دار النشر لنتّفق على الغلاف وعلى تفاصيل إخراجه بصورة جذّابة مميزة، فقد كان اتّفاقنا أن يكون الغلاف كاريكاتيريّ الشخصيات، وبألوان زاهية ملفتة لنظر القارئ، وأنْ تقوم الدّار بعمل حملاتٍ دعائية له قبل المعرض لنضمن توزيعه بشكلٍ جيد، وبعد أنْ أغلقت الهاتف، تدخل أمّي وهي تحمل في يديها صينية عليها أكوبٌ من الشاي وشطائر لانشون وجبنة رومي، فشعرت فجأة بالجوع، فالتقطت شطيرة لانشون وقرّبتها من فمي وأنا أقول لها:

- ماما باركيلي، اتّفقت مع دار النشر خلاص، أخيرًا هخلص من صداع «يوم من غلبي».

أمضغ قطعة طعام، وأرتشف بعدها رشفة شاي ثمّ أقول: ياه سنتين بكتب فيها يا ماما! دي تعبتني قوي، تعرفي شخصية لبنى دي واللّي معاها حقيقيّين، رغم إنّهم مش أشخاص في حياتنا، بسّ فعلًا أنا شفت النّماذج دي مع صحباتي، وطبعًا مش هانسي في منهم في عيلتنا، يا ربّ تطلع كويّسة وتعجب الناس وتفيدهم..

تهزّ رأسها موافقة وتقول لي:

- فعلًا يا إيناس، دي أخدت منّك وقت طويل.

ثمّ تقترب منّي وتمنحني عناقًا رائعًا، وتقول: هاه.. ناوية تعملي إيه بعد ما خلّصتِ الرواية دي؟ أُفلتُ نفسي من بين يديها برقّة وأقول:

- مش عارفة يا ماما، أنا أصلًا مش متخيّلة إزّاي عرفت أعيش الوقت اللّي فات ده من غير ما أتقمّص شخصية لبنى عامر! يااه دي شخصية مركّبة جدًّا، تعرفي أنا حاولت على قدّ ما أقدر إنّي أكون مُنصفة وأنا بكتب، بسّ طبعًا كنت ميّالة لها على حساب باقي الشخصيات.

ترتشفُ أمّي آخرَ رشفة شاي، ثمّ تضع الكوب وتقول:

- الحقيقة يا إيناس، عندي بعض التّحفظات حاسّاها طويلة، وفيها سرد كتير ومحتاجة منّك شوية مراجعة! شيلي شوية وخلّيها بسيطة.

أقول لها:

- لا يا أمّي مقدرش أشيل من الحوارات، بسّ أوعدك إنّي هاشيل من السّرد الزيادات اللّي مش هتفرق في الرّواية، خصوصًا إنّ الطباعة بقت نار بعد الجنيه ما عوِّموه.

تهزّ رأسها في رضًا، وتقول:

- خلاص اتّفقنا يا لبنى مستنّية تظبيطك للرّواية، وبلاش سيرة

المرحوم الجنيه، ربّنا يرحمنا برحمته.

أضحكُ وأكاد أسقطُ أرضًا، وأقول:

– ماما أنا إيناس مش لبنى، من أوّلها كده هتتلخْبطي بيني وبينها، معنى كده النّاس هتتلخبط بينّا، يا ربّ محدّش يفتكرها حياتي الشّخصية، أنا كلّ الحكاية عندي 25 سنة، ومعنديش مشكلة اتجوّز النّهارده قبل بكره، بسّ ييجي فارس أحلامي.

تلكزني أمّي في كتفي بلطف، وتقول:

– إنتِ عايزه تتجوّزي انتِ! أنا شايفة «لبني» قدّامي، طيب هاه هتردّي على العريس اللّي عايز يشوفك إمتى؟ الناس بيلحّوا علينا! علشان خاطري يا نوسة، شوفيه ولو معجبكيش خلاص، نفسي أشوفك عروسة، يا ربّ يا إيناس يا بنتي أفرح بيكِ واطمّن عليكِ، دانتي من كتر ما اندمجتِ مع شخصيّة لبنى حاسّة إنّك هتعملي زيّها في حياتك! ومش هتتجوّزي، وهتفضلي ترفضي في العرسان كده!

أقبّلها من وجنتيها، ثمّ أبتعد مسرعة– وهي تلاحقني بدعواتها الجميلة– لأردّ على الهاتف، فدار النّشر لن تتركني هذه الليلة حتى ننتهي من كافة التفاصيل.

تمّت

14/ 12/ 2017

عبير جمال الدين
عن يوم من غُلبي

(الطبعة الأولى)

هذا هو الكتاب الورقي الخامس بعد حكاوي الستّ ماما (لحظة ضعف) وأنا وعيلتي والموريستان، ومرايا الروح وبعضٌ منّا.

تمّ الانتهاء من كتابتها في منتصف عام 2016، بدأت بفكرة مختلفة عن فكرتها التي خرجت بها، ومع دار نشر غير الحالية، تمت مراجعتها في أول صورها مع الأستاذ محمد أبشر، ثمّ مع الأستاذ أحمد عبد السلام، وقد استفدت جيدًا من تدقيقهم للرواية في صورتها الأولى وقبل أن يتم إعادة نسجها من جديد فتحول تدقيقهما إلى نصائح علقت في ذهني لأن التدقيق ضاع مع النسيج الجديد.

لقد كان لدي عدة مقالات ساخرة وأردتُ أن أضعهم بصورة طبيعية في كتاب، ثمّ تطورت الفكرة واختلف الهدف من وراء كتابتها وأصبحت في شكلها الجديد بعد عدة محاولات، مضنية ومرهقة خرجت في صورتها الحالية «يوم من غلبي»

وقد شهد مولدها العديد من المقربين، لكن أنا وأسماء عبده،

وإيناس الوزان كنا كأننا في ورشة، عندما أنتهي من جزء أرسله لهما وأنتظر الرد والتشجيع بالطبع ..

ثمّ بدأت في جوهر وقلب الرواية وكانت هذه هي أصعب فترة، أرهقتُ معي صديقتي الطبيبة إيمان شوشة بأسئلة طبية واستشارات كثيرة، وبفضل الله كانت خير عون سواء من الناحية الطبية أو من النقد، لإخراجها في صورة مميزة.

وقد كان من المتوقع أن تتواجد في معرض 2017، ولم يقدر لها نصيب في هذا المعرض، فوضعتها جانبًا، وشعرت أنها ستكون رواية «غلسة» لأنها لا تريد أن تكتمل!

ثم قمت بإعادة صياغتها أكثر من مرّة بناء على نصائح المقربين، أصعبها على الإطلاق عندما أصرت صديقتي إيمان شوشة وابنة أختي رضوى الشاذلي على إعادة الصياغة بتغير الهيئة الأولى لها! فكل محاولات إعادة الصياغة كانت نقل فقرات، إعادة تركيب جمل، كانت عملية بسيطة وسهلة لم تأخذ مني وقتًا كبيرًا، أما ما طُلب مني فكان أكثر من تصوري، نسيج جديد! يا الله لن أستطيع، لن أتمكن، لا لن أكملها، وبالدعم وبالحث وبالتشجيع أخرجتها في ثوبها جديد! وبعدما انتهيت من الصياغة الجديدة، اكتشفت أنها الأفضل بفضل الله ثمّ بإصرار حبيباتي.

هي روايـة مرهقة مثل الشابة اليافعة، تُناورك وتُحـاورك وتُشاكسك لأخذ أفضل ما لديك ..

ولكنها للأسف مشاغبة جدًّا، فبعد أن قدمتها لدار النشر، قررت أن أجعلها رواية صغيرة فحذفت الكثير من الفقرات.

وقد قام الأستاذ عبد الواحد الحسيني بمراجعتها، وقبل أن أرسلها لدار النشر مرّة أخري قمت بإجراء تعديلات، تسببت في بعض الأخطاء اللغوية والإملائية، فقمت بعمل تحرير لها، لا أدري رقمه، ثمّ مرّة أخرى أنا وإيناس الوزان من خلال الماسنجر هي في أمريكا وأنا في القاهرة.. ثمّ فاطمة سعيد دققت الفصحى فقط.. ثمّ أخذتها المدققة جهاد أبو زينة ودققتها للمرة الأخيرة

أبطال «يوم من غلبي» غير حقيقيّين، وإن كانت بعض المواقف حقيقية وعايشت أبطالها!

أشكر كلّ مَن أرهقته معي أثناء كتابتها، وكلّ شخص ساندني لخروجها إلى النور.

عبير جمال الدين

صفحة الكاتبة الشخصية على الفيسبوك (عبير جمال الدين)

https: / /www.facebook.com /ELSETMAMA

صفحة الكاتبة الأدبية على الفيسبوك (حكاوي الست ماما)

https: / /www.facebook.com /Hakawyabeer /?pnref=lhc